عصر الأسرات

الأسرة الأولى (٣١٠٠ - ٢٨٩٠ ق.م)

١- الملك العقرب

يعتبر الملك العقرب من أوائل الحكام الذى تم اكتشاف آثار له تحكى بتفصيل نسبى عنه. ويحلو للمؤرخين أن يضعوه فى حقبة ما قبل الأسرات ليكون أحد الحكام الذين جاءوا مباشرة قبل «نعرمر» (نارمر)، وقد تم اكتشاف قطع متناثرة لدبوسه الملكى (الدبوس الملكى عبارة عن مقمعة كان يستخدمها ملوك مصر القدماء لضرب الأعداء، ولكن كانت أيضًا تنقش عليها النقوش الدينية والسياسية والحربية المهمة)، وعليها اسمه على هيئة رسم لعقرب، ونقش آخر له وهو يرتدى التاج الأبيض، والذى ارتداه حكام مصر فى عصر الأسرات، وهو يرمز إلى مصر العليا (الجنوب). وقد أظهرت تلك النقوش أيضًا أن الملك العقرب كان حاكمًا نشيطًا فيما يتعلق بالزراعة والرى؛ إذ يبين المنظر المنقوش على مقمعته منظرًا له وهو يحمل فأسًا، يستعد لشق ترعة به، وهى عادة وتقليد أصبح متبعًا لحكام مصر الفرعونية، حيث حرص الكثير من حكام عصر الأسرات على تصوير أنفسهم وهم يشقون الترع والمصارف ويحرثون الأراضى بالفئوس والمناجل، وبالتالى يساعد على جلب الخضار والحياة للأراضى القاحلة.

ونتعلم من نقوش الملك العقرب أيضًا أنه قاد احتفالًا سياسيًّا ودينيًّا لكل أقاليم مصر التى كان لها رموز سياسية تحمل على عصيان عالية أثناء الاحتفال.

وبالتالى، يصبح من المؤكد أن الملك العقرب هو واضع حجر الأساس لكثير من الأشكال الحياتية لحكام مصر فى عصر الأسرات. ومن الممكن أن نقول إن أعمال حكم الملك العقرب ما هى إلا جملة تم استخدام مفرداتها على مدار آلاف السنين، ومن هنا تظهر أهميته التاريخية.

٢- الملك نعرمر (نارمر)

أقر الغالبية العظمى من علماء الآثار أن الملك «نعرمر»، أو «نارمر» هو أول ملوك عصر الأسرات والمؤسس الحقيقى للأسرة الأولى حوالى ٣١٥٠ ق.م. وهو أيضًا الذى شاد عاصمة مصر فى تلك الآونة: «من ـ نفر» أى الميناء الجميل، والتى أصبحت معروفة فيما بعد باسم «منف»، أو «ممفيس»، وهى ميت رهينة الآن بالجيزة. كان يتسم بالشجاعة والجرأة والبنيان القوى، وقد تزوج من «نيت ـ حتب» أول ملكة مصرية. وقد أظهرت لنا صلايته الشهيرة التى من الممكن مشاهدتها الآن فى المتحف المصرى بالقاهرة كيف أن «نعرمر» قد انتصر على الشماليين الذين كانوا يقطنون أحراش الدلتا، وبالتالى وحد القطرين، وأصبح ملك مصر العليا والدُّنيا مرتديًا تارة التاج الأبيض الرامز لمصر العليا فى الجنوب ثم تارة أخرى مرتديًا التاج الأحمر الذى يرمز لمصر الدُّنيا فى الشمال. وقد نحت اسمه أعلى صلايته على الجانبين داخل نقش للسرخ (سرخ هى التسمية الهيروغليفية لواجهة القصر الملكى، والذى وضع فيه حكام مصر أسماءهم، وقد ابتُكرت هذه الطريقة قبل الخرطوش الملكى البيضاوى الشكل).

وقد تكون اسمه من رسمين: الرسم الأول هو لسمكة الـ «نعر» وهى معروفة فى مصر باسم «القرموط»، وفى اللغة العربية باسم «الجِرى» و«السَّلور» أما اسمها العلمى الحديث فهو Clarias Anguillaris، أما الرسم الثانى فهو يقبع أسفل السمكة وهو لمطرقة كانت تسمى قديمًا «مر». ويعتقد بعض المؤرخين أن «نعرمر» هو «مينا»، وذلك لوجود الاسمين بجانب بعضهما فى بعض الآثار، وهى نظرية ليست ضعيفة، وقد دُفن «نعرمر» فى مقبرة ب ١٧ - ١٨ فى منطقة «أم الكِعاب» فى الجبانة الملكية بأبيدوس أهم المناطق الدينية فى ذلك الوقت. وقد ذاع صيت هذا الحاكم لدرجة أن اسمه قد ذكر فى العديد من الوثائق فى فلسطين مما ينم عن ازدهار التجارة والعلاقات الدبلوماسية فى إبان فترة حكمه.

٣- حور ـ عحا

اسم «حور» معناه الصقر حورس واسم «عحا» معناه «المحارب»، مما يدل على شخصية هذا الحاكم الذى اعتلى عرش مصر وأصبح مع «نعرمر»، أو«مينا» من أهم مؤسسى الأسرة الأولى، وبالتالى عصر الأسرات كله. تم الكشف عن الكثير من أختام القارورات التى تحمل اسمه فى الكثير من الجبانات والمناطق الدينية مثل سقارة وأبيدوس ونقادة، وقد اشتهر فى أوساط الأثريين والمهتمين

لوحة نارمر بالمتحف المصرى بالقاهرة

بالتاريخ المصرى عندما تم الكشف عن شقافة من العاج وعليها نقوش بدائية توضح اسم الحاكم داخل سرخ (منظر لواجهة القصر) يعتليه صقر يقف شامخًا وبجانبه نقش لمركب عليها مقصورة ومناظر لمعبودات ونشاطات دينية، وقد كرس «حور ـ عحا» العديد من الاحتفالات والابتهالات الدينية للربة «نيت» التى كانت تعبد فى «صا ـ الحجر» بغرب الدلتا.

شقافة الملك «حور ـ عحا»

٤- دجير

ساعد طول مدة حكم الملك القوى «دجير» (حوالى ١٩ عامًا) على صنعه لإنجازات حربية فى الجنوب، حيث أمن الحدود مع البلاد المتاخمة. ويبدو أن تحولات سياسية وتطورات فنية ومعمارية قد بدأت فى عصره، فمقبرته كانت مميزة جدًّا بحجمها وبأرضيتها الخشبية، بل إن المقابر أصبحت مكانًا يحتوى على القارورات الحجرية والنحاسية، وأثاث مصنوع من العاج والأبنوس، وطعام وأسلحة وغيرها من الأشياء التى أراد المتوفى أن تكون معه فى رحلته الأبدية والحياة الأخرى بعد البعث. ومن هنا يظهر التطور الفكرى الدينى فى عصر «دجير».

هذه الاعتقادات والطقوس عاشت فى موروث المصرى القديم لمدة طويلة جدًا، بحيث لا يخلو متحف رئيسى فى العالم من هذه الممتلكات الجنائزية التى تم الكشف عنها فى مقابر الملوك والكهنة ورجال البلاط، بل والعمال وعامة الشعب، وتم الكشف عن مقبرتين للملك «دجير»: واحدة فى صحراء سقارة، والثانية فى أبيدوس.

٥- دجيت

اعتلى عرش مصر فى حوالى ٢٩٨٠ ق.م، واسمه يعنى «الثعبان»، وقد اشتهر بلوحة نقش فيها رمز الثعبان يعتليه الصقر «حورس» رمز الملكية والقوة والشباب والعنفوان. وقد وجدها المنقب «إميل آميلينو» فى نهاية القرن التاسع عشر. وهى الآن فى متحف اللوفر بباريس بفرنسا، واللوحة من النوع الجنائزى، بمعنى أنها سوف تصاحب وتساعد المتوفى فى الرحلة الأبدية وتقربه إلى أرباب الحياة والبعث، وهى منحوتة من الحجر الجيرى ذى النوعية الممتازة، وهى تحفة فنية رائعة الجمال، وقد حافظ الزمن عليها من عوامل التعرية، فبقيت وكأنها منحوتة البارحة. ويعتقد بعض العلماء أنه قد تزوج من «ميريت ـ نيت» والتى أصبحت فيما بعد ملكة مهمة جدًا فى تاريخ الأسرات المبكرة؛ لأنها استطاعت أن تعتلى العرش، فأصبحت بهذا الفعل أول ملكة سيدة حاكمة فى تاريخ مصر، وفى تاريخ العالم.

٦- الملك دن

اعتلى عرش مصر فى حوالى ٢٩٥٠ ق.م، وهو ابن الملكة الحاكمة «ميريت ـ نيت»، وقد كتب ونقش اسمه بعدة طرق، فلقد أطلق عليه «أوديمو»، و«ديوين»، ويعتبر أكثر ملوك الأسرة الأولى تأثيرًا فى التاريخ الفرعونى الملكى، وذلك **للأسباب الآتية:**

(أ) أحدث ثورة فى عالم المعمار الجنائزى عندما أضاف على مقبرته فى أبيدوس وأيضًا فى منطقة سقارة درجًا (سلالم) هابطًا يؤدى إلى المقبرة. وكانت هذه السمة غير موجودة فى أى مدفن قبل وقت الملك «دن».

(ب) هو أول حاكم يضيف إلى ألقابه الملكية لقب «نسو ـ بيتى»، ومعناه: «هو صاحب ساق النبات والنحلة»، وهو لقب مقدس حرص أغلب ملوك وفراعنة مصر القديمة على نقشه بجانب اسمهم فى مقابرهم ومعابدهم.

(ج) أرضية مقبرته كانت ممهدة بكتل من الجرانيت، وهى السابقة الأولى من نوعها، فأصبح الملك «دن» هو صاحب أول بناء جنائزى حجرى فى تاريخ مصر يتبع هذا الأسلوب الجديد المبتكر فى البناء.

(د) هو أول من ارتدى التاج الأبيض والتاج الأحمر، وهما تاجا مصر العليا والدنيا ، مؤكدًا أحقيته فى حكم البلاد.

(هـ) أول من احتفل بعيد تتويجه بالعَدو بين علامتين، وهو احتفال سياسى ودينى عرف فيما بعد ذلك بـ«حب ـ سد» أى احتفال الـ «سد» أو عيد الـ «سد» والذى اتبعه غالبية حكام مصر القديمة، والعَدو بين علامتين كان له سبب رمزى وسبب واقعى، فالعلامتان ترمزان لحدود البلاد التى يؤمنها الملك، أما عن السبب الواقعى فهو إثبات قوة الحاكم الجسمانية والصحية باستطاعته الجرى لمسافات طويلة، وبالتالى يصبح الملك مؤهلًا لحكم البلاد.

وقد كان لهذه العوامل الخمسة الأثر الكبير فى الديانة والسياسة والمعمار المصرى القديم. ومن هنا نستطيع أن نقول ـ بلا مبالغة ـ إن الملك «دن» ومرحلته يعتبران بمثابة الشرارة التى أشعلت شعلة الحضارية المصرية التى أنارت عصر الأسرات الفرعونية والمصرية القديمة.

٧- الملك عنيج ـ إيب

اعتلى العرش عام ٢٩٢٥ ق.م، وهو أول ملك مصرى يضيف إلى ألقابه لقب السيدتين، وكان يطلق عليهما بالهيروغليفية «نيبتى»، والسيدتان هنا هما طائر العقاب وثعبان الكوبرا، أصبح ذلك اللقب ملازمًا لملوك مصر من بعده.

تم اكتشاف مقبرتين فى سقارة وأبيدوس يُعتقد أنهما للملك «عنيج ـ إيب»، ويشكل هذا الملك غموضًا تاريخيًا لا يخلو من الإثارة؛ وذلك لأن اسمه قد تم محوه من فوق الأوانى الخاصة به، والتى كانت تعد لتكون ضمن ممتلكاته الجنائزية بمقبرته، وقد تزامن هذا مع اقتراب انتهاء عصر الأسرة الأولى، الأمر الذى جعل بعض الأثريين يعتقدون أن هذا الكشط لاسم «عنيج ـ إيب» هو نتيجة خلافات سياسية على العرش والسلطة عجلت بنهاية تلك الأسرة.

٨- الملك سمرخت

وصول «سمرخت» إلى كرسى السلطة يشوبه بعض الغموض، ويعتقد بعض المؤرخين

أنه لم يكن له شرعية؛ وذلك لعدم ذكر اسمه فى قائمة الملوك بسقارة (وهى قائمة ترجع إلى عصر الملوك الرعامسة فى الدولة الحديثة). ولذلك اتُهِم أنه هو المسئول عن محو اسم «عنيج - إيب» لكى يغتصب عرشه. والبعض الآخر يؤكد أنه كان ملكًا معترفًا به؛ لأن اسمه جاء ضمن قائمة «حجر باليرمو» (وهى قائمة للملوك ترجع إلى الأسرة الخامسة). على أى حال يتفق الجميع على أن نهاية الأسرة الأولى واضمحلالها بدأ مع فترة حكم «سمرخت»، واستمرت خلال حكم الملك «كا - عا» الذى خلفه فى الحكم عام ٢٨٩٠ ق.م، ورغم وصول الكتابات اهيروغليفية إلى مستوى عال فى عصر «كا - عا» إلا أن هذا لم يشفع لهذه الأسرة، وطبقًا لتقسيم المؤرخ «مانيتون السمنودى» للأسرات، انتهت الأسرة الأولى، وبدأت مباشرة وبدون أى تأجيل الأسرة الثانية من ٢٨٩٠ إلى ٢٦٨٦ ق.م .

الأسرة الثانية (٢٨٩٠ - ٢٦٨٦ ق.م)

١- حتب - سخموى

هو مؤسس الأسرة الثانية التى استمرت من ٢٨٩٠ حتى ٢٦٨٦ ق.م، وهى أسرة غامضة فى أحداثها رغم معرفتنا بأسماء ملوكها الذين حكموا بعد «حتب - سخموى»، وهم على التوالى «رع - نب»، ثم «نينيترى»، ثم «ونيج»، ثم «سينيدج»، ثم الملك «بر- إيب - سن».

٢- الملك بر - إيب - سن

تمكن هذا الملك المحارب من اعتلاء العرش فى حوالى ٢٧٠٠ ق.م، وقد لقب نفسه «غازى الأراضى الأجنبية»، وخلال حكمه حدث تغير دينى درامى، حيث استبدل «بر - إيب - سن» الرب حورس الصقر بمعبود آخر ألا وهو الرب «ست»، والغريب فى هذا التفكير أن الربين يعتبران أعداء بعضهما حسب الأسطورة، فـ «ست» هو قاتل أبى «حورس» (أوزوريس)، ومن المحتمل أن «بر - إيب - سن» حكم من الجنوب فقط، ولكن لم يكن هذا سببًا لوجود أى ضغائن مع الشمال، بل على العكس وجد العلماء أن الملك «سينيج» شيد هيكلًا دينيًا للملك «بر - إيب - سن» مما يدل على حالة السلام والتوافق بين القطرين القبلى والبحرى.

ولكن يبقى تغير الأرباب من «حورس» إلى «ست» هو المفاجأة التى فجرها الملك «بر - إيب

ـ سن» والتى ما زالت تحير المؤرخين حتى الآن. وربما كان السبب تنامى قوة كهنة معبد «ست» وتعاظم سلطاتهم هو ما جعل ملك الجنوب يرضخ لتغيير الرب المقدس لمملكته.

على أى حال «ست»، كان ربًّا معترفًا به فى مصر القديمة، وكان يرمز إلى الصحراء، والأمطار الرعدية والكوارث، والحرب والقتال وغيرها من الصفات، ولم يتصف بالشر إلا من قبل مريدى «حورس الصقر»، فى أوقات وأزمنة بعينها، كان لـ «ست» احترام وتبجيل من بعض الحكام حتى إن الملك «سيتى الأول والثانى» أطلقا على أنفسهما أسماء لها علاقة وطيدة بالرب «ست». فـ«سيتى» معناها «أنا ست».

٣- الملك خع ـ سخموى

يعتبر آخر ملوك الأسرة الثانية وأهمهم على الإطلاق، وقد كان سياسيًّا محنكًا وديبلوماسيًّا ذكيًّا. ومن الواضح أن التغير الدرامى الدينى الذى انتهجه «بر ـ إيب ـ سن» قد قاد البلاد إلى مرحلة من عدم الاستقرار، أقرب إلى الحرب الأهلية. ولكن شخصية «خع ـ سخموى» القوية والحكيمة أعادت المياه إلى مجاريها، واستطاع بذكاء وفطنة سياسية أن يعيد السلام إلى وادى النيل، حيث وضع الربَّيْن «حورس» الصقر و«ست» على أعلى اسمه الذى كان ينقش داخل رمز الـ «سرخ» (واجهة القصر)، وبالتالى جعل مريدى الربين سعداء بهذا التوافق والاعتدال فى عدم تفضيل رب على الآخر. هذا الفعل أسعد الجانبين، بل إن اسم الملك نفسه معناه: «تجلى القويان»، وقد تزوج «خع ـ سخموى» من أكثر من زوجة، ولكن أكثرهن أهمية هى الملكة «نى ـ ماعت ـ حب» لدرجة إنها قد عُبدت كشخصية مقدسة إبان الأسرة الثالثة. وبجانب أن «خع ـ سخموى» هو آخر ملك للأسرة الثانية، فهو أيضًا آخر ملك دُفن فى أبيدوس بالجبانة الملكية؛ لأن الحُكم بعده انتقل من أبيدوس إلى منف، فأصبحت الجبانة الملكية فى سقارة. وقد كانت مقبرته فى أبيدوس من أكبر المقابر حجمًا؛ إذ وصل طولها إلى ٧٠ مترًا، وبها حوالى ٤٤ غرفة، منها واحدة لغرض الدفن، وعدد من الغرف لتخزين الهبات والقرابين الجنائزية.

وقد حكم «خع ـ سخموى» حوالى ١٥ سنة.

وبنهاية الأسرة الثانية يكون قد أسدل التاريخ الستار على واحدة من أهم الحقب المصرية القديمة، ألا وهى حقبة التحضير والبداية ...حقبة الاختبارات والتمهيد. وقد مهدت تلك المرحلة الطريق للأسرة الثالثة لتسطع فى سماء التاريخ المصرى بعد اكتمال مقادير المعادلة.

الدولة القديمة (٢٦٨٦ - ٢١٨١ ق.م)

الأسرة الثالثة (٢٦٨٦ - ٢٦١٣ ق.م)

١- الملك زوسر (جسر)

يُعتبر «جسر» هو المؤسس الحقيقى لهذه الأسرة المهمة، وقد حكم ما بين ٢٦٦٧ و٢٦٤٨ ق.م (حوالى ١٩ عامًا تقريبًا)، واسمه الصحيح «جسر» وليس «زوسر» (وهو الاسم المشهور به) لأنه ليس هناك حرف (ز) فى الكتابة الهيروغليفية، أما اسمه الحورى (المرتبط بالرب حور أو حورس الصقر) فهو «نترى ـ غت» أى الجسد المقدس.

تمثال الملك زوسر بالمتحف المصرى بالقاهرة

وقد حدثت فى عصره أحداث وإنجازات غاية فى الأهمية، منها تأمين الحدود المصرية فى منطقة سيناء والتحكم المصرى التام فى كل مواردها مثل الفيروز والنحاس، وتحويل طريقة البناء من البناء باستخدام الطوب الآجر إلى استخدام أحجار مقطوعة بطريقة متساوية ومنظمة. وقد اختار «جسر» مع عماله الأكفاء الحجر الجيرى ليكون قاسمًا مشتركًا فى غالبية البناء المبهر فى منطقة سقارة.

وهنا يتوقف التاريخ لبرهة ويقف مشدوها أمام عبقرية المعمارى المصرى القديم المهندس «إيموحوتب» واسمه الصحيح «إيمحتب» الذى خطط وشيد المجموعة الجنائزية للملك جسر بسقارة، وفيها الهرم المدرج وهو الأول من نوعه فى تاريخ الحضارات بارتفاع يصل إلى ٦٠ مترا.

دعونى أقدم لكم هذه الشخصية الفذة التى تعلم منها العالم الكثير.

بطاقة إيمحوتب الشخصية:

الاسم بالكامل: إيمحوتب كا ـ نفر.

النطق الصحيح للتسمية: إيم ـ حتب.

معنى اسم إيم ـ حتب: الذى يأتى فى سلام.

تاريخ الولادة ١٦ من شهر أبيب ـ فصل «شمو» وهو فصل الحصاد.

سنة الولادة : ٢٦٠٠ ق.م تقريبًا.

مكان الولادة : إقليم منديس ـ الدلتا ـ مصر.

اسم الأم: خردو ـ عنخ.

العنوان فى وقت الولادة : ضاحية عنخ تاوى.

اسم الزوجة: رنبت ـ نفرت.

المهنة : وزير، ومهندس، وفلكى، وطبيب، وكبير الكهنة المرتلين، وكبير القضاة، وحامل الخاتم الملكى، والمشرف على ما تأتى به السماء، وما يخرج من الأرض، وما يجلبه النيل، والمشرف على سجلات الملك.

ألقابه على قاعدة تمثال الملك «جسر»: مستشار ملك مصر السفلى، أكبر رجال ملك مصر العليا، ومدير البيت الكبير (القصر الملكى) النبيل بالوراثة وكبير كهنة أون (هليوبوليس). كان له ابن

شهير أيضًا اسمه «رع ـ حوتب» وكان يعمل كمهندس وحاكم إقليم. أما عن تماثيل «إيمحوتب» (رغم عدم اكتشاف مقبرة له حتى الآن) فقد وصل عددها إلى ٢١ تمثالًا فى المتحف المصرى، و١٤ فى المتحف البريطانى، و٤٨ فى متحف ويلكوم لتاريخ الطب، و ٣ فى متحف الأشموليان، و ٧ فى متحف المتروبوليتان، و ٥٠ فى متحف اللوفر، و ٢ فى متحف بوميه، و ٥ فى متحف تورين. والأعداد فى ازدياد نتيجة الاكتشافات الجديدة.

تاريخ الوفاة : ١٧ من شهر مسرى، الشهر الرابع للصيف، ويعادل يوم أول يوليو.

هرم سقارة المدرج والذى شيده المهندس إيمحوتب للملك زوسر ـ الجيزة

وقد تفوق «إيمحوتب» على نفسه كمعمارى عندما شيد أول هرم مدرج[1] بهذا الحجم بسقارة، وقد أحدث استخدامه للحجر الجيرى والأعمدة المحاكية لشكل سيقان البردى، وزيادة عدد المصاطب إلى ست مصاطب غير متساوية، وتشييده لمجموعة جنائزية كاملة متضمنة فناء لممارسة احتفال الـ«سد» (إعادة تتويج الملك)، ومعابد وغرفًا ملكية ودهاليز وسراديب وتماثيل

(١) هرم زوسر: هو الهرم المكون من ست درجات غير متساوية من الحجر الجيرى. وهو أول بناء هرمى مدرج بهذا الحجم، شُيد مستخدمًا ذلك الحجر بتشكيلاته وأحجامة المختلفة عمَّا قبله من بناءات. المهندس العبقرى «إيمحوتب» شيده ليصل ارتفاعه حوالى ٦٠ مترًا. تحت الهرم يوجد بئر منحوت فى الأرض يصل عمقه إلى ٢٨ مترًا فى نهايته يوجد غرفة جرانيتية للدفن محاطة بعدد من الدهاليز والممرات.

على مساحة شاسعة محاطة بسور يبلغ طول محيطه ١٦٠٠ متر، أحدث كل هذا ثورة فى عالم الهندسة والتفاعل الاجتماعى بين طبقة الفلاحين، الذين حولهم إلى بنائين، من جهة والطبقة الملكية من جهة أخرى. وأصبح «إيمحوتب» من الشخصيات النادرة فى التاريخ المصرى؛ وذلك لأنه قد احترم، بل وقُدس بعد مماته، رغم أنه لم يكن يحمل الدم الملكى فى عروقه حسب التقليد المصرى القديم، بل إنه بعد ألفى عام من وفاته وأكثر قام الإغريق بتقديسه، وشبهوه بـ«أسكليبيوس» رب الطب عندهم. وهو أيضًا أول طبيب بشرى فى التاريخ، وقد ذكر اسمه فى معابد كثيرة ونصوص قديمة مثل معبد بتاح وحتحور بالكرنك، وقد بُجل بمعبد فيلة بأسوان، ومعبد إدفو ، ومعبد دابود والدكة، وكلابشة وغيرها، ويعتبر «إيمحوتب» فخرًا لكل مصرى فى الماضى والحاضر، وملهمًا للمستقبل. ورجوعًا للملك «جسر» نجد أنه لم يكتف بالهرم المدرج بسقارة، بل شيد لنفسه مصطبة كبيرة فى منطقة بيت خلاف بجرجا، ومن أهم الآثار التى تركها لنا الملك «جسر» هو تمثاله الذى نحت من الحجر الجيرى، والذى يعتبر حتى الآن من أوائل التماثيل المكتملة المحاكية للحجم البشرى الطبيعى، التمثال يُبرز سمات الملك الجسمانية وهو جالس على كرسى العرش المصرى مرتديًا الرداء الكتانى المخصص للاحتفالات الدينية والسياسية، يصل ارتفاعه إلى ٤ , ١ متر، وهو الآن موجود بالمتحف المصرى بالقاهرة داخل قاترينة زجاجية على اليسار مباشرة بعد المدخل. العينان مفقودتان، ولكن من الواضح أن التمثال كان ملونًا، ويظهر بوضوح أن الملك «جسر» كان له شارب. للأسف لم يتم اكتشاف الجسد المحنط لـ«جسر» رغم اكتشاف أكثر من تابوت وآلاف القارورات وحوائط مغطاة بالسيراميك الأزرق اللون داخل مجموعته الجنائزية. ويجب هنا أن نذكر المجهود الملحوظ لعالم الآثار الفرنسى «لوير» الذى أفنى حياته من أجل ترميم وإعادة بناء الكثير من أجزاء المجموعة الملكية.

ويبقى أن نذكر شخصيتين لعبتا دورًا كبيرًا ومؤثرًا فى حياة «جسر» العائلية ألا وهما زوجته المسماة «حتب ـ حر ـ نبتى» وابنته «إينتكا ـ إس»، والتى ذُكرت فى كثير من اللوحات الحجرية المخصصة لتحديد الحدود السياسية لمصر فى وقت «جسر»، وقد تم الكشف عنها داخل السور المحيط بالمجموعة الجنائزية للهرم المدرج بسقارة. وتلك اللوحات تقبع الآن فى العديد من المتاحف العالمية.

الأسرة الرابعة (٢٦١٣ - ٢٤٩٤ ق.م)

(حديثًا اعتبر عدد من الأثريين أن الدولة القديمة قد استمرت من الأسرة الرابعة حتى الأسرة الثامنة).

١- الملك سنفرو

حكم الملك «سنفرو» ابن «حونى» (آخر ملوك الأسرة الثالثة) من ٢٦١٣ إلى ٢٥٨٩ ق.م، وهو المؤسس لأهم أسرة حافلة بالأعلام الفرعونية الشهيرة. ورغم أن أمه «ميرسى عنخ» لم تكن تحمل الدم الملكى وغالبًا كانت محظية من محظيات «حونى»، إلا أنه استطاع أن يحتل مكانه بجدارة على عرش مصر.

قام على الفور بتأمين الحدود الجنوبية والغربية، وبعث أيضًا بالحملات إلى شبه جزيرة سيناء للاستفادة من محاجر التركواز (الفيروز)، واشتُهر الملك «سنفرو» لأسباب أخرى كانت هى الأهم من وجهة نظر كاتبى التاريخ ومؤرخيه، منها أن «سنفرو» هو صاحب هرمى دهشور وهما الهرم الأحمر (وهو ثانى أكبر هرم فى تاريخ مصر بعد هرم الملك «خوفو» بهضبة الجيزة وهو الهرم الذى دفن فيه «سنفرو»)، والهرم المنحنى، وهو أيضًا الذى أكمل مهمة والده «حونى» فى بناء هرم ميدوم الناقص. ودائمًا ما تجده ـ سنفرو ـ متفردًا. فهو الملك الوحيد الذى شيد هرمين ضخمين فى منطقة واحدة، وهى دهشور (وهى منطقة أثرية بجانب سقارة بالجيزة)[1]. وهو أيضًا أول من وضع اسمه الملكى داخل «خرطوش» (شكل بيضاوى كتب فيه الملوك والملكات أسماءهم داخله). ولكن هذا لم يجعله يغفل ذكر اسمه الحورى (المنتسب للرب حورس) «نب ـ ما عت».

---

(١) هرم دهشور: هرم الملك سنفرو يطلق عليه الهرم الأحمر أو الهرم المكتمل وذلك لأن الحجر الجيرى قد تفاعل مع الهواء فصبغ بلون بنى مائل للاحمرار. وهو يعتبر ثانى أكبر هرم فى مصر بعد خوفو. مشيد من الحجر الجيرى المحلى ولكن الطبقة الخارجية مبنية من كساء حجرى مقطوع من محاجر طرة. يصل ارتفاعه إلى ٩٩ مترًا وزاوية بناء الهرم تصل إلى حوالى ٤٣°. مدخل الهرم كائن فى الناحية الشمالية كالعادة، يؤدى المدخل إلى ممر هابط طوله ٦٠ مترًا يؤدى إلى ثلاثة حجرات تحت مستوى الأرض.

الهرم المنحنى بدهشور: هو الهرم الوحيد الذى بنى بهذه الطريقة. يصل ارتفاعه إلى ١٠١ متر وقد غير المهندس المصرى القديم زاوية بنائه الانحدارية من ٥٤° إلى ٤٣° تقريبًا على ارتفاع ٥٠ مترًا تقريبًا وذلك لأسباب دينية ومعمارية. الهرم مشيد من الحجر الجيرى. مدخله على ارتفاع ١١,٨ مترًا ولكنه غير مصرح بدخوله حتى الآن. ويعتبر من أهم أهرامات مصر وذلك للفكرة المعمارية التى شُيد بها مما جعل الكساء الخارجى يحتفظ بنفسه حتى الآن.

الاسم الملكى لـ«سنفرو» داخل خرطوش ملكى بيضاوى الشكل
حديقة المتحف المصرى بالتحرير ـ القاهرة

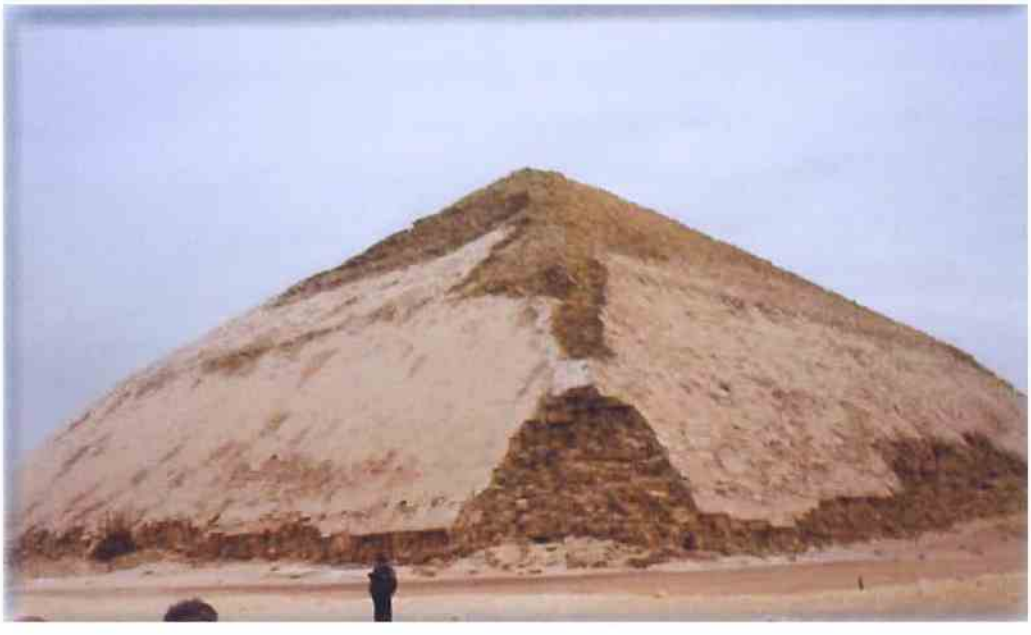

هرم دهشور المنحنى للملك سنفرو بمنطقة دهشور

و«سنفرو» هو أبو الملك الأشهر «خوفو»، ووصفته النصوص القديمة بصفات متفردة، فقد ذكرت بعض النصوص القديمة التى ترجع إلى الدولة الوسطى (حوالى ٢٠٠٠ ق.م)، وما بعدها أن «سنفرو» كان يتصف بالقدسية وخفة الظل. وله آثار نادرة حاليًا موجودة فى المتحف المصرى، ولكن للأسف لم يتم العثور على مومياته حتى الآن .

٢- الملك خوفو

وهو أشهر الملوك المصريين القدماء على الإطلاق (ينافسه فى هذه السمعة الملك «رمسيس الثانى»)، وذلك لأنه صاحب أكبر هرم مصرى قديم بهضبة الجيزة، وهو العجيبة الوحيدة الباقية من عجائب الدنيا السبع القديمة.

الملك «خوفو» هو ثانى ملوك الأسرة الرابعة، اسمه بالكامل «خنوم ـ خوفو ـ ى»، ومعناه «خنوم (الرب المقدس الأسطورى) يحمينى». وقد حكم من ٢٥٨٩ إلى ٢٥٦٦ ق.م. تزوج «ميريتيوتس الأولى»، وكان له العديد من الأبناء والبنات، منهم الملك الوريث

«چيد ف ـ رع»[1]، وقد وُجِدَت نقوش تحمل اسمه فى الجنوب، ووادى حمامات، وبالقرب من توشكى، بل وفى مدينة جبيل بلبنان. وهذا دليل على انتعاش التجارة والعلاقات الاقتصادية بين مصر وغيرها من البلاد المجاورة إبان حكم «خوفو»، وقد كان معروفًا بولائه لأمه الملكة الشهيرة «حتب حرس» والتى اشتهرت مقبرتها بالأثاث الجنائزى الرائع والموجود حاليًا فى المتحف المصرى بالقاهرة، ولكن يبقى هرم الملك «خوفو» بهضبة الجيزة هو أهم الإنجازات المعمارية فى تاريخ العالم القديم، وما زال هرم «خوفو» يمثل لعلماء الآثار علامة استفهام غير مشروحة.

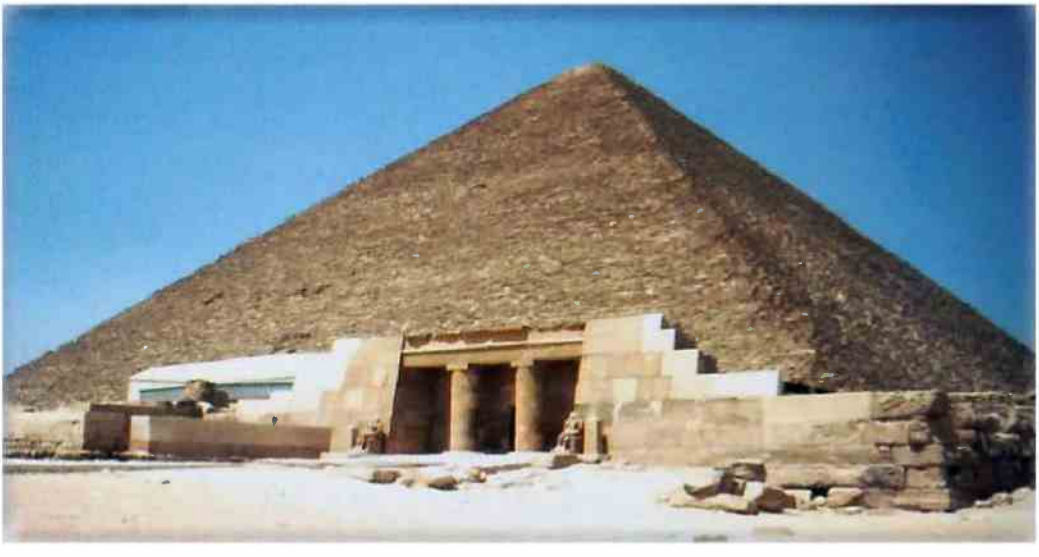

الجانب الجنوبى والشرقى لهرم الملك خوفو بالجيزة

ولم يستطع أى مؤرخ، أو أثرى، أو مهندس معمارى أن يفك طلاسم هذا المبنى المبهر الذى بناه مائة ألف عامل مصرى (كما ذكر المؤرخون اليونان) مقابل أجر يومى. وما كانت للعبودية أن تنجز هذا البناء بهذه الدقة المتناهية، وقد استمر العمل فى بنائه حوالى عشرين عامًا، ولم يتوصل الأثريون إلى الطريقة التى صعد بها المهندس والفنى والعامل المصرى بتلك الأحجار إلى تلك الارتفاعات العالية، وخصوصًا أن وزن تلك الأحجار يتراوح ما بين ٢ طن و ١٥ طنًا. فبعضهم يؤكد أنهم استخدموا فكرة الطرق الحلزونية الصاعدة، والبعض الآخر أكد على استحالة هذه

(١) أسماء الملوك والملكات القديمة يختلف نطقها وكتابتها باختلاف طريقة الترجمة فمثلاً نجد أن «چيد ف ـ رع» تنطق وتكتب فى حالات أخرى «جد ـ ف ـ رع». وسوف ننوه عن هذا فى كل الحالات.

الطريقة هندسيًا. وبقيت فكرة عدم استخدام العجلة فى عملية نقل الأحجار مستحوذة على تفكير الأثريين حتى فاجأنا العلامة الأثرى القدير «سليم حسن» بمعلومة قلبت الموازين التاريخية، يقول العلامة «سليم حسن» فى موسوعته الشهيرة «مصر القديمة»: بأن الجامعة المصرية اكتشفت بمنطقة الجيزة قطعتين أسطوانيتين حجريتين وهو ما يثبت أن المصرى القديم عرف فكرة العجلة المستديرة قبل دخول الهكسوس بعجلتهم الحربية، ثم يضيف: «... وأن البَكَرَ كان يستعمل لرفع هذه الأحجار». وهناك من يعتقد أن المصرى القديم ابتكر فكرة الشادوف لرفع الأحجار إلى أعلى كما يفعل مع الماء، وأخيرًا خرج علينا بعض العلماء بفكرة أن الهرم شُيِد من الداخل أولا كما كان يُعتقد. على أى حال ما زالت النظريات تتلاطم كالأمواج فى محيط علم الآثار والهندسة.

يحتل الهرم الأكبر للملك «خوفو» مساحة تصل إلى حوالى ١٣ فدانًا، وهو مبنى من ٢,٣ ملايين من الحجر الجيرى (ويوجد من يعتقد أنهم حوالى ٤ ملايين حجر حسب آخر بحث فى بريطانيا) فى منظومة معمارية قوامها ٢٠٣ طبقة يصل ارتفاعها إلى ١٤٦ مترًا تقريبًا. الاتجاهات الأربعة للهرم متوجهة للاتجاهات الأصلية .. الشمال والجنوب والشرق والغرب، وقاعدته مربعة، ومن العجيب أن نسبة الخطأ الذى وقع فيه المعمارى المصرى القديم عندما أراد أن يصل إلى تلك الحسابات الهندسية والفلكية الصحيحة هى ٠,٠٦ ٪ (وهى تكاد تكون منعدمة تمامًا، فهذه النسبة نسبة صغيرة جدًا رغم عدم اكتشاف أية أدوات فلكية كافية للوصول إلى هذه الدقة المتناهية، واضعين فى الاعتبار أن هذا كله كان يحدث حوالى ٢٥٠٠ ق.م) . تم إحضار الحجر الجيرى من منطقة هضبة الهرم نفسها بجوار الهرم، ولكن الكساء الخارجى كان يجلب من محاجر طرة بجبل المقطم الموجود على الجانب الشرقى لنهر النيل، وذلك لأن حجر طرة أقوى فى الاحتمال وأجمل فى الشكل، فكان من ذكاء المصرى القديم أنه استخدمه لبناء الكساء الخارجى؛ لكى يعطى انطباعًا ساحرًا ومؤثرًا للناظر.

هناك العديد من الدهاليز المكتشفة وغير المكتشفة بعد داخل هرم «خوفو». المدخل الوحيد للهرم الآن يقع فى الناحية الشمالية على ارتفاع ١٦ مترًا فوق مستوى الأرض، وهو يؤدى إلى دهاليز صاعدة تصل فى النهاية إلى غرفة الدفن.

لا توجد أى نصوص هيروغليفية على الجدران الأربعة لغرفة الدفن، ولكن توجد فتحات تؤدى إلى السطح الخارجى للهرم. وقد فسر الأثريون هذه الفتحات تارة بأنها فتحات للتهوية، وتارة أخرى بأنها تؤدى إلى اتجاهات فلكية لها علاقة بنجوم وتجمعات للأجرام السماوية التى كان يؤمن

بها المصرى القديم، وبعلاقاتها المؤثرة بالحياة الأخرى الأبدية، ولكن التابوت الجرانيتى داخل غرفة الدفن به شىء غريب، فهو بوصة واحدة أعرض من مدخل الغرفة، فكيف إذن أدخله عمال البناء من خلال الباب الوحيد لغرفة الدفن ؟ والطريقة الوحيدة التى كان من الممكن وضعه فى الغرفة هى أن العمال قد وضعوه ثم بنوا الهرم من حوله، وهى طريقة ذكية لحل مشكلة طول وعرض التابوت.

التابوت موجود حاليًا، ولكن الغطاء مفقود، والمومياء مفقودة أيضًا.

وقد تم بناء هرم «خوفو» على خط عرض ٣٠ بدقة بالغة، ولكن تبقى نظرية غريبة حتى الآن لا يستطيع أحد أن يفك طلاسمها، ألا وهى أنه إذا افترضنا أن بالهرم ٢,٣ ملايين من الأحجار تم بناؤها فى ٢٠ عامًا عن طريق ١٠٠,٠٠٠ عامل يعملون حوالى ١٠ ساعات يوميًا لمدة ٣٦٥ يومًا فى العام، لكان لزامًا عليهم أن يضعوا ٣١ حجرًا فى مكانها فى الهرم كل ساعة، وهذا شبه مستحيل إذا لم يكن المستحيل نفسه، وقد أطلق المصرى القديم على الهرم لقب «مر» بالهيروغليفية، ولما جاء الإغريق أطلقوا على الأهرامات «بيراميدس» لأنها كانت تشبه كعكة الخبز المصنوعة من القمح فى شكلها المثلث المدبب عندهم فى اليونان، ومن هنا جاءت تسمية الهرم «بيراميد» بالإنجليزية الآن.

وقد تم اكتشاف اسم «خوفو» داخل خرطوش ملكى فى أكثر من موضع داخل وخارج الهرم على أحجار منفصلة، وعلى جدران قديمة، ومقابر مجاورة للهرم، ومنها المنحوت ومنها المكتوب.

وقد فجر عالم اللغويات الفرنسى «شامبليون» مفاجأة كبيرة عندما أكد: «.... الأهرام بلا شك، مهما كان المجهود الذى بذل فى بنائها، عمرها سبعة آلاف سنة أو أكثر والدليل فى بردية».

ولو صح كلام «شامبليون» لأصبح عمر الأهرامات أقدم مما نعتقد الآن، وهو ما يعد انقلابًا فى تأريخ عصر الأسرات الفرعونية، الأمر الذى يُعطى تاريخ مصر عمقًا أكبر.

لم يكن هناك سُخرة أو عُبودية للعامل المصرى الذى نقل الأحجار بعد تقطيعها، فقد تم الكشف عن مقابر لعمال فى منطقة هضبة الهرم، وهى دليل قاطع على احترام العامل المصرى الذى كان يعمل ٨ أيام فى الأسبوع (وهذا، لأن الأسبوع المصرى كان قوامه ١٠ أيام)، وهذا معناه أن العامل كان يرتاح لمدة يومين فى الأسبوع، وهذا دليل على حضارة تقدر وتحترم العامل وتقدم له راحة يومين حتى يرجع لعمله وهو فى قمة النشاط والحيوية، بل إنه كان للعامل نظام تأمين

الجانب الشمالى لهرم خوفو ـ الجيزة

صحى من قِبل الحاكم، وكان يتم صرف وجبات غذائية ومشروبات ومرتبات للعمال، وقد تم الكشف عن تمثال صغير للملك «خوفو» (وهو الوحيد من نوعه الموجود الآن فى المتحف المصرى بالقاهرة) عام ١٩٠٣ عن طريق العالم الأثرى الإنجليزى «بترى». طول التمثال ٧,٥ سم وهو من العاج، وقد تم اكتشافه فى معبد الرب الأسطورى «خنتى ـ أمنتيو» بمنطقة أبيدوس. وهنا يبقى السؤال: هل هناك تماثيل أخرى ما زالت تحتضنها رمال صحراء مصر الذهبية لهذا الملك صاحب أكبر إنجاز معمارى؟

لقد بقى هرم «خوفو» أعلى بناء شيده الإنسان حتى عام ١٨٨٩م، عندما تم بناء برج إيـفـل ليكون الأعلى فى وقته.

هرم «خوفو» وتاريخ صاحبه لا يزالان علامة استفهام كبرى فى تاريخ الحضارات.

٣- الملك خفرع

ابن «خوفو»، اعتلى العرش بعد «چيد ف ـ رع»، وهو رابع ملوك الأسرة الرابعة. والنطق الصحيح لاسمه «خع ـ إف ـ رع» والذى نحت داخل الخراطيش الملكية المنحوتة على تماثيله البديعة والتى منها تلك التحفة الفنية الرائعة المنحوتة من حجر الديوريت الأسود الذى يتخلله عروق بيضاء، وهو الآن بالمتحف المصرى بالقاهرة، وقد اكتشفه «ماريت» عالم الآثار فى عام ١٨٦٠ فى بئر حُفر فى أرضية معبد الوادى، وقد وُجد فى الوضع مقلوبًا ...

وقد حكم بين عامى ٢٥٥٨ و٢٥٣٢ ق.م أى ٢٦ عامًا أنجز خلالها العديد من الأعمال، ومنها الهرم الثانى بهضبة الجيزة، وتمثال أبى الهول، ومعبد الوادى. ورغم تعدد النظريات عن تلك الأبنية إلا أن الأثريين الكلاسيكيين يؤكدون أن «خفرع» هو الذى شاد كل تلك الإنجازات المعمارية.

ينفرد هرم «خفرع» بوجود بقايا للكساء الخارجى الحجرى بأعلى الهرم، تم اكتشاف دهاليز الهرم الداخلية وغرفة الدفن، ولكن لم يتم العثور على مومياء الملك حتى الآن (كما هو الحال مع «سنفرو وخوفو ومنكاورع» وغيرهم من ملوك الدولة القديمة).

ومن أشهر أعمال «خفرع» النحتية، تمثال أبى الهول الرابض فى الجانب الغربى لهضبة الأهرام مواجهًا الشرق لكى يُحَيى قرص الشمس كل صباح، وهناك العديد من النظريات والكتابات التى أحاطت بتاريخ أبى الهول، ويجدر بنا ذكر المعلومات الآتية:

التمثال الديوريتى للملك خفرع بالمتحف المصرى ـ ميدان التحرير ـ القاهرة

هرم خفرع ويظهر بأعلى الهرم بقايا الكساء الخارجى الأصلى ـ الجيزة

تمثال الملك خفرع الديورتى، ويظهر الصقر حورس الحامى بفرد جناحيه، وهو منحوت من نفس القطعة الحجرية للتمثال

هرم خفرع من زاوية نادرة

معبد أبى الهول ومن خلفه التمثال الرابض، وفى الخلفية هرما خفرع ومنكاورع ـ الجيزة

تمثال أبى الهول

تسميته الهيروغليفية هى «حر ـ إم ـ آخت» أى حورس فى الأفق. وحورس هو الرب الصقر الأسطورى الذى يحلق فى الأفق لغرض الحماية، فهو فى المقام الأول تمثال نُحت من الصخرة الأم ليكون رمزًا للحماية وتجسيدًا لفكرة القوة والحماية.

التمثال يتكون من شكلين متصلين فى الجسد منفصلين فى طبيعتهما، والجزء الأعلى هو لرأس الملك نفسه وهو يرتدى غطاء الرأس «نمس» كما أُطلق عليه بالهيروغليفية. الفم يصل اتساعه إلى ٧ أقدام و٧ بوصات، والأنف ٥ أقدام و٧ بوصات، والأذن تبلغ ٤ أقدام و٦ بوصات، والعينان مصريتان واسعتان ذات تحديد فرعونى، وبقايا اللون الأحمر ما زالت تظهر بوضوح على الوجنة اليمنى.

أما عن الأنف والذقن المستعارين فهما غير موجودين ...الذقن جزء منها موجود فى المتحف المصرى والجزء الآخر موجود فى المتحف البريطانى بلندن فى فاترينة زجاجية ليست ببعيدة عن حجر رشيد، أما عن الأنف فلها قصة مثيرة جدًّا، فقد اتَّهم «المقريزى» شخصًا يدعى «صائم

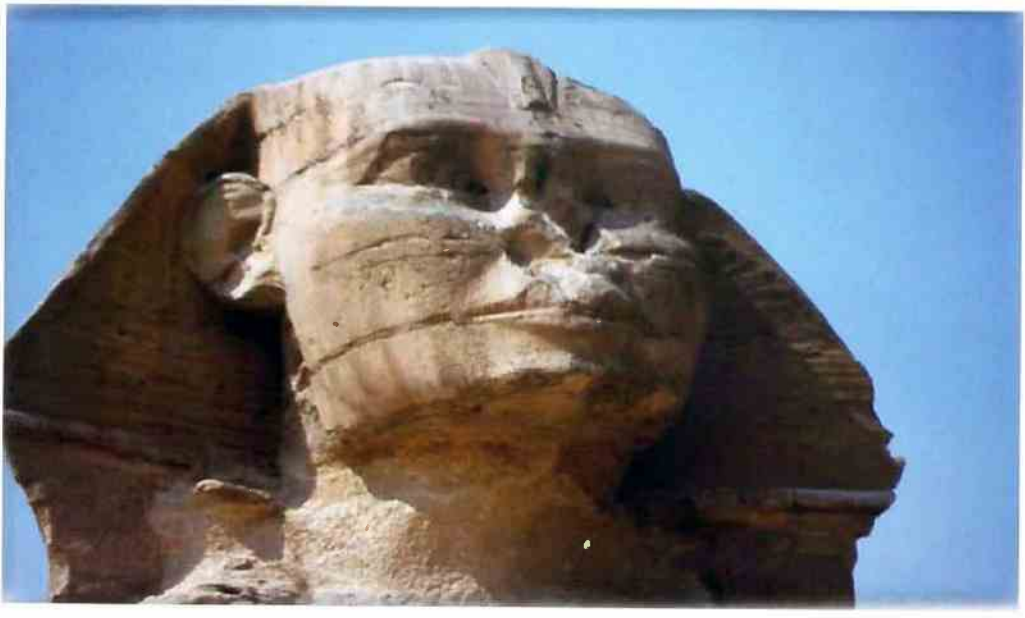

رأس أبى الهول ويظهر بوضوح مكان ثعبان الكوبرا على الجبهة، ويظهر الأنف والذقن المستعارة محطمة وغير موجودة

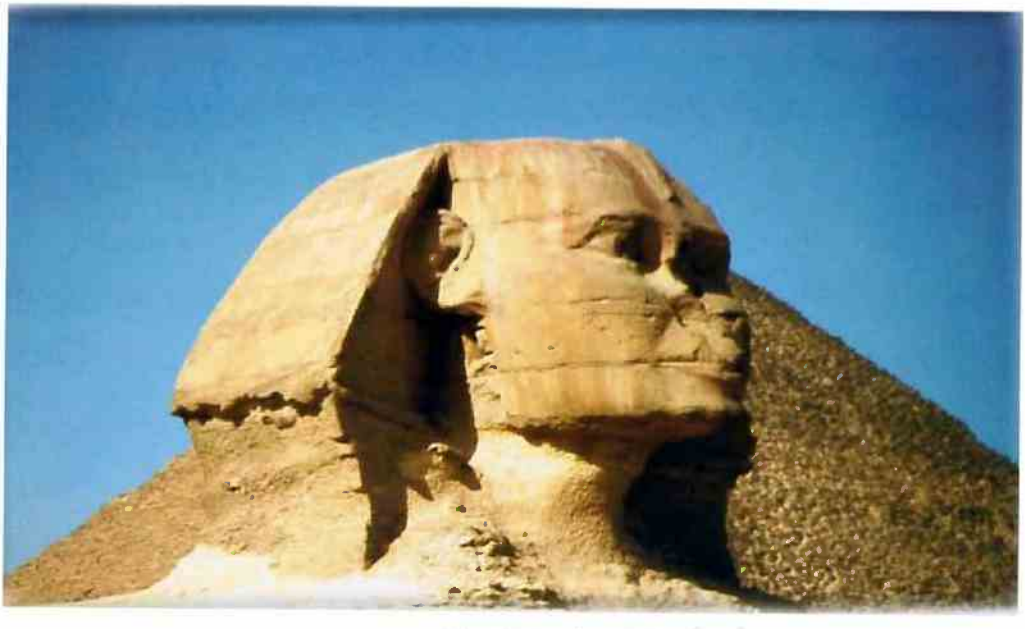

رأس أبى الهول ويظهر الجانب الجنوبى منه بوضوح

الدهر» بأنه المسئول عن تحطيم الأنف، وهى قصة من الخيال غير جديرة بالتصديق واتهم آخرون الفرنسيين بتدميرها، وقد وَجَدتُ أن معركة الأهرام (كما سماها الفرنسيون) وقعت فى منطقة إمبابة، وبالتالى فهى بعيدة جدًّا عن تمثال أبى الهول، ومن المستحيل أن يكون قد صوب الفرنسيون مدافعهم صوب الأنف وأصابوه من هذه المسافة البعيدة، بل إن هناك ملاحًا دانمركيًّا يدعى «فردريك نوردن» قد رسم لوحات لأبى الهول فى عام ١٧٣٧م وتم نشرها بعد وفاته عام ١٧٤٤م، وقد ظهر فى اللوحات أن أنف التمثال مدمر وغير موجود. ومن المعروف أن الحملة الفرنسية وصلت إلى مصر فى عام ١٧٩٨م، وهذا يعنى أن أنف أبى الهول كان مدمرًا قبل وصول الحملة الفرنسية بعدة سنين. ويبقى الشخص المسئول عن تدمير أنف أبى الهول مجهولًا فى نظر التاريخ.

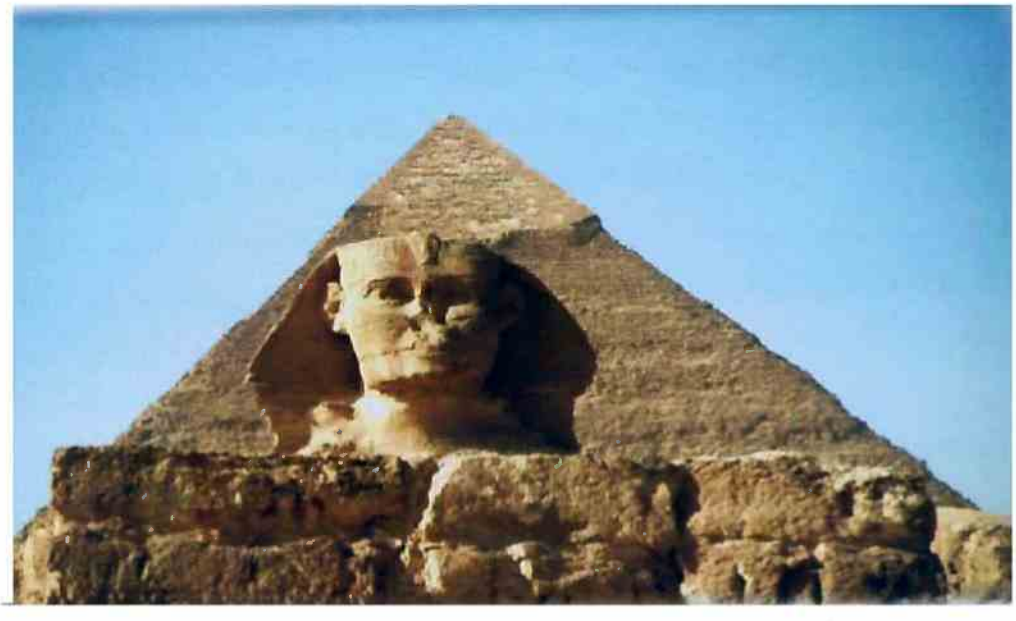

وجه أبى الهول يطل خلف معبد أبى الهول. ويظهر خلفه هرم خفرع - الجيزة

الجسد واليدان الأماميتان هما لأسد رابض، والأسد هنا بجانب تجسيده لقوة الشكيمة، فقد كان من أوائل المعبودات المصرية القديمة، وقد شبه ملوك مصر القديمة أنفسهم بالأسد فى قوته، وقد كان هناك رب أرضى وقديم جدًّا اسمه «آكر»، وكان يُنحت على جدران المعابد على شكل أسدين، ومن هنا جاءت فكرة الازدواجية والتماثلية الثنائية على أرض الواقع، فتجد دائمًا وأبدًا أسدين أو تمثالين لأبى الهول يحرسان الطرق المؤدية إلى المعابد المختلفة. وقد اتفق العلماء الأثريون على أن عمر الصخرة الجيولوجى التى نحت منها تمثال أبى الهول يصل إلى ٥٠ مليون عام

مضت، مما يثبت أنها صخرة حديثة وضعيفة، وهذا يشرح حالة الدمار الناتج عن عوامل التعرية، والرياح والمياه الجوفية، والتلوث بل والاهتزازات الأرضية، وقد تم ترميمه أكثر من مرة، وهو ما زال يرمم إلى الآن.

ورغم عدم اتفاق علماء المصريات على تحديد زمن وتاريخ لنحت أبى الهول، إلا أن العالم «شتادلمان» يرجعه إلى عصر «خوفو» وليس «خفرع»، وأعتقد أن هذه المبارزة التاريخية سوف تستمر طويلًا، حيث إنه لا يوجد أى نقوش هيروغليفية باقية على جسد أبى الهول ذى الابتسامة الغامضة.

٤- الملك منكاورع

هو ابن «خفرع» وحفيد «خوفو»، تولى العرش عام ٢٥٣٢ إلى عام ٢٥٠٣ ق.م، وكان معروفًا بولائه وإخلاصه لوالديه، حيث أكمل بناء مقابرهما. وهو صاحب الهرم الثالث بهضبة الجيزة ورغم أنه أصغر الأهرامات إلا أنه يعتبر من أغلى الأبنية على هضبة الجيزة، لكسوته بطبقة من الأحجار الجرانيتية الباهظة التكاليف، ولم يتبق منها غير ١٦ طبقة الآن.

وقد كان له ولزوجته المفضلة «خامير ير نبتى» الثانية تمثال بديع تم الكشف عنه فى هضبة الأهرام. ولـ«منكاورع» مجموعة تماثيل ثلاثية تعتبر من أفخم وأجمل التماثيل البديعة فى التاريخ المصرى، ويظهر فيها الملك مع عدد من الأرباب والربات، والشخصيات المقدسة فى أقاليم مصرية مختلفة. وهى الآن فى المتحف المصرى بالقاهرة.

وقد كانت هناك حادثة غريبة تستحق الذكر، وهى متعلقة بأحد التوابيت التى تم اكتشافها داخل هرم الملك «منكاورع»، فقد نقل الكولونيل «هاورد فايس» تابوتًا من البازلت الأسود البديع من غرفة الدفن إلى مركب تجارى اسمها «بيتريش ـ Beatrice» لأخذه إلى إنجلترا، وقد كان لهذا التابوت صفات جمالية وسمات نحتية غاية فى الدقة تظهر رمز بوابة وواجهة القصر الملكى المسمى بـ«السرخ»، وربما يكون هذا ما أغرى ذلك المغامر المتهور «فايس» بأن يقوم بهذه السرقة فى مغامرة غير محسوبة العواقب، وفى أثناء إبحار سفينة الشحن «بيتريش» إلى إنجلترا غرقت فى «لجهرون» وقبعت السفينة وبها التابوت فى قاع البحر، وهى ما زالت هناك حتى الآن. حادثة الغرق هذه كانت فى يوم ١٢ أكتوبر من عام ١٨٣٨ م. وقد أثارت تلك الحادثة الغريبة العديد من الأقاويل حول لعنة التابوت المسروق، وقد أثبتت الاكتشافات العديدة فى غرف ودهاليز هرم الملك «منكاورع» أنه قد تم دخوله عن طريق بعض الناس فى فترات لاحقة، مثل الفترة الصاوية ثم القبطية؛ وذلك لوجود آثار ترجع إلى تلك الفترات الزمنية ٦٦٤ - ٥٢٥ ق.م.

التمثال الثلاثى للملك منكاورع ـ المتحف المصرى

الأسرة الخامسة (٢٤٩٤ - ٢٣٤٥ ق.م)

١- الملك ساحورع

ثانى ملوك الأسرة، وقد حكم من ٢٤٤٤ إلى ٢٤٣٣ ق.م. وهو بانى الهرم الشهير فى منطقة أبى صير القريبة من سقارة بالجيزة. وقد اشتهر حكمه بالحملات السلمية إلى بلاد بونت بإفريقيا وإلى آسيا أيضًا مستخدمًا أساطيل بحرية مصنوعة من الخشب متبعًا ما فعله الملك «سنفرو» من قبله، وقد كون «ساحورع» جيشًا قويًا لمواجهة قبائل البدو الرحل والقبائل الليبية، وقد استمر فى نفس الاتجاه الدينى الذى بدأه الملك المؤسس للأسرة الخامسة «أوسر كاف»، ألا وهو الاتجاه لإعلاء شأن الرب الأسطورى «رع»، وقد تم إنشاء العديد من المجموعات الإنشائية الدينية المكرسة لـ«رع» مثل المسلات والأهرامات والمعابد. وقد وصل ارتفاع هرم الملك «ساحورع» بأبى صير إلى ارتفاع ٤٩ مترًا. ومن المبهر أن مسلة «ساحورع» قد وصلت إلى ٢٠مترًا ارتفاعًا. وقد ازدهر الطب فى عصره، وقد تم الكشف عن مقبرة الطبيب «نى ـ عنخ ـ سخمت» فى سقارة، وقد بجله الملك وقدره.

٢- الملك نو ـ سو ـ رع

تولى عرش مصر لمدة تقرب من الثلاثين عامًا، وقد تلا ملوكًا مؤثرين مثل «نفر إركارع» و«شبسس كارع»، و«نفر ـ ف ـ رع». وكعادة ملوك مصر القديمة ترك لنا مناظر كثيرة تظهره كمحارب مقدام ومنتصر فى كل الحالات مثل تلك النقوش التى تم الكشف عنها فى وادى مغارة، حيث يظهر وهو يهزم الجيوش الآسيوية، وغيرها بمعابده بأبى صير، حيث يظهر منتصرًا على السوريين والليبيين. وقد ازدهرت الفنون والعمارة فى عصره، وقد خدم هذا الازدهار الإنشاءات الدينية، وقد ظهر هذا جليًا فى مصطبة الكاهن الشهير «تى» بسقارة، ولكن يبقى المنظر المنقوش على جدار معبد هرمه بأبى صير هو أهم النقوش؛ لأنه يبين ولأول مرة احتفالية «حب ـ سد» الملكية لأول مرة فى تاريخ مصر الفرعونية على جدار. وكلمة «حب» معناها احتفالية أو عيد ، و«سد» تعنى اليوبيل أو ذلك الاحتفال الذى يقام للملك عند وصول سنين حكمه لثلاثين عامًا، أو عند وصوله هو إلى ٣٠ عامًا

هرم أبى صير بالجيزة

من العمر. ويتضمن الاحتفال ممارسة الملك لرياضة الجرى والصيد كرمز لتجديد شبابه وعنفوانه مثبتًا أنه على قدر هائل من القوة والسيطرة على مقاليد الأمور، وبالتالى فهو سوف يستمر فى الحكم كملك لمصر العليا والسفلى، وقد استمرت هذه الاحتفالية على مدار مئات السنين.

٣- الملك ونيس

الملك «ونيس» هو آخر ملوك الأسرة الخامسة، و«ونيس» هو اسمه الهيروغليفى الأصلى، ثم تحول إلى «أوناس» فيما بعد. وقد حكم مصر العليا والسفلى من عام ٢٣٧٥ إلى عام ٢٣٤٥ ق.م. وقد شيد هذا الملك هرمًا بجانب هرم «جسر» أو «زوسر» المدرج بسقارة، وتم نقش نصوص هيروغليفية غاية فى الجمال والأهمية على حوائط دهاليز وغرف دفن الهرم. وقد عُرفت تلك النصوص باسم «متون الأهرام» أو «نصوص الأهرام» وهى عبارة عن حوالى ٨٠٠ تعويذة كلامية أو مقولات سحرية كانت لها علاقة بالديانة والأعمال الطقسية للمتوفى، ولها علاقة أيضًا بالبعث والحياة الأخرى الأبدية، وكان لهذه النصوص الأثر الأكبر فى نصوص أخرى جاءت فيما بعد، وهى نصوص التوابيت والنصوص المسماة بكتاب الموتى .. وقد كانت لترجمة متون الأهرام الأثر الكبير فى فهم أعمق لعقيدة المصرى القديم، وقد نقشت على شكل عبارات هيروغليفية داخل تسعة أهرامات: أولها كان هرم «ونيس»، واستمرت حتى عصر الانتقال الأول (٢١٨١ - ٢٠٥٥ ق.م). ونعرض هنا مثالًا لتلك المقولات والتعاويذ فمثلًا المقولة رقم ٣٣٣ تقول: «لقد طهرت نفسى على تل الأرض حيث طهر «رع» نفسه، لقد وضعت الدرج، لقد شيدت السلم، وهؤلاء الذين يقطنون الغرب يجذبون يدى». وكلمات الدرج والسلم هنا يقصد بها الأدوات التى سوف يستخدمها صاحب المتن للصعود إلى السماء، أما الذين يقطنون الغرب فهم الأموات؛ لأن الشمس تغرب فرمز لها المصرى القديم بأن رحلتها تنتهى عند الغروب لتبدأ رحلة ما بعد الغروب ـ الموت ـ لتصل إلى البعث من جديد عند الشروق. وهكذا سيكون الحال مع الإنسان، سوف يترك هذه الحياة الدنيا ليذهب فى رحلة إلى الحياة الأبدية، والتى تبدأ عند شروقه فى الحياة الثانية مثل الشمس تمامًا. وهذا يشرح لنا لماذا حفر وبنى المصرى القديم مقابره مثل مقابر وادى الملوك، ووادى النبلاء، بل والأهرامات نفسها فى البر الغربى لنهر النيل.

❁ ❁ ❁

الأسرة السادسة (٢٣٤٥ - ٢١٨١ ق.م)

١- الملك تتى

ويطلق عليه فى العربية «تيتى»، وهو مؤسس الأسرة السادسة. وقد حكم فى الفترة ما بين ٢٣٤٥ حتى عام ٢٣٢٣ ق.م. وله هرم فى سقارة مكون فى نواته من خمس درجات. أما سقف صالة الدخول وغرفة الدفن فلها شكل جمالونى بديع، وقد نُقش على الجدران الداخلية لهرم «تيتى» الكثير من «متون الأهرام»، وللأسف تم سرقة محتويات الهرم من صندوق الأوانى الكانوبية (التى تحتوى على بعض أعضاء الجسد المحنط الداخلية، وكان يتم حفظ تلك الأعضاء فى داخل الأوانى لإيمان المصرى القديم أنه سوف يستخدمها مرة أخرى فى الحياة الثانية)، وتم نهب الأثاث الجنائزى، أما تابوت الملك، فقد كان منحوتًا من حجر البازلت.

ولم يكن للملك «تيتى» أصل أو دم ملكى فى عائلته، فأبوه هو «شبسى بوبتاح»، وأمه كانت «سششت»، وقد تزوج هو من ابنة الملك «ونيس» المسماة «إيبوت» لكى يتمكن من الوصول إلى العرش، وقد زوج ابنته الكبرى من الوزير «ميريروكا» وكبير كهنة معبده الجنائزى، ولهذا الوزير مقبرة على شكل مصطبة على مستوى عالٍ جدًّا من الفن والعمارة، وهى ما زالت محتفظة بمناظر الحياة اليومية والنشاطات المهنية والحرفية مثل الصيد والرعى، وصُنع الذهب، وجمع الضرائب، ونقل المحاصيل، بل واللعَب التى كانت يلعبها ويلهو بها الأطفال مثل شد الحبل وغيرها من المناظر المثيرة. وتقع هذه المقبرة أمام هرم «تيتى» فى سقارة.

وكان الملك «تيتى» هو أول ملك يستعمل لقب «من يصلح بين القطرين»، وهذا اللقب يعطى الانطباع بأن مصر فى تلك الفترة كانت تعانى من بعض الاضطرابات السياسية بين الشمال والجنوب. وقد نجح «تيتى» فى الإصلاح وإعادة السلام بين القطرين، ومن هنا جاء اللقب الحورى «من يصلح بين القطرين»، وهو باهيروغليفية ينطق «سحيتب ـ تاوى»، وقد كانت نهاية حياة الملك «تيتى» نهاية أليمة حيث لقى مصرعه مقتولاً على أيدى حراسه الشخصيين، كما ذكر لنا المؤرخ «مانيتون السمنودى».

٢- الملك بيبى الثانى

وهو خامس ملوك الأسرة واسمه الأصلى «ببى». وقد اعتلى العرش بعد الملوك «أوسر كارع» و«ببى الأول» و«ميرن رع». وهو الملك قبل الأخير لهذه الأسرة المؤثرة فى تاريخ مصر؛ لأن «مانيتون» المؤرخ اعتبرها آخر أسرة فى الدولة القديمة.

ويطلق على هذا الملك الآن «بيبى الثانى» وقد حكم من عام ٢٢٧٨ إلى ٢١٨٤ ق.م أى ٩٤ عامًا، وهى أطول مدة حكم فى تاريخ مصر كله. وقد اعتلى العرش وهو فى السادسة من عمره، وتوفى فى عامه المائة. ورغم استمرار البعثات بالرحلات التجارية إلى الجنوب وسيناء مما يدل على الانتعاش الاقتصادى للبلاد إلا أننا نستشعر بعض الوهن الداخلى؛ وذلك عندما قرأنا ألقاب حكام الأقاليم مثل لقب «ملك مصر العليا». مما يدل على تحكم وقوة هؤلاء الحكام متعادلين بذلك مع سلطة الملك نفسه، ومن هنا يتضح سبب إعطاء الملك «بيبى الثانى» الكثير من المزايا والإعفاءات الضريبية لهؤلاء المحافظين، والعُمَد، والنبلاء، الذين استأثروا بالحكم لأنفسهم فى مدنهم، ولكى يكسب الملك ودهم زودهم بالمزيد من الهبات والصلاحيات حتى يضمن ولاءهم له. وشيد الملك «بيبى الثانى» مجموعة هرمية بسقارة متضمنة هرمه والطريق المؤدى بين معبد الوادى والمعبد الجنائزى للملك، وبجانب تلك المجموعة المعمارية للملك تم الكشف عن ثلاث مجموعات هرمية، ولكنها أصغر فى الحجم بعض الشىء، وهى لزوجات الملك «نيت»، و«إيبوت الثانية»، و«وجبتين»، ولكن أكثر الآثار المكتشفة إثارة كانت لعالم الآثار «جيكيه»، وهى حفرة بها ستة عشر مركبًا خشبيًّا. وهذه النماذج كانت تعتبر مرتبطة بالطقوس والتراتيل الجنائزية، وقد عُثر على هذه الحفرة بجانب هرم الملكة «نيت».

وتبقى مجموعات الملك «بيبى الثانى» المعمارية الأهم؛ لأنها آخر منشآت جنائزية وهرمية بنيت على حسب التقاليد التى اتبعتها الهندسة الملكية فى أسرات الدولة القديمة (من الأسرة الثالثة حتى الأسرة السادسة). وقد اعتمد عليها بناة الأهرامات بعد ذلك، وخصوصًا فى زمن الدولة الوسطى.

❁ ❁ ❁

تمثال الملك ببى بمتحف بروكلين ـ نيويورك

عصر الانتقال الأول (الفترة الوسيطة)
(٢١٨١ - ٢٠٥٥ ق.م)

أرخ المهتمون بالتاريخ المصرى تلك الفترة من الأسرة السابعة وحتى أواخر الأسرة العاشرة وبداية الأسرة الحادية عشرة من عام ٢١٨١ إلى ٢٠٥٥ ق.م. وهى بالضبط بعد نهاية حكم الملكة «نيت إيقرتى» آخر حكام الأسرة السادسة وحتى بداية الملك «أمونحوتب الثانى» فى الأسرة الحادية عشرة.

ومن دراسة عمارة الملوك تلك الفترة نجد أن من المؤكد أن مصر أصابها فى تلك الفترة الوهن والضعف وتغير الحكام المطرد والسريع لدرجة أن أحد المؤرخين يقول: إن مصر قد حكمها ٢٥ ملكًا خلال ٣٠ عامًا.

ولكن تمكن هؤلاء الملوك من الاحتفاظ بالألقاب الملكية رغم عدم أحقيتهم فى بعض الحالات بهذا الشرف.

انعدمت السلطة الملكية والعسكرية، وتدهور الأمن بشكل سيئ. وجاء حُكام من «هيراكليوبوليس الكبرى» (إهناسيا) مثل «خيتى» ٢١٦٠ ق.م، وقد تناحر هؤلاء مع حكام طيبة مثل «إينتف» فى زمن الأسرة الحادية عشرة. وقد ترك لنا حكام الأقاليم والمدن المختلفة العديد من النصوص والوثائق التى تشرح ولاءهم ولأى جهة كان وفاؤهم وتعضيدهم لأحد الجانبين، وبقى الحال على ما هو عليه من الاضطراب وعدم الاستقرار حتى جاء الملك البطل «مونتوحتب الثانى» من الجنوب واستطاع أن يفرض سيطرته على منطقة نفوذ حكام «هيراكليوبوليس» وساد النظام والسلام مرة أخرى على الأراضى المصرية، وأصبح «مونتوحتب الثانى» فى نظر العديد من المؤرخين هو المؤسس الحقيقى للدولة الوسطى، والتى بدأت مع بزوغ شمس الأسرة الحادية عشرة.

الدولة الوسطى

الأسرة الحادية عشرة (٢٠٥٥ - ١٩٨٥ ق.م)

١- الملك مونتوحتب الثانى

اسمه «نب ـ حبت ـ رع» مونتوحتب الثانى، وهو مؤسس الأسرة الحادية عشرة ومعبد الوحدة بين القطرين القبلى والبحرى، مكررًا ما صنعه «نارمر»، أو «مينا» من قبل. وقد وصل الفن والمعمار فى زمنه إلى أوج نشاطه، فقد شيد معبدًا بغرب الأقصر (وبقاياه الآن ملاصقة لمعبد الدير البحرى للملكة «حتشبسوت»). وقد أضاف إليه هرمًا مدببًا رامزًا إلى الحجر الذى كون التل الأزلى حسب العقيدة الدينية، والذى أشرقت فى أعلاه الشمس، وأرسلت أشعتها بالحياة فى البداية، ولكن للأسف دُمر هذا الهرم ونسبة كبيرة من المعبد فلم يتبق منه الكثير، وربما تكون الملكة «حتشبسوت»، ومهندسوها قد نقلوا من معبد «مونتوحتب الثانى» بعض الأفكار الهندسية والجمالية عند تشييدهم لمعبدها.

ولقد اهتم الملك أيضًا بإرسال البعثات التجارية إلى بلاد كثيرة مثل سوريا، ولبنان، وبونت فى إفريقيا، بل وبعث بالمرممين والفنانين إلى معابد مصرية عدة لكى يقوموا بترميمها مما يدل على أن تلك المعابد قد تركت ليد الإهمال والتجاهل فى الفترة الوسيطة الأولى قبيل قدومه إلى عرش مصر الموحدة. ولقد ترك لنا هذا الملك تمثالًا بديعًا له، وهو الآن فى المتحف المصرى بالقاهرة.

تمثال مونتوحتب الثانى

يرجع هذا التمثال إلى فترة حكم الملك، والتى استمرت من عام ٢٠٦٥ إلى عام ٢٠١٤ ق.م، وهو منحوت من قطعة واحدة من الحجر الرملى، ويمثل الملك وهو جالس على عرش مصر مرتديًا التاج الأحمر، وهو التاج الملكى المخصص لمصر السفلى (أما التاج الأبيض فهو المخصص لمصر العليا).

تمثال مونتوحتب الثانى وهو يرتدى التاج الأحمر متقمصًا الشكل الأوزيرى، وتظهر رجلاه وقدماه منتفختين ـ المتحف المصرى

التمثال كان بالحجم الطبيعى، ويظهر الملك وهو يرتدى رداء لونه أبيض، وربما كان فى الأصل مصنوعًا من الكتان الخفيف، وتظهر الذقن المستعارة رمز الملكية والقدسية الذاتية. الجسد لونه أسود (ربما يكون هذا اللون ذا دلالة مهمة تثبت أصل الملك الجنوبى)، ومن الملفت للنظر أن

الرجلين والقدمين قد نحتا بشكل يظهر انتفاخًا كبيرًا مما يشير إلى فرضية أن «مونتو حتب الثانى» كان مصابًا بداء الفيل، وهو مرض كان منتشرًا فى إفريقيا آن ذاك. أما عن احتمال أن يكون هذا الحجم الكبير للرجلين والقدمين هو نتيجة خطأ فى مقاسات النحات، أو ضعف مستوى الفنان الذى نقر ونحت هذا التمثال، فهذه نظرية ضعيفة فى وجهة نظرنا؛ لأن من المنطقى أن النحات كان سوف يزيل الزوائد لو رأى الملك أو كهنته أنها تُظهر الملك بهذا الشكل غير الطبيعى، وكان هذا بالشىء اليسير على النحات، ولكن ترك التمثال هكذا ودفنه على هذه الشاكلة بعد تلوينه يؤكد أن الملك كان بالفعل شكله هكذا، وكان يريد تمثاله هكذا.

تم اكتشاف هذا التمثال الفريد فى عام ١٩٠٠ على يد «هاورد كارتر» الإنجليزى (وهو الذى زاعت شهرته عندما دخل مقبرة توت عنخ آمون فى عام ١٩٢٢ بوادى الملوك ووجدها كاملة)، وقد تم العثور على هذا التمثال بقاع بئر تقع فى القسم الشمالى الشرقى من فناء المعبد الجنائزى للملك فى الدير البحرى، وقد تلاه فى حكم مصر الملك «منتوحتب الثالث سعنخ كارع»، ثم «منتوحتب الرابع بنتاوى رع».

❁ ❁ ❁

الأسرة الثانية عشرة (١٩٨٥ - ١٧٩٥ ق.م)

١- الملك أمنمحات الأول

هو أول ملوك الأسرة ومؤسسها الحقيقى رغم عدم وجود دم ملكى أو صلة رسمية للملك السابق. ولكنه استطاع الوصول إلى عرش مصر بذكاء فى عام ١٩٩١ ق.م، ومكث على العرش حتى عام ١٩٦٢ ق.م عندما تم اغتياله نتيجة مؤامرة حيكت ضده فى جنبات القصر الملكى، وقد هبت رياح تلك المؤامرة من جهة القسم الذى كانت تقطنه الحريم، وقد كان «أمنمحات الأول» وزيرًا فى أيام حكم آخر ملوك الأسرة الحادية عشرة «مونتوحتب الرابع». وقد نجح فى جلب الكثير من الاستقرار والقوة فى فترة عصيبة فى تاريخ الأسرات.

كانت الاضطرابات قد استمرت فى البلاد وانتشرت المشاكل فى الأقاليم والمدن المختلفة.

وعندما جاء «أمنمحات الأول» نقل العاصمة إلى «إثت ـ تاوى» (اللشت الآن) وشيد الأسوار والحصون على حدود مصر لحمايتها من غزوات الجنوب والشرق والغرب.

أكد لنا اسمه أن عبارة آمون (الرب الشمسى الأسطورى) قد كانت هى الأهم فى معابده، فـ «إمن» معناها آمون وحرف «الميم» الذى يتلوها معناه «فى»، أما «حات» فهى كلمة هيروغليفية معناها المقدمة. إذن، اسم الملك يترجم هكذا: «آمون فى المقدمة».

٢- سنوسرت الأول

وهو معروف أيضًا باسم «سيزوستريس». اعتلى هذا الملك العرش فى ظروف صعبة وحساسة، فقد تم اغتيال والده الملك «أمنمحات الأول»، ولكنه أحكم قبضته على مقاليد الأمور، ثم أَمَّن البلاد وحدودها بالبعث بالفرق العسكرية إلى الواحات الغربية والدلتا والنوبة، ولكن حسه الفنى وشغفه بالتشييد والمعمار بدا واضحًا حتى قبل اعتلائه العرش إبان مشاركته الحكم مع والده. فقد أضاف الكثير من البنايات لمعبد الكرنك، وعمل على تجديد وترميم معابد كثيرة .وشيد هرمه فى منطقة الليشت (على بعد كيلو ونصف متر من هرم والده)، وأطلق عليه اسم «سنوسرت يشرف على الأرضين»، والمقصود هنا بالأرضين مصر العليا والدنيا. وقد تميزت المجموعة الهرمية لهذا الملك بوجود معبد الوادى، وأهرامات للملكات وأميرات، ومعبد جنائزى، وأسوار، وجدران قديمة ترجع إلى عصر الملك «سنوسرت الأول» والذى امتدت مدة حكمه من عام ١٩٦٥ إلى ١٦٢٠ ق.م وقد أبدى نشاطًا ملحوظًا أيضًا فى تجديد معابد منطقة هليوبوليس.

ولكن من الضرورى هنا أن ننوه على أهم وأجمل ما تم اكتشافه لهذه الحقبة، ألا وهى مجموعة تماثيل للملك التى تم الكشف عنها فى عام ١٨٨٤م عن طريق العالم «جوتير» أسفل فناء الهرم، بلغ عددها عشرة تماثيل منحوتة من الحجر الجيرى، تمثل «سنوسرت الأول»، وهو جالس بالحجم الطبيعى، وعلى جانبى المقعد الذى يجلس عليه تمثال الملك، نُحتت مناظر غاية فى الدقة منها منظر توحيد القطرين الشمالى والجنوبى عن طريق الربين «حورس» وعمه «ست» وغرابة الأمر هنا أنهما كانا غريمين لدودين طبقًا للأسطورة التى تقول بأن «ست» قد قتل والد «حورس» الرب «أوزوريس». وهو منظر نادر مهم. هذه التماثيل موجودة الآن فى المتحف المصرى.

٣- الملك أمنمحات الثانى

وهو ثانى ملك فى هذه الأسرة يحمل هذا الاسم الذى حمله أربعة ملوك أثروا إيجابًا فى تاريخ

الدولة الوسطى. حكم مصر فى الفترة مابين عامى ١٩٢٢ إلى ١٨٧٨ ق.م، وقد شارك والده الحكم لمدة عامين، ولكن من أهم ما يميز حكم ذلك الملك المحب للسلام أنه مد يد التعارف والتعاون إلى الممالك القريبة وازدهرت فى أيامه التجارة والاقتصاد مع سوريا وفلسطين حتى إنه تم اكتشاف تماثيل كثيرة لبناته والمسئولين فى بلاطه هناك، مما يدل على حالة الوفاق التى كانت سائدة فى عصره. وقد أمر الملك «أمنمحات الثانى» بتشييد هرمه ليكون مقبرته بمنطقة دهشور بالجيزة، والذى تم بناؤه من الطوب اللبن، وبجانب الهرم تم الكشف عن مقابر أفراد أسرته المليئة بالأثاث الجنائزى، وبقايا توابيت خشبية، وأوانٍ من حجر الألباستر، ومجموعة نادرة من المجوهرات المعروضة الآن بالمتحف المصرى.

٤- الملك سنوسرت الثانى

رغم قصر مدة حكم هذا الملك والتى امتدت قرابة الست سنوات (١٨٨٠ - ١٨٧٤ ق.م) إلا أنها تميزت بالإنجازات الكبيرة، فقد اهتم بوضع خطط لنظام رى متقدم فى منطقة الفيوم لتحويل مساحات شاسعة إلى أراض زراعية مفيدة، ومد أواصر الصداقة إلى الممالك المجاورة مما ساعد على ازدهار العلاقات التجاريةً والاجتماعية، وقد بدا هذا جليًا عند قدوم مجموعة من البدو المرتدين الملابس المزركشة والملونة إلى مصر؛ لتقديم عدد من الأوانى المملوءة بمواد التزيين والتجميل، هذا المنظر الملون موجود بمقبرة «خنوم حتب» ببنى حسن بمحافظة المنيا، وقد شيد هذا الملك مجموعته الهرمية بمنطقة اللاهون، ومن الغرابة أن مدخل الهرم كان متجهًا قليلاً إلى ناحية الجنوب وليس الشمال كما هو معتاد دينيًا.

وهذا يثبت أن جزءًا مهمًا من العقيدة السماوية للمصرى القديم قد تغيرت أو عُدلت فى أيام هذا الملك، أو ربما كانت هذه هى رؤيته الخاصة وعقيدته التى تفرد بها. على أى حال كان قرار تغيير اتجاه مدخل الهرم من الناحية الشمالية (ناحية نجم الشعرى اليمانية الشمالية والتى اتخذها المصرى القديم كرمز دينى مهم) إلى الناحية الجنوبية، قرارًا غير تقليدى.

٥- الملك سنوسرت الثالث

اعتلى هذا الملك الذى أثر تأثيرًا عظيمًا فى مسيرة الحضارة المصرية القديمة عرش مصر عام ١٧٨٨ ق. م. وقد استمر حكمه للبلاد شمالاً وجنوبًا متضمنًا جزءًا كبيرًا من بلاد النوبة مدة تصل إلى حوالى ٣٥ عامًا.

يعتبر «سنوسرت الثالث» علامة فاصلة و مضيئة فى عصر الأسرات، وتم إضافة العديد من الألقاب الجديدة للوظائف الإدارية فى بلاطه الملكى، الشىء الذى أعطى الانطباع أنه قد وضع نظامًا جديدًا لإدارة البلاد.

تم أيضًا بناء أكثر من قلعة حربية لحماية مصر، كعادة ملوك الدولة الوسطى، برع «سنوسرت الثالث» فى شق القنوات، والمصارف المائية؛ لأغراض الملاحة وتيسير إبحار السفن المصرية عبر الشلالات النوبية (كان هناك ستة شلالات تعوق الملاحة، أولها فى أسوان الحالية، وآخرها يقع شمال الخرطوم الحالية. يعتبرالشلال عائقًا ومانعًا طبيعيًّا مكونًا من الصخورالصلدة يمنع مرور السفن التجارية منها والحربية)، ولكن نجاح هذا الملك فى شق قناة عبر الشلال الأول ساعد الجيش المصرى فى ضم الجزء الأسفل من أراضى النوبة الخلابة، وقد كان محبوبًا ومبجلًا، بل لا نبالغ إذا قلنا إنه قد تم تقديسه لسنوات عديدة بعد موته، ومن الناحية المعمارية فقد ترك لنا هرمه ومجموعته الملاصقة له فى منطقة دهشور بالجيزة مثالاً على ازدهار الفكر المعمارى والهندسى إبان فترة حكمه.

أما عن تماثيله المنحوتة فقد تميزت بالواقعية الشديدة، حيث أظهره النحات المصرى بوجه له قسمات طبيعية، تظهر به التجاعيد الخفيفة التى تؤكد عمره عندما نحت له التمثال، ظهرت وبوضوح الانتفاخات الموجودة تحت العيون والأذن الكبيرة بعض الشىء.

وقد كان «سنوسرت الثالث» من الملوك الذين كانوا يستقبلهم الشعب المصرى فى مدنه المختلفة بالحفاوة البالغة، والفرحة الشديدة المصاحبة بالأغانى والأناشيد، وقد تم الكشف عن بردية بمنطقة اللاهون بالفيوم مكتوب عليها ستة أناشيد مكرسة للملك، ومن الممكن أن نستنبط من أبيات هذه الأشعار والأهازيج حب كاتبها ومغنيها للملك وتقديره للنشاط السياسى والعسكرى والدينى الذى يقوم به الملك. تقول بعض أبيات الأناشيد: «لكم تبتهج الأرباب فقد أمددتها بالقرابين ... لكم يبتهج (شعبك) فقد رسمت حدوده، لكم يبتهج المصريون لقوتك فقد حميت ما كان موجودًا فيما مضى، لكم يبتهج الناس لأنهم تحت إمارتك، فقد سيطرت قوتك على الدهماء .... لكم تبتهج الأرضان (يقصد هنا مصر العليا والدنيا) ببأسك، فقد حميت أسوارهما .... إنه الرجل الشاب الأوحد والربانى الذى يحارب دفاعًا عن حدوده، الذى لا يسمح لشعبه بأن يصيبه الإنهاك، والذى يعمل (يقصد هنا الملك) على أن ينام الناس حتى مطلع النهار، وفى إمكان مجنديه أن يناموا، فقلبه يؤَمِّن الحماية لهم. لقد حددت مراسيمه حدود بلاده، ولمت كلماته شمل الضفتين».

وهكذا نستطيع أن نضع هذا الملك الشجاع فى مصاف الملوك المصريين ذوى التأثير الإيجابى الشديد على مسيرة الحضارة المصرية القديمة إبان عصر الأسرات.

٦- الملك أمنمحات الثالث

اسم هذا الملك مقسم إلى ثلاثة أجزاء ذات ثلاثة معانٍ مكملة شارحة الوضع الدينى فى البلاد فى وقته، و«إمن» تعنى الرب الشمسى «آمون»، و«م» تعنى «فى»، وكلمة «حات» بالهيروغليفية تعنى «المقدمة»، وهذا ما يؤكد ازدهار ديانة الرب «آمون» إبان فترة حكمه وقوة كهنة معابد «آمون» فاسمه مجملًا يعنى «آمون فى المقدمة».

الملك أمنمحات الثالث بملامحه النوبية الجميلة

وهو سادس ملوك الأسرة الثانية عشرة، ويعتبر «أمنمحات الثالث» آخر الملوك المؤثرين الأقوياء فى هذه الأسرة، وقد حكم من عام ١٨٤٣ ق.م. حتى ١٧٩٦ ق.م، وهى مثل أغلب الملوك الأقوياء لهذه الأسرة تعتبر مدة طويلة تصل لحوالى ٤٧ عامًا، قضى فى أولها بعض الوقت كمشارك فى حكم البلاد مع والده الملك «سنوسرت الثالث».

بلغت الأمور الاقتصادية والأحوال المعيشية فى زمن هذا الملك إلى أوجها. فقد ازدهرت التجارة الخارجية مع النوبة فى الجنوب ومع لبنان. وأحسن الملك وعمال محاجره استغلال محاجر الفيروز بسيناء، وتم تقطيع الأحجار الجيرية من طرة، والجرانيت من أسوان، والأحجار الصلدة من محاجر وادى الحمامات، وقد شيد لنفسه هرمين، بدأ فى بناء أولهما بمنطقة دهشور، وكان هذا فى العام الأول من اعتلائه العرش، ويطلق عليه «الهرم الأسود»؛ لأنه مبنى من الطوب اللبن المجفف، ورغم تحطم بعض الأجزاء من جسد هذا الهرم الغريب إلا أن قطعة من أهم أجزائه نجت وبقيت فى حالة ممتازة حتى يومنا هذا، ألا وهى الـ «بن بن» (الهريم الذى يعتلى الهرم).

هريم الـ «بن بن»

هو ذلك الحجر الهرمى الشكل الذى يعتلى الهرم والمسلة، وهو أهم حجر فى الهرم، حيث يرمز إلى اكتمال البناء من الناحية العملية والدينية. «بن بن» ـ من وجهة النظر المصرية القديمة ـ هو رمز التل الأزلى المقدس عند الكاهن المصرى، وهو أيضًا جزء من إفرازات الرب الشمسى الأسطورى «رع ـ أتوم».

والـ «بن بن» كان له علاقة بالخلق، ويعتقد أن أول «بن بن» من الحجر كان مشيدًا فى معبد فى هليوبوليس، وترجع مراسيم عبادته كأول نقطة سقطت عليها أول أشعة للشمس المشرقة الجالبة للحياة والاستمرارية للأسرة الأولى ـ حوالى ٣٢٠٠ ق.م.

وقد كسا الفنان المصرى الجهات الأربعة للـ «بن بن» برقائق الإلكتروم وهو معدن مكون من خليط من معدنى الذهب والفضة غالى الثمن وقليل الاستخدام. ومن الممكن أن نتخيل المنظر البديع لأشعة الشمس المنعكسة من الـ «بن بن» بأعلى الهرم أو المسلة.

وقد وُجد بن بن الملك «أمنمحات الثالث» بجانب هرمه بدهشور فى حالة ممتازة عام ١٩٠٠م، وهو الآن بالمتحف المصرى الكائن بميدان التحرير بالقاهرة، وهو منحوت من حجر الجرانيت الأسود المائل للرمادى الغامق، يبلغ ارتفاعه ١,٣ متر. ويتميز «بن بن» هذا الملك بالرسومات

والعبارات الهيروغليفية المنحوتة على جوانبه الأربعة. فقد تم نحت الخراطيش الملكية وبداخلها الأسماء وخارجها الألقاب المقدسة، مثل «نيسو بيتى»، وهو اللقب الذى ينسب للملك لإثبات أحقيته فى حكم البلاد بوجهيها البحرى والقبلى، ثم هناك لقب «سا ـ رع» ومعناه «ابن رع»، وهناك أيضًا عبارات تتمنى الحياة الأبدية للملك، وقد نحت أيضًا منظر لقرص الشمس المجنح، وعينى الرؤيا ورموز الجمال البديع.

ويعتبر هذا الـ «بن بن» تحفة فريدة تزين الدور الأرضى بالمتحف.

وقد واجه عمال الملك «أمنمحات الثالث» بعض المشاكل المعمارية واهندسية أثناء بناء هرمه بدهشور، فقرروا التوقف فى بنائه فى العام الخامس عشر من اعتلاء الملك للعرش، وتم التوجه إلى «هوارة» حيث شرعوا فى بناء هرم الملك الثانى، والذى تم الكشف بجانبه عن بقايا من معبد هائل ليس له مثيل لدرجة أن الكثير من الذين زاروه فى العصور اليونانية وما بعدها أطلقوا عليه لقب «اللابيرينث» أى «قصر المتاهة»، أو «قصر التيه»؛ وذلك لكبره وضخامة مبانيه؛ ولكثرة عدد غرفه ودهاليزه. للأسف لم يدم هذا المعبد اهائل إلى يومنا هذا، ولكن تاريخه الغامض ما زال يداعب خيال العلماء حتى إن «سترابون» المؤرخ الشهير اعتقد أن عدد الصالات التى كانت موجودة فى «اللابيرينث» وصل إلى ٤٢ صالة بعدد أقاليم مصر القديمة. على أى حال كان قصر التيه ـ إذا جاز التعبير ـ ذا مساحة شاسعة، ويعتقد البعض أنها وصلت إلى ٢٨ ألف متر مربع، ويبقى هذا المبنى يكتنفه الغموض ينضم إلى قائمة الأسرار المصرية القديمة، وما أكثرها.

وينتهى عصر «أمنمحات الثالث» القوى؛ ليكون بذلك آخر ملوك تلك الأسرة المؤثرين المبهرين ويبدأ نجم هذه الأسرة فى الأفول، ومثل والده شارك «أمنمحات الرابع» فى حكم البلاد قبل سنين قليلة من وفاة والده.

٧- أمنمحات الرابع

حكم لمدة قصيرة نسبيًا إذا قورنت بالملوك السابقين، فقد استمر حكمه لمدة اثنى عشر عامًا، تم خلالها بناء عدد من المعابد بمنطقة الفيوم، المنطقة المفضلة لهذه الأسرة.

ويعتقد بعض الأثريين أن هرم هذا الملك هو الهرم الجنوبى فى منطقة «مزغونة» الآن ، ولكن البعض الآخر يعتقد أنه لزوجته الملكة «سوبك ـ نفرو».

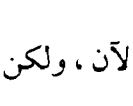

٨- الملكة سوبك ـ نفرو

تعتبر هذه الملكة هى آخر حكام الأسرة الثانية عشرة والدولة الوسطى، وقد اعتلت العرش فى وقت شديد الحساسية والأهمية فى تاريخ مصر القديمة، وقد اتفق كل العلماء الأثريين على أنها أول ملكة حاكمة فى التاريخ المصرى، رغم أن القليل يعتقد أن «نيت إيقرتى»، و«خنت كاوس» قد حكمتا أو على الأقل شاركتا فى الحكم. حكمت «سوبك ـ نفرو» لمدة ثلاث سنوات، وقد أكملت بناء المعابد و«اللابيرنيث». اسمها يعنى «جمال سوبك» وسوبك هذا كان الرب بمنطقة الفيوم، وبموتها أسدل الستار على الدولة الوسطى بتاريخها العريق.

النصوص الأدبية فى الدولة الوسطى

تعتبر النصوص الأدبية والدينية التى خطها أدباء وحكماء وشعراء وقصاصو وكهنة الدولة الوسطى من أهم ما تركه لنا المصرى القديم من النصوص الدينية المهمة. قدمت لنا الدولة الوسطى «متون التوابيت» وهى مجموعة من المقولات التى اعتمدت على «متون الأهرام» التى نحتها المصرى القديم على جدران بعض أهرامات الدولة القديمة، مثل هرم «ونيس» وهرم «تيتى» وغيرهما، وقد أخذ منها كتاب الموتى فى الدولة الحديثة الكثير. هذه النصوص كانت تزين التوابيت فى زمن الدولة الوسطى لكى تضمن للمتوفى فى الحياة الأبدية الثانية، والتى لا يموت فيها مرة أخرى كما اعتقد صاحب النص، وتشرح أيضًا بالتفصيل رحلة المتوفى عبر السماء مصاحبًا للرب الشمسى الأسطورى «رع»، وفى أحيان آخرى رحلة المتوفى مع «أوزوريس» عبر ماهو كائن فى العالم السفلى.

أما عن النصوص الأدبية، فقد تميزت بالثراء والبلاغة، والنحو المنظم، واللغة الراقية، والتأنق فى الاستعارة والكناية، وتعتبر بلا شك العصر الذهبى للأدب والقصة، فقد نتج عن عبقرية الكاتب المصرى إبان الدولة الوسطى قصص رائعة، مثل قصة سنوحى، والبحار الغريق، وشكاوى الفلاح الفصيح، التى تؤكد عودة العدل والنظام فى الدولة الوسطى بعد عصر الانتقال الأول غير المستقر نظاميًا، وقد ازدهرت أيضًا فكرة كتابة التعاليم والحكم وتوريث الخبرات. وفى الحقيقة، تعتبر النبوءة لـ «نفرتى» والذى يرجع غالبًا إلى الأسرة الثانية عشرة حوالى ٢٠٠٠ ق.م

من أهم النصوص، والتى من الممكن الاستعانة بها لتحديد هوية أهم ملوك الدولة الوسطى، ونص النبوءة كان يُسرد عن طريق شخص غالبًا ما يكون موجودًا بعد حدوث الحدث، ولكنه يَسرد الحاضر والمستقبل، وكأنه عالم بالغيب. وهى نصوص تخدم القصر الملكى، وتؤكد أحقية الملك فى العرش، ولكن المهم فى نص «نفرتى» هو أنه ذكر ماهية أحد الملوك قائلًا: «... سوف يأتى من الجنوب ملك يدعى «أمينى» (صادق القول) وهو ابن امرأة تنحدر من الإقليم الأول من أقاليم الجنوب، وقد ولدت فى الوجه القبلى. وسوف يتسلم التاج ويلبس التاج الأحمر، وهكذا يوحد القوتين ... وشعب مصر سيبتهج فى عصره».

و«أمينى» هذا هو «أمنمحات الأول»، وكونه جنوبيًا وأمه كذلك، فهذا دليل على أن الدم النوبى الأصيل يسرى فى عروقه، وهو ما يشرح الشكل والقسمات النوبية التى تظهر فى تماثيله، وتماثيل ملوك آخرين جاءوا بعده إبان الدولة الوسطى. وقد ظهرت هذه القَسَمات أيضًا فى الأشعة السينية التى أجريت على مومياواتهم.

ومن المؤكد تاريخيًا أن بعض القصص الأدبية التى دونها كُتَاب فترة الدولة الوسطى قد عاشت فى مصر القديمة لمدة طويلة متخطية زمن الأسرة الثانية عشرة حتى وصلت إلى الأسرة العشرين، وهذا ما يدل على إعجاب المصريين بها وتعلقهم الشديد بدراستها وحفظها.

وأجمل مثال لهذا هى قصة «سنوهى» الشهيرة، والتى دونت على العديد من قطع الأحجار الصغيرة: أوستراكا (شقافات حجرية)، والتى هى محفوظة الآن بمتحف الأشموليان بأكسفورد ـ إنجلترا. وهناك أيضًا بردية موجودة بمتحف برلين، وهى من معبد الرامسيوم الجنائزى، والذى بناه الملك «رمسيس الثانى» فى البر الغربى بمدينة الأقصر، وهو يرجع إلى الأسرة التاسعة عشرة.

❁ ❁ ❁

الأسرة الثالثة عشرة (١٧٩٥ - ١٦٥٠ ق.م)

من الممكن أن نصف هذه الأسرة بأنها أسرة الانتقال من حاكم إلى آخر بسرعة مريبة مما يؤكد وجود حالة وهن وضعف للسلطة الملكية انعكست على حالة البلاد الاجتماعية والاقتصادية، بل والعسكرية والأمنية بالسلب. فيذكر بعض المؤرخين أن هناك ما يقرب من سبعين حاكمًا تمكنوا

من الوصول إلى عرش مصر فى مدة وجيزة لم تتجاوز ٥٥ عامًا (بين ١٧٩٥ إلى ١٦٥٠ ق.م)، وكان منهم القواد العسكريون وبعض العامة، ولم تكن هذه الأسرة أسرة بالمعنى المتعارف عليه؛ إذ إنه ندر أن يكون هناك دم ملكى يسرى فى عروق عدد من الحكام المتوالين مكونين أسرة مترابطة وقوية. وقد حاول بعض هؤلاء الحكام أن يؤكدوا أحقيتهم فى الحكم عن طريق تسمية أنفسهم بأسماء مصرية ملكية لملوك الدولة الوسطى الأقوياء، فنجد أسماء مثل «أمنمحات»، وقد كان من ضمن هؤلاء الحكام أشخاص ليسوا من أصل مصرى، بل ينحدرون من السلالات الآسيوية.

ومن أهم حكام الأسرة الثالثة عشرة الملك «حور»، والملك «خينجر» و«سوبك حوتب (الثالث والرابع والخامس)»، ولكن هؤلاء الحكام الأجانب الآسيويين هم الذين سوف يمهدون فيما بعد لدخول حكام الأراضى العالية الأجنبية الملقبين بالـ«حكا ـ سوت» أو الهكسوس.

❁ ❁ ❁

الأسرة الرابعة عشرة (١٧٥٠ - ١٦٥٠ ق.م)

يعتقد بعض المؤرخين أن هذه الأسرة قد حكمت فى زمن متوازٍ مع زمن حكم الأسرة الثالثة عشرة، ولكن من مكان مختلف. اتخذ حكام هاتين الأسرتين مدنًا مثل (سخا) فى غرب الدلتا، ومدينة غير معروفة لنا الآن فى شرقها كعواصم لممالكهم.

وتناوب العديد من الملوك على عرش مصر، وانتشر الأجانب فى الدلتا، وهو ما مهد لانتشار الهكسوس فيما بعد. ورغم أنه لم تكتشف مقبرة أو هرم لملوك تلك الفترة إلا أن الملك «نحسى» هو الاسم الوحيد المؤكد لدى الأثاريين من مجموع الذين حكموا فى هذه الأسرة الغامضة.

❁ ❁ ❁

عصر الانتقال الثانى

الأسرة الخامسة عشرة (١٦٥٠ - ١٥٥٠ ق.م)

نجح الحكام الأجانب الذين أتوا من البلاد العالية الصحراوية الجبلية الآسيوية: «هكسوس» فى إحكام قبضتهم على الدلتا، وتمركزوا على ما يبدو فى منطقة «تل الضبعة» بجانب «فاقوس» بمحافظة الشرقية، وبدأ حكمهم للبلاد يتمدد فى الوقت والمساحة حتى استطاعوا الوصول إلى منطقة جبلين فى مصر العليا، وهى منطقة ليست بعيدة عن طيبة.

وكانت الأسرة الرابعة عشرة هى التى شيدت قاعدة صلبة لهؤلاء الأجانب فى الدلتا حتى إنهم لم يجدوا صعوبة بالغة فى احتلال الدلتا وحكم مصر السفلى منها. ويعتقد البعض أنهم حكموا من الدلتا لمدة تزيد عن القرن الواحد بقليل حتى استطاع أمراء طيبة الأقوياء والمخلصون شيئًا فشيئًا أن يتخلصوا من هذا «الطاعون» الهكسوسى كما أطلق عليه المصريون القدماء. ويعتقد بعض الآثاريين أن الهكسوس يأتوا من أصل «هندو ـ لأوروبى»

واعتبر العلماء التقليديون أن بداية الأسرة الخامسة عشرة هى أول فترة الانتقال أو الفترة الوسيطة الثانية، والتى استمرت من عام ١٦٥٠ حتى ١٥٥٠ ق.م. وقد أطلق فى الهيروغليفية اسم «حكا ـ خاسوت» على هؤلاء الآسيويين الذين أتوا من بلاد سوريا وفلسطين، وقد ترجمها المتخصصون لـ «حكام الأراضى الأجنبية»، أو «حكام الأراضى الصحراوية»، ولكن من المعروف أن حرف «الواو» أو الـ «و» هى صيغة الجمع فى الكتابة المقدسة الهيروغليفية، وبالتالى فإن صحيح ترجمة الاسم الأول هو حاكم وليس حكامًا، والدليل على هذا أنه قد تم اكتشاف جزء من باب فى منطقة تل الضبعة بالشرقية وعليها اسم «سوكر ـ حر» وهو أحد ملوك الهكسوس، وكان لقبه المكتوب هو «حكا ـ خاسوت» أى حاكم واحد فقط وليس حكامًا، أى بصيغة المفرد، وليس الجمع.

ومن أشهر ملوك الهكسوس ـ والذين أُطلق عليهم أيضًا الملوك الرعاة الملك «خيان» و«إبيبى» ورغم عدم وجود أية بنايات مبهرة أو أهرامات هكسوسية إلا أنهم قد تبنوا فكرة عبادة الرب

الأسطورى «ست» المصرى القديم، وقد يعتقد البعض أن السبب فى هذا أن «ست» هو رب الشر والكراهية، ولكن هذا ليس صحيحًا لأن «ست» كان أيضًا رمزًا للصحراء والكوارث والأمطار الشديدة، ومن المحتمل أن يكون المصريون الذين طردوا الهكسوس إبان الأسرة السابعة عشرة هم الذين قاموا بتدمير آثار ومعابد وتماثيل هؤلاء الغزاة المعتدين.

وعلى الرغم من أن الاعتقاد السائد أن الهكسوس قد قدموا إلى مصر ومعهم بعض الاختراعات التى لم يكن قد عرفها أو تعرف عليها المصرى مثل الحصان، والعجلة الحربية، والسيف المقوس، ولكن علينا أن نتذكر أن حفريات الجامعة المصرية بمنطقة الجيزة بجانب الأهرامات قد نجحت فى العثور على بكرتين من الممكن أن يرجع تاريخهما إلى عصر بناء الأهرامات، وهو ما يدل على شيئين مهمين: أولهما أن من الممكن أن يكون هذا الكشف الذى حدث فى القرن العشرين إثباتا بينًا على أن المصريين القدماء قد عرفوا بل وابتكروا فكرة البكر، أو العجل، أو الأشكال الأسطوانية التى تساعد فى نقل الأشياء، والأحجار، والناس من مكان إلى آخر، وثانيهما أنه لم يكن الفضل للهكسوس فى تعريف المصرى بالعجلة، فقد عرفها قبل دخول الهكسوس بمئات السنين.

وقد فضل العلماء الدارسون لتاريخ الهكسوس فى مصر أن يؤرخوا لبدايته بعام ١٦٥٠ ق.م، وهو تقريبًا وقت احتلال الهكسوس لمدينة منف المهمة، وكانت ومازالت ذكرى الغزو والاحتلال الهكسوسى علامة فاصلة فى تاريخ مصر، أثرت فى تاريخ الأسرات، وأفرزت العديد من البطولات والأسماء المصرية التى قادت معارك التحرير، وما زالت ذكراهم وتاريخهم يُدرس ويُدَرس حتى الآن.

❁ ❁ ❁

الأسرة السادسة عشرة
والأسرة السابعة عشرة (١٦٥٠ - ١٥٥٠ ق.م)

قويت شوكة الهكسوس بعد احتلالهم لأغلب المدن المهمة والاستراتيجية بالدلتا، ثم امتدت سيادتهم إلى مصر العليا والوسطى لبعض الوقت، ولقلة الآثار التى تم الكشف عنها حتى يومنا هذا، لم نتمكن من حصر تسلسل مؤكد لأسماء ملوكهم، فأصبحت الاجتهادات الشخصية هى الحل لهذه المعضلة.

أول ملك عرف فى الأسرة السادسة عشرة والتى أعقبت الأسرة الخامسة عشرة كان «جحوتى»، وهو مسمى على اسم رب الحكمة «جحوتى» الفرعونى، والذى كان يُرمز إليه بطائر أبى منجل أحيانًا وحيوان القرد أحيانًا أخرى، ثم توالت الأسماء مثل «سوبك ـ حتب الثامن» و«نفر ـ حتب الثالث» ثم عشرة ملوك منتهين بآخر ملك واسمه «سنوسرت الرابع» (وهو بالطبع غير الملك الذى حكم فى الدولة الوسطى بنفس الاسم).

ثم جاءت الأسرة السابعة عشرة والتى أسسها «رع حوتب»، وتلاه الأناتفة، وهم الملوك: «أينيوتف الخامس والسادس والسابع» منتهيًا بـ«سوبك ـ أم ـ سا ـ ف الثانى».

وقد تم دراسة هؤلاء الملوك فى تلك الأسر عن طريق الأسماء والنصوص التى تم اكتشافها منحوتة على لوحات حجرية بالدير البحرى، وتوابيت وأوانٍ كانوبية لحفظ أحشاء المتوفى، والمعابد الباقية من عصر هذه الفترة التى اتصفت بالغرابة. فلأول مرة فى تاريخ مصر تنقسم البلد إلى قسمين بهذه الطريقة، يحكم الشمالى منها الهكسوس الغزاة، ويحكم الجنوبى منها أمراء وملوط طيبة، حتى جاء ملوك الأسرة السابعة عشرة الأواخر ليسطروا فصول البطولات والكفاح ضد الهكسوس.

وتعتبر الأسرة السابعة عشرة هى أولى الأسرات المؤسسة لما أُطلق عليه فيما بعد: «الدولة الحديثة»، والتى استمرت حتى الأسرة العشرين، ولكن يفضل بعض المؤرخين أن يبدأ الدولة الحديثة بالأسرة الثامنة عشرة. وفى الحقيقة كان للأسرة السابعة عشرة التأثير الكبير على مجريات الأمور السياسية والعسكرية. وقد انتشرت فى الدولة الحديثة ألقاب ملكية مقدسة جديدة، بل لقد تم إضفاء صِبغة وصيغة الألوهية على بعض الملوك والملكات، كما سنرى.

وصلت الحضارة المصرية إلى أوجها إبان حكم ملوك فترة الدولة الحديثة، فقد وصلت جيوش مصر وأساطيلها إلى أقوى فتراتها، وعلا شأن الفن والنحت والتشييد والمعمار، حيث تم بناء معابد مثل الكرنك والأقصر، والرمسيوم ومدينة هابو، وأبى سمبل، والدير البحرى وغيرها. نما الاقتصاد وانتعشت البلاد، وزادت الرحلات التجارية مع بلاد أجنبية وراجت عملية التبادل التجارى مع آسيا وإفريقيا، بل ومع جزر البحر المتوسط. باختصار وصلت الإمبراطورية المصرية إلى أعلى شأن لها فى العالم، وأصبحت بلا منازع هى الأقوى والأكثر تحكمًا.

١- الملك سقنن ـ رع تاعا الثانى

وقد بزغ اسم الملك المحارب «سقنن ـ رع تاعا الثانى»، والذى قاد حربًا عسكرية ونفسية ضد الغزاة الهكسوس، والذين كانوا قد استقروا فى الدلتا.

وقد تميزت سنوات حكم هذا الملك (حوالى ١٥٥٠ ق.م) برجوع حالة الاستنفار ورفض الاحتلال لدى المصرى الشجاع، وقد كان الهكسوس بقيادة «أبو بيبى» يبعثون بالرسائل المهينة والمسيئة لملك طيبة فى الجنوب، وقد وصلت بعض هذه العبارات فى نص يرجع إلى عصر الرعامسة مثل «إن أصوات أفراس النهر تزعجنى»، وهى تحمل نوعًا من التهكم والسخرية والتهديد فى آن واحد. وقد تزوج الملك «سقنن ـ رع تاعا الثانى» من السيدة الشجاعة «إيعح ـ حتب»، وهى أم الملك الشهير «أحمس الأول»، ورغم عدم قدرته على طرد الهكسوس نهائيًّا من الدلتا إلا أن الملك الشجاع «سقنن ـ رع تاعا الثانى» قد أطلق العنان للجيوش المصرية لكى تثبت أحقيتها فى الزود عن أراضيها ضد المستعمر المغتصب، وقد انتهت حياته نهاية مأساوية، فقد تم قتله، حيث تظهر مومياؤه القابعة بهدوء فى غرفة المومياوات بالمتحف المصرى بالقاهرة أنه مات نتيجة تلقى ضربات فى رأسه ووجهه وجبهته أدت إلى حدوث أكثر من شج، أثبتت الدراسات أنها من المحتمل أن تكون عن طريق فأس أو بلطة آسيوية الصنع مما يوضح أن القتلة كانوا هم الهكسوس. وقد تم تحنيط الملك بدون تورية أو إرادة إخفاء الجروح والشجوج، بل وتظهر علامات الألم والمعاناة على قسمات الوجه والفم مما يثبت أن هذا البطل المصرى قد لقى حتفه بعد معاناة جسدية شعر بها لمدة زمنية محدودة نتيجة تلقيه كل تلك الضربات القاتلة. انتهت حينئذ حياة «سقنن رع تاعا الثانى»، ولكنه ترك زوجة شجاعة وأخًا جريئًا مقدامًا وابنًا منتصرًا متحمسًا.

الزوجة هى الملكة المحاربة «إيعح ـ حتب»، وهى التى لعبت دورًا إيجابيًّا فى لم شمل البلاد، ووحدت الجهود وقربت وجهات النظر من أجل هدف واحد ألا وهو تكملة ما بدأه زوجها المقتول فى ميدان المعركة، ومن الممكن القول إنه لولا جهود تلك الملكة لضاعت مصر مرة أخرى على يد الغزاة الرعاة «الهكسوس»، وقد كرمها أولادها وأهدوها قلادة الخمس ذبابات، وهو أعلى وسام عسكرى فى مصر القديمة، وقد تم العثور على ثلاث ذبابات ذهبية فى سلسلة حول رقبة مومياء الملكة، والتى وُجدت فى مقبرتها بمنطقة دراع أبى النجا بالأقصر.

ومن أجمل نصوص التكريم التى تم الكشف عنها فى مصر القديمة هى تلك التى يتكلم فيها الملك «أحمس الأول» عن أمه مكرمًا ومبجلًا إياها قائلًا: «قدموا المديح لسيدة البلاد، وسيدة

جزر «بحر إيجه»[1]، فاسمها رفيع الشأن فى كل بلد أجنبى، فهى التى تضع الخطة للجماهير، زوج الملك، وأخته الملكة لها الحياة والسعادة والصحة، وهى أخت الملك، وأم الملك الفاخرة، الحاذقة التى تهتم وتضطلع بشئون مصر، ولقد جمعت هؤلاء، فأعادت اهاربين، وجمعت شتات الذين هاجروا، وهدأت روع الوجه القبلى، وأخضعت عصاته، الزوجة الملكة، «إيعح ـ حتب» التى تعيش». هكذا قرظ الابن أمه المقدامة فى لوحة وجدت بمعبد الكرنك بمدينة الأقصر، ثم يعود ليذكر الناس بقدر أمه ومكانتها وسط البلاد.

«امدحوا سيدة البلاد، وملكة شواطئ المناطق النائية، إن اسمها يرفرف على كافة البلاد الجبلية، وهى التى تتخذ القرارات الخاصة بشعبها، إنها زوجة الملك، وأخت الملك، فليمتعها الرب بالحياة والصحة والقوة. إنها ابنة الملك، وأم الملك المبجلة، وهى على بينة بكل الشئون فى أنحاء مصر. لقد جمعت بين النبلاء، وعملت على تضامنهم معًا. لقد أعادت اهاربين، وجمعت المنشقين، لقد جعلت السلام يسود مصر العليا، ودمرت المتمردين «إيعح ـ حتب».

هذا النص يؤكد أن الملكة كانت هى الحاكمة الفعلية للبلاد، ومن الممكن أن نضيف اسمها إلى قائمة السيدات اللائى حكمن مصر، مثل «نيت ـ إيقرتى وسوبك ـ نفرو، وحتشبسوت، وتاوسرت» وغيرهن.

٢- الملك كامس

يعتبره بعض العلماء أخا الملك الأصغر سنًّا «أحمس الأول» ويعتقد البعض الآخر أنه أخو الملك المقتول «سقنن ـ رع ـ تاعا الثانى»، وقد حكم هذا القائد العسكرى المقدام من عام ١٥٤١ ق.م حتى ١٥٣٩ ق.م، وقد اعتلى عرش مصر فى وقت حرج للغاية، فقد كان اهكسوس متمكنين من مقاليد الأمور فى الدلتا، وقد نجحوا فى إقصاء «سقنن ـ رع ـ تاعا الثانى» بقتله. وكذا كان لزامًا على «كامس» أن يعيد الأمور إلى نصابها بتنظيم الجيش وتحرير مصر، وقد كان «كامس» يحارب فى جبهتين، الجبهة الشمالية فى الدلتا والتى نجح فيها فى تحرير مدينة «نفروسى» والاقترب من منطقة «أفاريس» بتل الضبعة بالشرقية، وهى التى كانت معقل اهكسوس الرئيسى، هذا من جانب، ومن الجانب الآخر كان يهدده من الجنوب جيش أمير بلاد كوش الجنوبية الذى وجد أن انشغال «كامس» بالهكسوس فى الشمال فرصة له للانقضاض عليه والانتقام منه، وذلك لاستيلاء

(١) هذا يوحى بأن النفوذ المصرى أمتد حتى جزر إيجه فى شمال البحر المتوسط.

«كامس» على بعض الأراضى والقلاع التى كانت تحت حكم أمير كوش. وقد اعتُبر «كامس» آخر ملوك الأسرة السابعة عشرة، ولكن كان على التاريخ أن ينتظر حتى بزوغ نجم الملك «إياح ـ مس» (أحمس الأول)؛ لكى تتخلص مصر نهائيًا من هذا الطاعون: «الهكسوس».

٣- الملك أحمس الأول

هو «أحمس» ابن القمر كما يعنى اسمه بالكتابة المصرية القديمة. محرر مصر الشجاع، هزم الهكسوس فى معركة حاسمة بمنطقة «شاروهين» بجنوب فلسطين بعد حصار دام ٣ سنوات، وقد حكم الملك «أحمس الأول» مصر لمدة تناهز الخمسة والعشرين عامًا (١٥٥٠ - ١٥٢٥ ق.م)، وكان الجيش فى عصره قد تمكن من ترويض الحصان واستخدامه فى الأغراض العسكرية، وتمكن أيضًا من التدريب على استعمال العجلة الحربية، والتى تفوَق بها الهكسوس فى بداية الاحتلال. ويعتبر «أحمس الأول» هو مؤسس الأسرة الثامنة عشرة، والتى تعتبر من أهم الأسرات جمعاء. وقد استفاد التاريخ من النص النادر الذى نحت على جدران مقبرة القائد البحرى العسكرى المقدام «أحمس بن أبانا» قائد فيالق الملك «أحمس الأول». ففى طيات هذا النص المسهب شرح مفصل لحروب التحرير، وقد تم العثور على هذه المقبرة القيمة فى منطقة الكاب بجنوب مصر، وقد كرمه الملك بإهدائه القلائد الذهبية سبع مرات، و هو ما يدل على شجاعته وإقدامه، وخصص له الأراضى كهبة ملكية.

وقد أثبت بسالته فى المعركة التى دارت فى الماء فى قناة «بجد ـ كو» فى أواريس العاصمة الهكسوسية بتل الضبعة بالشرقية، وعاد منتصرًا محملًا بالغنائم.

«أحمس بن أبانا» صاحب الملك «أحمس» فى كل حروبه وتوسعاته فى آسيا والجنوب، حيث قضى على أمير كوش الذى كان يريد استغلال فرصة انشغال المصريين بالحروب الهكسوسية ليستولى على بعض الأراضى، وقد ذكر فى نص مقبرته بالكاب بجنوب مصر: «كنت أنا على رأس جيشنا، وحاربت أكثر مما يمكن تصوره، واستطاع جلالته (يقصد الملك أحمس) أن يلاحظ بسالتى»، وقد استمر «ابن أبانا» فى إنجازاته العسكرية حتى فى أيام حكم الملك «تحتمس الأول».

وبعد أن تخلص «أحمس» من الهكسوس، أعاد الاستقرار للبلاد، وشرع فى استعادة العلاقات الديبلوماسية والتجارية مع البلاد المجاورة والأجنبية، كما أعاد استغلال المناجم والمحاجر، وقد أضاف بعض البنايات الدينية بمعبد الكرنك، وقد تم الكشف عن مومياته ضمن مجموعة المومياوات التى تم العثور عليها بخبيئة الدير البحرى، والتى اكتشفتها عائلة عبد الرسول الأقصرية عام ١٨٧٠م، ثم تم نقل مومياوات الملوك المكتشفة عام ١٨٨١م إلى القاهرة.

٤- أحمس الأول

هل هو طارد الهكسوس؟ جرى العرف على أن نُعرف الملك المصرى الشجاع «أحمس الأول» على أنه طارد الهكسوس، فهل هذه المقولة صحيحة؟ من الناحية اللغوية والفعلية، نستطيع أن نؤكد أنه بعد طرد الملك «كاموس» للغزاة الهكسوس من الدلتا، طارد فلوهم الملك «أحمس»، وأكمل المهمة حتى حاصرهم فى بلدة فى قبيلة «سيمون» تسمى «شاروهين»، وهى تقع جنوبى «يوده». وقد استسلم الهكسوس بعد حصار استمر ثلاث سنوات كاملة، وقد فحص المؤرخون جغرافيًا تلك الأماكن وجنح البعض للاعتقاد بأنه من المحتمل أن تكون هى بلدة «تل الفارا» حاليًا، ولكن تبقى أغلوطة أن «أحمس» هو طارد الهكسوس. والتحليل الصحيح هو أن «سقنن رع تاعا الثانى» هو مفجر شرارة الدفاع العسكرى عن مصر والدلتا وبادئ الحملات العسكرية المحررة، ثم تلاه «كاموس»، والذى نجح فى طرد الهكسوس ـ حكام الأقاليم الصحراوية ـ من الدلتا، ثم حاصرهم «أحمس الأول» فى «شاروهين»، ولكن لم يُجتز الهكسوس من جذورهم بالكامل إلا فى أيام حكم الملك «أمونحوتب الثانى» الذى أكمل وأتم إنجاز أبيه الملك المقدام المنتصر «تحتمس الثالث»، وأكد هذه الحقيقة بعض الأثريين معتمدين على أن هذين الملكين قد حملا لقبًا واحدًا من ضمن ألقابهم الملكية ألا وهو ضارب الهكسوس الذين هاجموه «حوى حقا» و«خاسوت بحسو». وقد كان لانتشار هؤلاء القوم فى أراضٍ كثيرة أسباب كثيرة، منها: الهجرات المتعددة التى قاموا بها، والأصول المختلفة والجذور المتعددة لقبائلهم. فقد تم الكشف عن آثار للهكسوس فى مصر وفلسطين وبلاد مابين النهرين، والتى أثبتت أنه من المحتمل أن يكونوا قد تكونوا من خليط من الأصول السامية والحيتية والحورانية والهنود الإيرانيين. وقد كانت لديهم القدرة على التجمع بعد هزيمتهم النكراء على أيدى المصريين تحت قيادة قائد «قادش» فى إحدى الفترات ليحاربوا الجيوش المصرية مرة أخرى، ولكنهم مُنيوا بالهزيمة مرة آخرى أيضًا.

وقد استحق الملك «أحمس الأول» (من وجهة نظره ونظر كهنته) كل الألقاب التى خلعها هو على نفسه وأكدها الكهنة فى معابده، ومنها: «قوى الساعد ... المنتقم له (لرع) الذى جعله على الأرض، والذى يضيء دهورًا، رب الانشراح، الشديد البأس .. معطى الحياة، ومقيم العدالة، ملك الملوك على كل أرض .. الملك الذى يضم الأرضين، عظيم الاحترام القوى فى شبابه، ومن قدر لتاجه أعجوبة مزدوجة فى كل ساعة، رفيع الريشتين .. مثل القمر فى وسط النجوم، يسير فى رقة، ويخطو فى تؤدة، وبقدم ثابتة، ونعل طائع، وتنبهر العينان برؤية هذا الملك والقلوب تنبض بحبه، وهو مثل قرص الشمس عندما يسطع، ومثل شمس الظهيرة عندما تضيء العينين، إنه مالك للحب أكثر من كل الملوك».

وقد توفى الملك «أحمس الأول» ما بين الأربعين أو الخمسين من عمره، وقد عثر على مومياته فى خبيئة الدير البحرى ضمن عدد من أشهر الأسماء الملكية. وقد تميز وجهه بالطفولية البريئة رغم إقدامه كقائد جيش، وكان شعره كثيفًا ويتميز بنتوء فى فكه الأعلى.

تقديس ملكات الدولة الحديثة

كان للأثر الإيجابى الذى تركته الملكات الشهيرات للأسرتين السابعة عشرة والثامنة عشرة إبان الدولة الحديثة فعل السحر لدى المصرى القديم، فقرر كهنة معابد مصر القديمة والشخصيات الملكية المهيمنة على الأمور أن يعتبروهن شخصيات مقدسة لهن صفات ربانية، ووصفهن بالألقاب العديدة المقدسة، وتم عمل الاحتفالات المعبدية لهن، وتم تكريس الصلوات والابتهالات لذكراهن، ومن أمثلتهن الملكة «إيعاح حتب» والملكة القديرة «أحمس نفرتارى» زوجة «أحمس الأول»، ولكن من هى الملكة «أحمس نفرتارى»؟ وما هى الشخصية الحقيقية وراء القناع التاريخى الذى ألبسه إياها العلماء والمؤرخون الكلاسيكون؟

الملكة أحمس نفرتارى

هى الملكة التى قدسها المصريون القدماء بعد وفاتها، وقد كانت زوجة الملك وأخته وبنت الملك «سقنن رع تاعا الثانى». مومياؤها الآن فى المتحف المصرى بالقاهرة، والنطق الصحيح لاسمها هو «إيعح ـ مس نفرت ـ إيرى». وعند دراسة الخرطوش الملكى لها بتمعن وتأنٍ، نجد أن حرف الألف الهيروغليفى غير موجود فى اسم «نفرتارى»، ولكن يوجد بدلًا منه حرف الياء، وبالتالى يجب علينا نطق وكتابة الأسم «نفرت ـ إيرى» وليس «نفرتارى». وقد لاحظت أيضًا أن كل المناظر الملونة القديمة لتلك الملكة المبجلة تظهرها سمراء جنوبية ذات لون بشرة نوبى جميل، مثل ذلك المنظر الموجود الآن فى المتحف البريطانى، ولكن يعتقد العلماء التقليديون أن اللون الأسود هنا هو لون رب البعث الأسود، ولكن وجود بروز فى الفك الأعلى للفم الظاهر بوضوح بالمومياء يؤكد وجهة النظر الأولى، إضافة إلى أنه لو كان اللون الأسود هو رمز الرب الأسطورى «أوزوريس»، رب الحياة الثانية الأبدية ورب البعث المقدس، فلماذا لم نجد تماثيل الملوك الآخرين مثل «رمسيس الثانى» وغيرهم وهم ملونون باللون الأسود، وهم يؤدون دور الملك وهو على شاكلة «أوزوريس»؟، وقد تجد أنه هناك أكثر من ملك وملكة بل وأقاربهم فى الأسرة الثامنة عشرة لهم نفس الصفات التشريحية والبروز بالفك الأعلى مما يؤكد جريان الدم النوبى وتغلب الجينات النوبية على شكلهم التشريحى.

الملكة «ياح ـ مس نفر ـ تيرى» بالمتحف البريطانى ـ لندن

وقد عاشت «إيعح ـ مس ـ نفرت ـ إيرى» من عام ١٥٧٠ ق.م حتى ١٧٠٥ ق.م حياة مليئة بالإنجازات مما تسبب فى اعتبارها أهم شخصيات الدولة الحديثة النسائية السياسية والاجتماعية بل والدينية، حيث حصلت على لقب هو المماثل والمقابل للقب الكاهن الأعلى للبلاد، وهذا ليس بغريب لو علمنا أصلها وجذورها، فهى حفيدة الملكة «تيتى ـ شيرى»، وأمها الملكة المقاتلة المحررة «إيعح ـ حتب»، وقد عاشت سنين عديدة بعد وفاة زوجها «أحمس الأول»، والذى كان يحبها ويحترمها ويستفيد بمشورتها فى أمور الحكم والتشييد والبناء. وقد بجلها النبلاء ورجال البلاط والرجال المهمون لدرجة أنهم ذكروا اسمها فى أكثر من خمسين مقبرة خاصة بطيبة.

الدولة الحديثة (١٥٥٠ - ١٠٦٩ ق.م)

الأسرة الثامنة عشرة (١٥٥٠ - ١٢٩٥ ق.م)

الملك أمونحوتب الأول

عندما اعتلى هذا الملك عرش مصر كان مازال حديث السن، ولم يكن باستطاعته إدارة دفة الأمور؛ ولذلك قررت أمه الملكة «إعح ـ مس ـ نفرت ـ إيرى» أن تؤدى دور الوصية على العرش حتى يصل إلى السن المناسب للحكم الرشيد، وهى عادة مصرية قديمة لم تستحدثها الأسرة الثامنة عشرة، وقد حكم «أمونحوتب الأول» (ينطق ويكتب اسمه «إيمن ـ حتب» ومعنى الاسم الرب آمون الشمسى الأسطورى سعيد) من عام ١٥٢٥ ق.م حتى ١٥٠٤ ق.م. وقد كانت له إنجازات عسكرية فى بلاد كوش الجنوبية وغيرها، ولكن من الواضح أن تلك البلاد فى تلك الفترة كانت قد بدأت التقاط أنفاسها بعد كابوس الهكسوس ،فبدأت الزراعة والاقتصاد فى الانتعاش مرة أخرى، وقد أحبه وبجله أمراؤه وعماله إلى حد التقديس بعد وفاته. ولم يتفق حتى الآن على مكان مقبرته، ولكن مومياءه بقيت لمدة طويلة غير مفكوكة الأربطة، ومكثت لفائفها كما كانت منذ عملية التحنيط القديمة. وهذا الوضع محبب لقلوب الكثير من العامة والمتخصصين، ومنهم كاتب هذا المخطوط، حيث يفضل أن يترك هؤلاء القدماء كما أرادوا هم أجسادهم ملفوفة فى كتانها داخل توابيتهم بمقابرهم مسجين فى سلام وأمان وراحة أبدية كما تمنوا هم، وأجد أن هذا الفعل هو أقل ما يجب أن نفعله تجاه القدماء الذين آمنوا بأن هناك لعنة سوف تحل على الذين يخترقون حاجز الهدوء الأبدى الذى يتمتع المتوفى به والذين ينبشون القبور أيضًا، ورغم وجود نص اللعنة المنحوت على الجدران والمكتوب على البرديات إلا أن كاتب هذا القرطاس لا يؤمن البتة بما يسمى بلعنة الفراعنة، ولكنه يؤمن بأن علينا وبسرعة إعادة المومياوات إلى أماكنها الأصلية مع الحرص على حمايتها من الدمار والسرقة بوضعها فى ظروف

مناخية صحية ومؤمنة ومحروسة، وذلك باستخدام التكنولوچيا الحديثة التى من الممكن أن نسخرها لهذا الغرض.

الملك تحتمس الأول

ثالث ملوك الأسرة الثامنة عشرة، حكم لمدة ١٢ عامًا، واسمه «جحوت ـ مس»، معناه «حوت قد وُلد»، وهو أول الملوك الأربعة الذين لقبوا بالـ«تحامسة» (نسبة للاسم «تحتمس»)، وقد حكم من عام ١٥٠٤ ق.م حتى ١٤٩٢ ق.م. ورغم أن الحالة التجارية للبلاد قد ازدهرت فى عصره إلا أن هذا كان يرجع للقوة العسكرية التى أظهرها الملك «تحتمس الأول» حتى وصل النفوذ المصرى إلى البلاد الميتانية فى آسيا وحتى الشلال الرابع فى الجنوب، كاتبًا بهذه الانتصارات أول فصول الفتوحات والإنجازات العسكرية لهذه الأسرة، وقد تميزت الفترة القصيرة لحكم الملك «تحتمس الأول» بالإنجازات الإنشائية والمعمارية، فقام ببناء المعابد والمقاصير، وأصدر أوامره بإقامة التماثيل للأرباب العديدة، وله مسلة شهيرة فى معبد الكرنك وزنها يصل إلى ١٤٣ طنًّا. وقد اهتم بترميم المعابد، واهتم بأبيدوس ومعبد «أوزوريس»، يؤكد هذا النص الهيروغليفى: «لقد عمل جلالتى كل هذا لأجل «أوسير» (أوزوريس رب أبيدوس) لأنى أحبه أكثر من كل الأرباب الأخرى ليبقى اسمى، وتدوم آثارى فى بيت والدى «خنتى أمنتى» رب العرابة (أبيدوس) مخلدة أبدًا». ويحتل الملك «تحتمس الأول» المركز الأول فى قائمة ملوك الأسرات الذين دفنوا فى وادى الملوك، فهو أول من اختار تلك المنطقة بغرب الأقصر لتكون مثواه الأخير، وقد أوكل لكبير بنائيه المدعو «إننى» بهذه الوظيفة المهمة فيقول «إننى (واصفا): ... وأشرفت على كيفية حفر قبر جلالته، وكنت وحيدًا ولم يره إنسان، ولم يسمع به أحد ... ووضعت ملاطًا من الطين على جدران مقابره ليرسم عليها ..». وقد أثبتت الأبحاث الحديثة أن المومياء التى اعتقد البعض أنها للملك كانت لشخص آخر.

الملك تحتمس الثانى

هو ابن الملك «تحتمس الأول» وقد اعتلى عرش مصر منذ عام ١٤٩٢ ق.م حتى ١٤٧٩ ق.م، وقد تزوج من أخته الملكة الشهيرة «حتشبسوت». ورغم أن قامته الطويلة وانتصاراته على الجنوب الثائر أعطيا الانطباع أنه كان رجلًا حاسمًا قاسيًا إلا أن اهتمامه بشكله وتأنقه يؤكد أنه كان إنسانًا

مرهف الحس. وقد أنجبت له الملكة الشهيرة بنتًا اسمها «نفرو ـ رع» وأخرى تدعى «مريت رع حتشبسوت» بيد أن الملك القادم والوريث الشرعى كان من المفترض أن يكون «تحتمس الثالث»، وهو ابن زوجة ثانوية اسمها «إيست» (أى إيزيس). وقد شيد «تحتمس الثانى» معبدًا جنائزيًا بغرب الأقصر مكرسًا إياه لعبادة الأرباب المقدسة؛ ليثبت تدينه وحبه للأرباب.

منظر منحوت للملك تحتمس الثالث ـ حديقة المتحف المصرى. القاهرة

الملك تحتمس الثالث والملكة حتشبسوت

أراد الملك الأب «تحتمس الثانى» لابنه «تحتمس الثالث» الذى أنجبته زوجة ثانوية أن يكون الوريث الشرعى للعرش، بل إنه من المحتمل أن يكون قد جعله مشاركًا للحكم فى أواخر أيامه. ولكن كان الملك الجديد صغير السن عند وفاة أبيه، فقد كان يبلغ الحادية عشرة تقريبًا، ولكن كانت هناك «حتشبسوت» تريد حكم البلاد منفردة، وقد كانت شخصية تلك السيدة القوية والمتسلطة ظاهرة فى أيام الملك «تحتمس الثانى» نفسه، إذ إن هناك من يعتقد أنها كانت الحاكم الفعلى للبلاد، اعتمادًا على نص المهندس المشيد «إننى» الذى يقول ويؤكد: «الزوجة الملكية «حتشبسوت» كانت هى التى تدير شئون الأرضين حسب آرائها هى، وقد كانت مصر تعمل مطأطئة الرأس لها، وهى صاحبة الأمر ...».

رأس الملكة حتشبسوت وتظهر مرتدية للذقن الملكية المستعارة
المتحف المصرى ـ القاهرة

تمثال غير مألوف للملكة الحاكمة حتشبسوت، حيث تظهر بشكلها الأنثوى على غير عادتها التى كانت تفضلها
متحف المتروبوليتان ـ نيويورك

ولفظ مطأطئة هنا فى هذا النص هو لفظ غريب، ولكنه يثبت أن الغيرة والكره اللذين ظهرا من «تحتمس الثالث» تجاه زوجة أبيه «حتشبسوت» كان لهما أسبابهما، وقد أقنعت «حتشبسوت» الكهنة ورجال البلاط بطريقة أو بأخرى بأن يضعوها على العرش منفردة، فأصبحت هى «ملك مصر العليا والدنيا»، وبَنَت المقاصير والمعابد المنحوتة، مثل معبدها الشهير بالدير البحرى بغرب الأقصر، وصنعت لها التماثيل التى تظهرها بشكل جميل وأنثوى (مثل تلك المجموعة الموجودة الآن فى متحف مترو بوليتان بنيويورك).

ونحتت لها مجموعة أخرى تظهر فيها الملكة على شكل ذكورى وبدون صدر أنثوى، بل وترتدى فى هذه التماثيل الذقن الملكى المستعار، وقد نجحت «حتشبسوت» (والذى يعنى اسمها هى التى فى مقدمة النبيلات) فى تأسيس قاعدة متينة من الكهنة ورجال السياسة المحنكين يُعضدونها ويُعينونها على إدارة دفة الأمور، وصبغ حكمها بالصبغة الشرعية، فتم عمل مناظر ملونة على جدران معبدها بالدير البحرى للولادة الربانية وزواج أم «حتشبسوت» من الرب الأسطورى «آمون» الرب الشمسى، وبالتالى أصبحت ملكة مصر هى الابنة المقدسة لـ«آمون» أهم الأرباب وأقواهم.

معبد الدير البحرى المُرمم ويظهر فى يسار الصورة بقايا معبد منتوحتب ـ البر الغربى ـ الأقصر

ورغم أن التأثر المعمارى قد بدا واضحًا فى معبد «حتشبسوت» بمعبد الملك «نب ـ حبت ـ منتوحتب» (الأسرة الحادية عشرة) والذى يقع بقاياه فى الناحية الجنوبية من معبد «حتشبسوت»، إلا أن الترميم المصرى ـ البولندى الذى استمر لربع قرن من العمل المثمر أبقى على معبدها ورونقه إلى يومنا هذا فى حالة أقرب إلى الشكل الذى تمنته الملكة نفسها. ومن أشهر إنجازات «حتشبسوت»، سيدة كل النبيلات رحلتها السلمية إلى بلاد بونت. ورغم أنها لم تكن الرحلة الأولى للمصريين، فقد ذُكرت بلاد بونت فى الأسرة الخامسة فى عهد الملك «ساحو رع» ثم الملك «أسوسى» إلا أن تدوين مناظر مفصلة لبونت على جدران معبدها وبقاء تلك المناظر إلى يومنا هذا جعل اسم «حتشبسوت» الأكثر التصاقًا بهذه الرحلة التجارية السلمية، وقد جلبت البعثة المصرية من بونت المراهم والدهانات العطرية ذات الرائحة الجميلة النفاذة ـ وكان لهذه الدهانات استخدامات يومية للكهنة والنساء بل وللرجال أيضًا ـ وقد اشتركت فى خليط طبى لعلاج بعض الأمراض والأوجاع، وأيضًا تم جلب البخور والمر لما لهما من استخدامات فى أثناء الطقوس الدينية للأرباب المقدسة الأسطورية، ومن ضمن البضائع التى وردت من بلاد بونت إلى الأراضى المصرية كان هناك القرود، والفهود، والزراف، والكلاب، والعاج، وخشب القرفة والأبنوس، أما عن أشجار الحنة فقد أُعجبت بها الملكة المصرية لدرجة أنها زرعتها حول معبدها. أما عن بلاد بونت نفسها فقد أولى علماء التاريخ والجغرافيا اهتمامًا كبيرًا بها، فأين هى بلاد بونت الآن؟

بعض المؤرخين يؤكدون أن بونت كان مكانا يُطلق عليه الآن (جيبوتى)، ويعتقد البعض الآخر أنها كانت تقع فى منطقة ساحلية بأريتريا ولكن هناك مجموعة تفضل (أثيوبيا). ورأينا الخاص أن المنظر المنحوت على جدران معبد «حتشبسوت» لهو الدليل الدامغ على المكان الأصلى لبونت. نجد فى المنظر الملون أن أهالى (بونت) كانوا يعيشون فى أكواخ من جريد النخيل، وأخشابها يشيدونها بأيديهم على أعمدة من الخشب؛ لترتفع عن سطح الأرض المغمورة بالمياه، ويصلوا إلى مداخل أكواخهم عن طريق سلم يصعدونه. وتحت هذا المنظر يوجد منظر آخر يبين الأنواع المختلفة للأسماك والأحياء المائية التى كانت تعيش فى (بونت)، ونجد أن هناك سمك مياه عذبة ومالحة، وتوجد سلاحف مائية أيضًا مما يؤكد أنها خليط بين أسماك بحرية ونيلية، الشىء الذى يخلص منه أن (بوينيت) أصل التسمية بالكتابة الهيروغليفية كان مكانًا يطل على ملتقى البحر بالنهر، وذلك يؤكد وجود النوعين المتباينين من الأحياء المائية. وعلى ذلك فهو مكان بين البحر الأحمر وأقرب فروع نهر النيل إليه، وتحديدًا فى جنوب شرق السودان أو الصومال، ونضيف إلى هذا أن جبل (بونت)، المحتوى على العديد من مناجم الذهب، كان على مقربة من بلاد (كوش)

الواقعة فى وادى النيل النوبى، وقد أضافت الملكة لإنجازاتها تشييد مسلتين أشهرهما تلك التى تقف منتصبة بشموخ فى وسط معبد الكرنك، وقد تم نحت نصوص هيروغليفية على جوانبها تظهر الخراطيش الملكية لـ«حتشبسوت»، وهى من الخراطيش القليلة التى نجت من التدمير على يد المعترضين على طريقة اغتصابها لعرش مصر، وقد وقعت كل هذه التدميرات بعد وفاتها بعد ٢٢ عامًا من الحكم. ويصل وزن مسلة «حتشبسوت» بمعبد الكرنك بالبر الشرقى بالأقصر إلى حوالى ٣٢٠ طنًا من الجرانيت الوردى، فى حين يصل ارتفاعها إلى حوالى ٢٧,٥ مترا. وقد بينت المناظر المنحوتة على جدران الجزء الأسفل لمعبدها بالدير البحرى بالبر الغربى للأقصر أن نقل المسلتين قد تم من أسوان إلى الأقصر، وقد أكدت النصوص أن قطع الأحجار من محاجر أسوان ونقلها وتشييدها بالكرنك استغرق ٧ أشهر، وقد كان من عادة المصريين القدماء كسو قمة المسلة المدببة والهرمية الشكل بمعدن الألكتروم (مزيج من الذهب والفضة). وقد أطلق على هذا الهريم لقب «بن بن»، ولوجود هريم الـ«بن بن» أصل وأهمية فى العقيدة الدينية المصرية القديمة، وقد تم ذكره فى متون الأهرام ـ أقدم النصوص الدينية المنقوشة على جدران غرف أهرامات سقارة، مثل هرم «تيتى» وهرم «ونيس» (أوناس)، يقول النص: «أتوم الجعران، لقد صعدت عاليًا من مياه المحيط الأزلى المسمى «نون» مثل البن ـ بن فى معبد طائر العنقاء فى أون (هليوبوليس)». ويشرح هذا النص كيف جاء آتوم (وهو الرب الخالق الأسطورى من وجهة نظر الكاهن المصرى القديم) إلى عالم البشر على شكل حجر مقدس هرمى الملامح، وصعد من مياه المحيط الذى آمن المصرى القديم أنه كان محيطًا من المياه الغامضة. ومن هنا كان لهريم الـ «بن ـ بن» علاقة وثيقة بإتمام عملية الخلق، وأن للـ«بن ـ بن» علاقة أيضًا وطيدة بأشعة الشمس وعبادتها؛ لأن أول ظهور له كان فى مدينة ومعبد الشمس بهليوبوليس. ومن الممكن تصور انعكاس أشعة الشمس من على الأسطح الأربعة المعدنية للأربعة جوانب لهريم الـ «بن ـ بن» أعلى المسلة، من المؤكد أنه كان منظرًا خلابًا يتمتع به القريب من المسلة والبعيد عنها أيضًا، وذلك لارتفاعها الشاهق. وقد أكدت «حتشبسوت» ماهية وكينونة المسلتين قائلة: «أيها الناس الذين سوف ترون هذا الأثر بعد سنوات وسوف تتكلمون عن ذلك الذى صنعته، حذارى من قول (لست أدرى لماذا صُنع؟)، لقد صنعتها لأنى أرغب فى أن تكون هدية إلى والدى «آمون»؛ ولكى أغطيهم بالألكتروم». ولقد شُيدت بعد وفاتها بناية غطت على النصف الأسفل من مسلتها القائمة بمعبد الكرنك، وهو ماساعد على الحفاظ على هذا الجزء، وعلى النصوص الهيروغليفية المحفورة عليه. ويظهر اختلاف لون حجر الجرانيت، المقطوعة منه المسلة

ـ نظرًا لتعرض النصف العلوى منها لأشعة الشمس فبهت اللون الوردى الأصلى للحجر بعض الشىء، ومال للاصفرار أو اللون البرتقالى الفاتح، فى حين احتفظ الجزء الأسفل باللون الأصلى.

لقد اتهم بعض الأثريين الملك «تحتمس الثالث» بأنه المسئول عن هذه البناية التى أحاطت بالنصف الأسفل من المسلة لغرض طمس ذكرى الملكة التى اغتصبت منه عرش مصر، ولكن لا يوجد ـ فى الحقيقة ـ دليل دامغ على صحة هذا الاتهام. الإدانة هنا ما زالت مشكوكًا فى أمرها. ومن أهم الأسماء التى لمعت فى عصر حكم «حتشبسوت» مدير بيت آمون والمسئول عن تربية ابنتها «نفرو ـ رع» والشخصية الأكثر تأثيرًا فى بلاطها الملكى المدعو: «سننموت» (سنوت فى قراءة أخرى). ولقد وجد لهذا الرجل أكثر من تمثال وهو يرعى ابنة الملكة وهى جالسة على حِجره. وقد تم الكشف عن مقبرتين لـ«سننموت»: واحدة أعلى جبل منطقة القرنة بالبر الغربى بالأقصر وهى غير مكتملة، أما الثانية فهى بجانب معبد الدير البحرى وبها أقدم وأجمل منظر فلكى للأجرام والنجوم السماوية. كل هذه الاكتشافات مهدت الطريق أمام بعض المؤرخين لكى يقرروا أهمية هذا الرجل الذى جاء من عائلة متواضعة، بل إن بعضهم أثار قصة غير موثقة بأنه كان المحبوب من قبل الملكة بعد الوفاة المبكرة لزوجها، وخصوصًا أنه لا يظهر لـ«سننموت» أى أولاد فى المناظر أو التماثيل التى تركها إلا تلك التماثيل التى تظهره وهو مع الأميرة الملكية صغيرة السن «نفرو ـ رع» بنت الملكة «ماعت ـ كا ـ رع حتشبسوت».

معبد الدير البحرى ـ البر الغربى ـ الأقصر

صورة تفصيليه لرأس أحد التماثيل داخل معبد حتشبسوت ـ البر الغربى ـ الأقصر

وينتهى عصر «حتشبسوت» بعد ٢٢ عامًا من الحكم، ولكن تبقى لنا عدة تساؤلات ما زالت تعيش فى طى الغموض، ولم يمط عنها اللثام بعد:

١- كيف استطاعت أن تقنع الكهنة ورجال السياسة بتعضيدها والوقوف بجانبها ووضعها على عرش مصر رغم غرابة الحركة الانقلابية التى قامت بها عندما قررت إزاحة الوريث الشرعى للعرش الأمير «تحتمس الثالث»؟

٢- من قام بتحطيم معبدها وتهشيم تماثيلها وقشط أسماءها الملكية؟ هل كان بالفعل الملك المنتقم «تحتمس الثالث»؟ أم رجاله الأوفياء؟ واضعين فى الاعتبار أن سمعة «حتشبسوت» المغتصبة للعرش استمرت ولمدة زمنية طويلة، حتى إن الملك الشهير «سيتى» بانى معبد أبيدوس لم يذكرها فى قائمة الملوك المنحوتة على جدران معبده، والتى تضمنت ٧٦ اسمًا لملوك مصر القديمة، مما يؤكد عدم اعترافه بها؟

٣- هل كانت مناظرها المنحوتة وتماثيلها التى تظهرها على هيئة ذكر لأنها أرادت أن تتشبه بالرجال لأسباب سياسية أم دينية أم شخصية؟، ولا نعتقد أنها كانت تريد أن تثبت أحقيتها أو جديتها للحكم لأنها قد سبقتها ملكات حاكمات أخريات مثل «نيت ـ إيقرتى» و«سوبك ـ نفرو»، ولكنهما لم تحكما لمدة طويلة مثلها؟

زوجة عمدة «بونت» المصابة بداء الفيل ـ المتحف المصرى ـ القاهرة

٤- فى المنظر الشهير لبلاد بونت على جدار معبد الدير البحرى، ظهر حاكم بونت المدعو «باريهو» وزوجته «آتى» ويظهر جليًا الشكل الجسمانى لـ«آتى»، فهى ممتلئة الوزن بشكل كبير لم يظهر كثيرًا فى أى منظر مصرى قديم، والتساؤل هنا: هل وضع «آتى» هنا ما هو إلا نحت كاريكاتورى للشخصية الأجنبية؟ أم أنها كانت تعانى من المرض المعروف باسم «داء الفيل» ؟ أو «مرض ديركم ـ Dercums disease»؟ وبالتالى يصبح منظر «آتى» هنا هو محاولة ناجحة من الفنان المصرى القديم لمحاكاة الحقيقة غير المجاملة أو المزيفة للواقع؟

تحتمس الثالث

هو الملك المحارب المنتصر المقدام «من ـ خبر ـ رع تحتمس الثالث»، والذى امتدت مدة حكمه الطويلة من عام ١٤٧٩ ق.م وحتى ١٤٢٥ ق.م، ويفضل بعض المؤرخين إضافة السنين الأربعة عشرة التى شاركته «حتشبسوت» الحكم فيها كوصية لصغر سنه (ولكنها فى الحقيقة كانت قد انفردت بالحكم لمدة ليست قصيرة).

وقد استهل حكمه المنفرد بعد وفاة منافسته على العرش بانتصار مدوٍّ فى معركة «مجدو» ضد الحلفاء فى سوريا تحت قيادة حاكم «قادش»[1] (كانت تلك الأراضى المعادية لمصر قد استعادت ترابطها وبأسها لما أبدته «حتشبسوت» من هدوء وسلام إبان فترة حكمها، وكان يطلق المصريون على تلك الرقعة من الأرض ساهى أو زاهى، وقد ذكرها «تحتمس الثالث» فى حروبه السبعة عشر بالكرنك، حيث قال: «إن الرب «آمون» قد وجهه على كل الممالك المتحالفة فى أرض زاهى، فحاصرها جميعًا فى بلدة واحدة ...». وقد برع «تحتمس الثالث» فى النزال والقتال، وكان يتميز بالدهاء العسكرى والحنكة السياسية والولاء الدينى، وبالتالى اجتمعت فيه صفات الحاكم المثالية، وكان لهذه الانتصارات العسكرية المتوالية الأثر الأكبر فى انتعاش البلاد اقتصاديًا، فتجلى هذا الثراء فى المعابد الفخمة والاحتفالات المعبدية والشعبية المكلفة، والتى دونها فى قاعة الأعياد بمعبد الكرنك، وقد توسعت السيطرة المصرية فى أيام «تحتمس الثالث» كما لم تتوسع من قبل، فقد وثق لنا انتصاراته فى ممالك آشور ورتنو (سوريا) والسواحل، والموانى الفينيقية وميتانى وبلاد ما بين النهرين وكوش الجنوبية، حتى إنه دون انتصاراته فى منطقة جبل بركال فى قلب المملكة الكوشية. وقد كانت نجاحات الملك «تحتمس الثالث» العسكرية برية وبحرية ونهرية،

(١) مدينة صغيرة للقوافل التجارية بسوريا.

وقد ظهر هذا جليًا فى معركة «قرقميش». وذكر لنا فى حوليات معاركه بمعبد الكرنك أيضًا معارك بلاد سنجار«بابل» وبلاد خيتا وبلاد بونت وبلاد واوات وقبرص. ومن أجمل وأهم الآثار التى أفرزت فى عصره نتيجة لهذه الانتصارات واستقرار الحكم وتمركزه هى معابده ومسلاته ومقابره بوادى الملوك، بل ومقابر موظفيه المهمة. ويقول العلماء المتخصصون فى تاريخ المسلات: إن الملك «تحتمس الثالث» قد قام بتشييد ـ على الأقل ـ سبع مسلات بمعابد الكرنك، واثنتين فى هليوبوليس، وقد كرس تشييدها للأرباب المقدسة فى وقت احتفالاته الدينية والملكية. وقد أُعيد تشييد عدد كبير من هذه المسلات بعد نقلها إلى مدن أوروبية وغربية كثيرة، فنجد مسلة لـ «تحتمس الثالث» الآن فى إسطنبول، ويبلغ ارتفاعها حوالى ٢٩ مترًا، وثانية فى نيويورك بارتفاع ٢١ مترًا، وثالثة بلندن بارتفاع ٢٠ مترًا. أما عن مسلته فى روما فهى أهم المسلات الثلاثة عشرة التى تزين ميادين تلك المدينة الإيطالية، وقد احتفل بها بعد وضعها فى ميدان سان جيوفانى فى لا تيرانو فى يوم ١٠ أغسطس من عام ١٥٨٨م. وقد وصل ارتفاع هذه المسلة العملاقة إلى ٣٢ مترًا، وهو ما جعلها من أعلى المسلات المصرية القديمة، الأمر الذى أغرى الكثير من المؤرخين أن يقترحوا أن مشروع المسلة الناقصة بأسوان كان من أعمال «تحتمس الثالث»، ولكنه لم يتم لظهور بعض التشققات بالحجر فى وقت تقطيعه، ولكننا لا نستطيع أن نجزم بمن هو صاحب أو صاحبة هذا المشروع الطموح لتشييد مسلة يصل ارتفاعها إلى أكثر من ٤٠ مترًا ووزنها يربو على الألف طن !. وكما انتعش البناء والتشييد فى عصره، ازدهرت أيضًا الفنون والموسيقى والنحت، وقد ظهرت كل هذه الإبداعات فى المناظر البديعة، والتى ما زالت تحافظ على ألوانها حتى الآن فى مقبرة وزيره والقائم على أعمال كثيرة ومسئوليات جمة المدعو «رخميرع» الكائنة بقرية القرنة فى مكان يطلق عليه وادى النبلاء. وقد وثق «رخميرع» صفاته التى من أجلها اختاره الملك «تحتمس الثالث» لهذه المناصب المهمة قائلا: «**كنت قلب الرب، وأذن وعيون ملكى، كنت بحاره، ولم أعرف النوم بالليل أو بالنهار ... وحكمت على الغنى والفقير بالمثل (بالعدل)، وأنقذت الضعيف من القوى ... ودافعت عن الأرملة، وقد أسست الآن ووريثه على مقعد أبيه ... حكمت فى أمور جثام، ولم أكن أصم للذى يده فارغة، ولم أتقبل رشوة أحد**».

ومن المناظر التى تؤكد سيطرة جيوش الملك «تحتمس الثالث» على الاراضى الأجنبية لوحة تظهر الجبايا والهبات، والجزيات، والهدايا التى جلبها الجنوبيون والسوريون والكريتون و أهالى بحر إيجه إلى الأراضى المصرية، وكان «رخميرع» الوزير الوفى فى استقبالها، وكان المسئول عن توثيقها مثل القارورات والفازات وحيوانات مثل الزراف والدب وسن الفيل والذهب، ومن الموظفين المهمين

أيضًا والذين خدموا فى بلاط الملك «تحتمس الثالث» كان المدعو «بويم-رع» والكاهن الأعلى لآمون «من - خبر - رع سونب» والمدعو «يامونيد جح»، والذين من مقابرهم عرفنا أنهم جميعًا اشتركوا فى تشييد مسلات الملك، سواء أكان فى وقت تقطيعها أو نقلها أو الاحتفال بإقامتها فى المكان المختار لها، وكما فعلت الملكة «حتشبسوت» فعل الملك «تحتمس الثالث» بخصوص تثبيت الحق الشرعى للحكم واعتلاء العرش عن طريق توثيق علاقته بالرب المقدس فى ذلك الوقت ألا وهو «آمون». ويقول فى النص الهيروغليفى: إنه (أى آمون) قد اختاره «تحتمس الثالث»، ليكون حاكم البلاد وهو يعبر بالموكب الرسمى لتمثال الرب فى بهو الأساطين بمعبد الكرنك، فهو «... ابنه محبوب جلالته ..» وهو ابنه الذى أمر أن يبقى على عرشه .. وقد .. نصبنى رع شخصيًا حسب ما جاء فى النص الملكى.

وقد نقب وكشف الآثرى الفرنسى ڤيكتور لوريه عن مقبرة «تحتمس الثالث» بوادى الملوك فى عام ١٨٩٨م وهى فى مكان شاهق الارتفاع، صعبة الوصول إليها، وتميزت النصوص والرسومات التى وجدت مكتوبة ومرسومة على جدرانها بأنها واضحة، ولكنها سريعة ومختصرة فى تفاصيلها، وكأن كل جدران المقبرة عبارة عن ورقة من لفائف البردى المليئة بالكتابات، وهى طريقة نادرة فى وادى الملوك التى كانت تتميز رسوماته ونصوصه بالتفاصيل المتأنية والوضوح الصافى. مومياء الملك لم تكن موجودة فى مقبرتها، ولكنها كانت ضمن الخبيئة.

تمثال تحتمس الثالث الفريد. أجمل إنجاز للنحات المصرى القديم - متحف الأقصر

ويبقى أخيرًا أن نتكلم عن أجمل أثر تركه لنا ذلك الملك ألا وهو تمثاله البديع الموجود حاليًا بمتحف الأقصر، والذى افتُتح عام ١٩٧٥م. وبدون مبالغة يعتبر هذا التمثال المنحوت من قطعة واحدة من حجر الشيست الأخضر الغامق، واحدًا من أجمل التحف فى تاريخ النحت بصفة عامة، وقد تم الكشف عنه فى يوم ٨ مايو من عام ١٩٠٤م بمعبد «آمون» بالكرنك. يصل طول التمثال المبهر إلى ٥ , ٩٠ سم، ويظهر الملك المقدام وهو يتقدم بالخطوة العسكرية برجله اليسرى، رأسه مغطاه بلباس الرأس «نمس» المصنوع فى الحقيقة من القماش المخطط بخطوط عرضية (ولكنه هنا منحوت من الحجر)، ويزين جبهة الملك ثعبان الكوبرا من أجل حماية الملك من الشر، ولكن للأسف رأس الأفعى هنا محطم. والتمثال فى مجمله يظهر الملك بقسمات غاية فى الجاذبية، وجمال الوجه ومنتهى الرشاقة والقوة العضلية، ويرتدى الملك هنا تنورة الـ«شيندت» ومنحوت على الحزام الخرطوش الملكى الذى يحتوى على أحد أسماء الملك «من ـ خبر ـ رع»، وللتمثال عمود يرتكز عليه خلف الجسد، وهو منقوش بعبارات هيروغليفية. ولا يسعك إلا أن تقف مشدوهًا، أمام ذلك العمل الفنى البارع والذى لا أجد له مثيلًا بين أقرانه هنا فى مصر أو فى خارجها.

الملك أمونحوتب الثانى

حكم الملك «عا ـ خبرو ـ رع إيمنحتب[1] الثانى» لمدة ٢٧ عامًا (١٤٢٧ - ١٤٠٠ ق.م)، وقد ورث الحكم عن أبيه الملك المقدام «تحتمس الثالث» الذى حكم مصر لمدة ٥٤ عامًا، ويعتقد بعض المؤرخين أن «أمونحوتب الثانى» شارك والده فى الحكم آخر ثلاث سنوات من حياته. وقد ورث الملك الجديد مملكة مترامية الأطراف واسعة المساحة مما تطلب منه إثبات تحكمه وسيطرته عليها كما فعل أبوه. ورغم أنه لم تكن هناك معارك كثيرة فى الجنوب كالعادة إلا أنه دخل فى نزال عسكرى شديد مع زعماء منطقة سوريا وأنهارها، التى انتهت إلى طلب الزعماء السوريين من الملك المصرى عقد اتفاقيات سلام، فوافق الملك وانفتحت مصر على آسيا، وظهر هذا واضحًا فى بعض النصوص والفنون.

وقد ترك لنا هذا الملك عددًا من المعابد والمقاصير والنصوص المهمة، والتى أعطتنا فكرة جلية عن شخصيته وشكله الجسمانى. ففى معبده الصغير فى الناحية الشمالية الشرقية لتمثال «أبو الهول» الشهير بالجيزة، تم الكشف عن لوحة طولها يبلغ أربعة أمتار وخمسة وعشرين سنتيمترًا، وعرضها

(١) التسمية الهيروغليفية الصحيحة للملك هى «إيمنحتب» وليس «أمونحوتب» ولكن جرى عرف الآثاريين أن يطلقوا عليه التسمية الثانية.

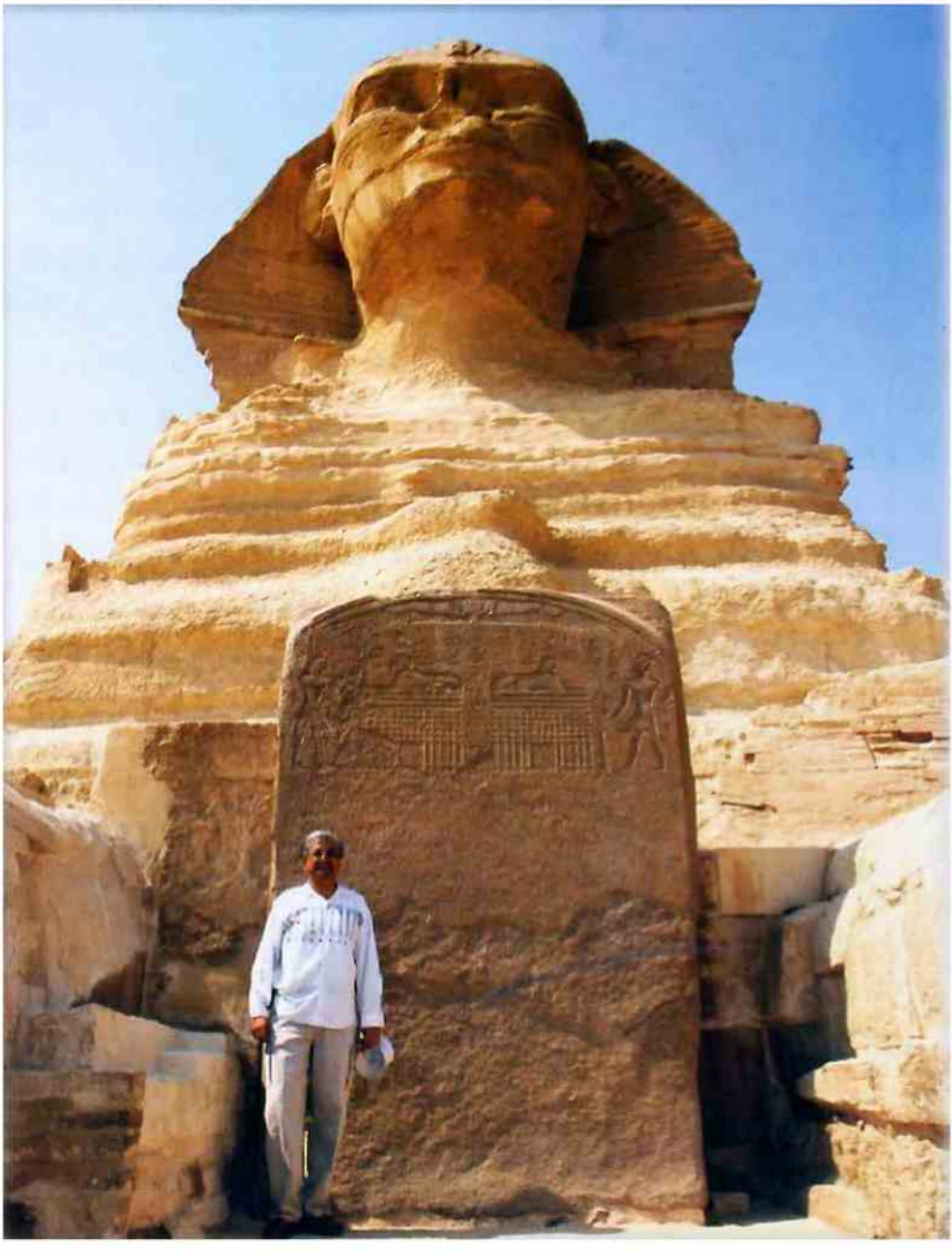

المؤلف أمام لوحة الحلم للملك تحتمس الرابع الجرانيتية ـ الجيزة

نحو مترين وثلاثة وخمسين سنتيمترًا، وهى مشيدة فى آخر المعبد. منحوت على هذه اللوحة الحجرية منظر للملك «أمونحوتب الثانى»، وهو يتعبد لأبى الهول (كرب مقدس). وتحت هذا المنظر الدينى يوجد نص هيروغليفى يؤكد فيه الملك كيف أنه برع فى استخدام القوس والسهم، وأن بنيانه الجسدى كان بالشدة والقوة التى جعلته لا يتعب من التجديف، وأنه كان فارسًا يجيد ركوب الخيل. وتوجد إيماءة فى النص أن الملك قد اعتلى العرش وهو فى سن الثامنة عشرة من عمره.

إذن، لا شك فى أن الملك «أمونحوتب الثانى» كان رياضيًّا ناجحًا. فى عام ١٩٢٧م تم اكتشاف لوحة من الجرانيت الأحمر الأسوانى فى الصرح الثالث لمعبد آمون بالكرنك، وهى الآن معروضة بمتحف الأقصر بعد ترميمها، ويظهر فيها الملك وهو يرمى بالسهام تجاه هدفين: أولهما عبارة عن عامود سميك يظهر فى أقصى يمين المنظر وهو مرشوق بعدة أسهم قد اخترقته، ليظهر جزء منها من الناحية الأخرى للهدف، مما يدل على قوة ساعدى الملك الذى استخدم قوسه فى هذه الرياضة القديمة. ويقول النص الهيروغليفى المنحوت على اللوحة: إن الملك «أمونحوتب الثانى» أصر على أن تكون كل الأهداف التى يرميها بالسهام مصنوعة من معدن النحاس القوى، وليس من الخشب، كما هو المعتاد، وذلك لأنه أقوى من الرجال العاديين لدرجة أن كل سهامه قد اخترقت الأهداف الخشبية، كما لوكانت مصنوعة من أوراق نبات البردى السهل الاختراق. وكان الملك «أمونحوتب الثانى» محاربًا منتصرًا وعاقدًا لاتفاقيات السلام، بل وابنًا وليًّا ومخلصًا لأبيه، حيث أكمل ما بدأه والده من معابد ومقاصير، ولكن لم يمهله القدر الوقت الكافى لإنهائها. وقد تزوج هذا الملك من أكثر من زوجة، ولكن أكثرهن ظهورًا فى المناظر المنحوتة كانت الملكة «تيا» والملكة «ميريت آمون ـ حتشبسوت» (وهى غير الملكة «حتشبسوت» السابق ذكرها)، ولقد دُفن الملك فى مقبرته الشهيرة فى وادى الملوك بالبر الغربى بالأقصر، وهى تحمل رقم ٣٥، وتم الكشف عن مومياته إلى جانب ثمانى مومياوات أخريات بنفس المقبرة، وهم : الملوك «تحتمس الرابع»، و«أمونحوتب الثالث»، و«ميرنبتاح»، و«سيتى الثانى»، و«سبتاح»، و«رمسيس الرابع والخامس والسادس». وكان هذا الكشف المهم قد حدث فى عام ١٨٩٨م على يد الأثرى الفرنسى «ڤيكتور لوريه».

الملك تحتمس الرابع

رغم قصر مدة حكم الملك «من ـ خبرو ـ رع ـ جحوتى ـ مس» الرابع، والتى بلغت حوالى ١٠ سنوات، ورغم أنه من المحتمل ألا يكون فى الأصل الوريث الأول الشرعى لحكم أبيه

«أمونحوتب الثانى»، إلا أنه كان من الحكام الذين تفردوا بصفات كثيرة، وتميز حكمهم بأشياء، وأفعال مستحدثة. فقد كانت نقوشه بالكرنك غير مبهرة، ولم يُكشف عن الكثير من المبانى الشاهقة له كما هو الحال عند الملوك الآخرين، ولكنه كان مغرمًا باللوحات الجنائزية والدينية، والتى منها أشهر لوحة حجرية مصرية قديمة على الإطلاق، ألا وهى لوحة الحُلم والتى تقف الآن بين أيدى تمثال أبى الهول بالجيزة. وقد أرخت هذه اللوحة على أنها صُنعت فى العام الأول لحكم الملك «تحتمس الرابع» (١٤٠٠ ق.م) والمراد من هذه اللوحة والنص المنقور عليها هو خلع صفة الشرعية وصبغة الأحقية على الملك الذى لم يكن له ـ على ما يبدو ـ الحق فى اعتلاء العرش فابتكر هذه الطريقة المستحدثة لإعطاء نفسه هذا الحق وتبرير قبضته على مقاليد الحكم. ففى النص المنحوت بدقة تحت منظر بديع للملك وهو يسكب السوائل ويحرق البخور أمام تمثالين ـ وليس واحد ـ لأبى الهول، يؤكد الملك أن الرب «حور إم آخت ـ خبرى ـ رع ـ آتوم» (وهو أبى الهول نفسه) هو أبو «تحتمس الرابع» (والذى لم يكن قد أخذ صفة الملكية بعد)، قد تكلم معه فى حميمية الأب مع ابنه شاكيًا له أن أعضاءه تشعر بالألم، وأن جسده قد دفنته وغمرته رمال الصحراء وطالبه بتحريره من كل هذه المتاعب فى مقابل أن يمنحه مُلك الأرض كلها والتاجين الأبيض والأحمر لمصر العليا والدنيا.

تفاصيل الجزء العلوى من لوحة الحلم ـ الجيزة

هذه المحاولة من جانب «تحتمس الرابع» كانت فى شكل قصصى منحوت على لوحة جرانيتية كانت فى الأصل من الأحجار الموجودة فى معبد الوادى بجانب أبى الهول. وقد أزال الملك الرمال من على جسد أبى الهول وشيد سورًا حوله لحمايته وختم اسمه على بعض أحجاره، والملك «تحتمس الرابع» كان أول ملك مصرى يتزوج من بنت ملك أجنبى عقب معاهدة السلام التى أبرمها مع الميتانين[1] بقيادة مليكهم «أرتاتاما»، وهو زواج دبلوماسى لتوطيد السلام والعلاقات السياسية الهادئة والبعد عن الحروب والمعارك بينهم عن طريق المصاهرة الأسرية، ولكنه رفض ـ كما فعل غيره من ملوك مصر بعده ـ أن يضع تلك الأميرة الأجنبية على عرش مصر كملكة مفضلة. فدائمًا وأبدًا كانت الملكة مصرية، تجرى فى عروقها الدماء المصرية الأصيلة، وقد تزوج الملك من أكثر من امرأة مثل «اياريت» و«نفرت ـ إيرى» وأشهرهم «موت ـ إم ـ ويا» وهى أم الملك الذى ورث عرش البلاد «أمونحوتب الثالث» فى ريعان شبابه.

الملك أمونحوتب الثالث

عجلت وفاة الملك «تحتمس الرابع» فى سن لم يتجاوز السابعة والعشرين عامًا بوضع الملك «نب ـ ماعت ـ رع ـ إيمن ـ حتب الثالث» على عرش البلاد، وقد حكم هذا الملك مصر لمدة تناهز ٣٨ عامًا (١٣٩٠ - ١٣٥٢ ق.م) وهو أهم وأشهر وأقدر ملوك الأسرة الثامنة عشرة إذا لم يكن أشهر ملوك مصر جميعًا. وقد تميزت فترته بالثراء والانتعاش الاقتصادى لدرجة أن الممالك الأجنبية ـ والذى استمر هو على نفس منوال أبيه من سلام ووئام معها ـ كانت تطالبه بالبعث بالذهب إليها على سبيل الهدية والهبة من ملك مصر الغنى. يقول نص الرسالة المبعوثة من الملك الآسيوى: «الذهب فى بلاد أخى كالتراب»، ومن الواضح أنه هنا يستعطف الملك «أمونحوتب الثالث»، ويظهر من كل المعابد التى بناها هذا الملك النشيط أن عصره كان يتميز بالفخامة المعمارية والإنجازات البنائية.

فمعبد الأقصر والصرح الثالث بمعابد الكرنك والتمثالان اللذان كانا أمام صرح معبده المهدم الآن والمعروفان باسم تمثالى «ممنون» فقط، لهما خير دليل على براعة المهندس والمعمارى والفنان المصرى بشكل ملفت للنظر فى عصر هذا الملك. وقد استمر على وتيرة والده فى زيجاته الديبلوماسية، وقد بالغ فى هذا حين تزوج من «جيلوخيبا» ابنة الملك «شوتارنا» ملك ميتانى، ثم تزوج أخت ملك آسيوى آخر يدعى «توشراتا» الميتانى، ثم أخت ملك بابل، ثم ابنة ملك

(١) حضارة ميتانى كانت من الحضارات المتقدمة والمتعشة اقتصاديًّا فى غرب آسيا، وقد ظهرت كقوى عسكرية منافسة للحضارة المصرية والحضارات المجاورة مثل حضارة كنعان وحيتى وغيرها.

«أرزاوا»، وقد أكد عالمنا الجليل «سليم حسن» أن الملك «أمونحوتب الثالث» كان له ٤٢٨ امرأة. ولكن بقيت الزوجة الملكية الرئيسية المفضلة هى «تى»، تلك التى تتميز بالوجه النوبى الباهر الجمال، وقد كرم الملك والملكة والدها ووالدتها عن طريق صنع مقبرة فخمة لهما بها الكثير من الأثاث الجنائزى، والقوارير والتوابيت، والأقنعة الجنائزية المغطاة بشرائح الذهب اللامع فى وادى الملوك، وتم اكتشاف مقبرتهما وقراءة اسمهما: «تويا» و«يويا» على التوابيت فى أوائل القرن العشرين، واستقرت تلك التحف الفنية فى المتحف المصرى بالقاهرة، وهى لخير دليل على ما وصلت إليه الفنون فى عصر الملك «أمونحوتب الثالث» من تقدم وازدهار.

الملكة «تى» المتحف المصرى ـ القاهرة

قناع مذهب فريد من ضمن مقتنيات المتحف المصرى ـ من مقبرة تويا ويويا بوادى الملوك ـ البر الغربى ـ الأقصر

وقد أغدق الملك على «تويا» و«يويا» بالكثير من الألقاب التى رفعتهما إلى مصاف الرتب العالية، سواء عسكريًا أو دينيًا. ومن المؤكد أن الملكة «تى» قد لعبت دورًا سياسيًا كبيرًا فى عصر الملك «أمونحوتب الثالث» وابنها «إخناتون» والتى توفيت فى العام الثامن من حكمه، وقد شاركت زوجها اتخاذ أهم القرارات المؤثرة حتى أصبح لها شهرة واسعة بين الأمم والممالك، ويعتبرها بعض المؤرخين من أحكم وأكثر الملكات المصريات حنكة لما كانت تتميز به من دهاء سياسى وخبرة فى إدارة الأمور، وأكبر دليل على كل هذه الصفات هو تمثال لرأسها تم الكشف عنه فى عام ١٩٠٠ م عندما

معبد الأقصر للملك أمونحوتب الثالث بالبر الشرقى ـ الأقصر

معبد الأقصر ـ البر الشرقي ـ الأقصر

اكتشف الأهالى عددًا من التماثيل الخشبية الفرعونية فى منطقة كوم مدينة غراب، عند مدخل مدينة الفيوم (اسم الفيوم أصله فى الكتابة المصرية القديمة مؤلف من كلمتين، (با)، ومعناها كبير و(يم)، ومعناها جسد مائى، ثم تحولت الباء إلى فاء، ثم أضيف عليهما أداة التعريف العربية بعد ذلك لتصبح الفيوم، وليس لأنها بنيت فى ألف يوم كما أشيع). وكانت البعثة الألمانية تقوم بأعمال التنقيب هناك. ونجحت محاولات الألمان فى الاستحواذ على رأس الملكة «تى» فى عام ١٩٠٥م عن طريق شرائها فى القاهرة، وهى رأس صغيرة بديعة الصنع، منحوتة باقتدار وهى ترجع لعام ١٣٦٠ ق.م. وهى الآن تقبع فى متحف برلين بألمانيا. وقد أفادتنا تلك الرأس المنحوتة من خشب الطقسوس فى معرفة الشكل الحقيقى والملامح المحاكية للشخص صاحب القطعة الفنية؛ وذلك لأن النحات المصرى القديم كان فى هذه الفترة يبعد عن المبالغة فى إظهار الجمال المثالى، كما ظهر فى عصور أخرى .وقسمات الوجه تبرز الشخصية الصارمة الحكيمة للملكة «تى» الشفتان غليظتان والعينان سوداوان، والبشرة لونها بنى غامق، والحواجب كبيرة وسميكة وعالية مما يضفى على الوجه جمالًا جنوبيًّا وجاذبية، عظام الوجنتين بارزة، وترتدى الملكة أقراطًا ذهبية وتاجًا يعلو رأسها مكونًا من قرص الشمس وريشتين ملكيتين يحيط بهما قرنان للبقرة «حتحور» ربة الجمال والموسيقى، والحب الأسطورية، وقد تم عمل بعض الدراسات على هذه الرأس من قبل بعض العلماء، مستخدمين التكنولوچيا الحديثة المتمثلة فى جهاز مسح إشعاعى يطلق عليه «كات ـ سكان». وقد نتج عن هذه الدراسة معرفة سر من أسرار تلك القطعة الغريبة، ألا وهى تغطية الرأس بغطاء إضافى وهو الظاهر الآن، ولكن فى الأصل كان هناك غطاء للرأس مصنوع من الفضة، وقد كانت الفضة أغلى من الذهب، وأطلق عليه المصرى القديم: «المعدن الأبيض» وقد أتوا به من آسيا، وقد كانت نادرة. يصل ارتفاع الرأس إلى٥ ,٩ سم، أى أنه رأس صغير فى الحجم مما يزيد من تقديرنا وتقريظنا للنحات، حيث إنه من الصعوبة أن تُنحت هذه التفاصيل الدقيقة فى مساحة صغيرة للوجه. وإذا دخلت المتحف المصرى بميدان التحرير بالقاهرة وتوجهت فى خط مستقيم بالدور الأرضى سوف تُبهر بتمثالين كبيرين للملك «أمونحوتب الثالث» وزوجته الجميلة «تى» وهما يجلسان فى رومانسية وسعادة بالغتين، وقد خلع الكثير من الألقاب عليها مثل: «المتحكمة فى مصر العليا والسفلى، وسيدة السعادة العظيمة القدر، سيدة الشاطئين». وقد نجح العلماء الأثريون فى الربط بين خصلة شعر لسيدة وجدت داخل تابوت صغير جدًّا عليه الاسم الملكى للملكة «تى» تم الكشف عنه فى مقبرة «توت عنخ آمون»، وشعر مومياء لسيدة فوق الخمسين عامًا من العمر وجدت مومياتها فى خبيئة وادى الملوك بمقبرة الملك «أمونحوتب الثانى» مقبرة رقم ٣٥. وأكد غالبية العلماء أن هذه الخصلة هى للملكة «تى» مما يؤكد ماهية مومياء السيدة. الملكة «تى» كانت بحق سيدة مصر المفضلة.

تمثالى ممنون للملك أمونحوتب الثالث ـ البر الغربى ـ الأقصر

تفصيل أحد التمثالين المسمين بـ«ممنون».

الملك أمونحوتب الثالث بمتحف الأقصر

يستقبل الزائر للبر الغربى لمدينة الأقصر الأثرية تمثالين جالسين كبيرين، كانا فى عصر «أمونحوتب الثالث» يكتنفان المدخل الرئيسى لصرح كبير يتقدم معبده المبهر، والذى لم يتبق منه الكثير الآن للأسف. ولكن ما زال السؤال المحير يتحسس طريق الحقيقة فى التسمية الغامضة. فإذا كان الملك المصرى «أمونحوتب الثالث» هو صاحب التمثالين والمعبد من ورائهما، فلماذا نطلق عليهما اسم «تمثالى ممنون»؟ وما هى علاقة الأسطورة اليونانية «أجا ممنون» بتمثالى «أمونحوتب الثالث» (هكذا يجب أن نطلق عليهم)؟ الحقيقة هى أنه فى عام ٢٧ ق.م ضرب زلزال تلك المنطقة مما أصاب التمثال الشمالى ببعض التشققات والتدمير (هو التمثال الذى على يمين الناظر عند الوقوف أمامهما)، ونظرًا لمرور الرياح عبر هذه الفتحات فى الصباح مصدرة صوت صفير مميز، أطلق عليه الزائرون والسائحون اليونان القدامى لقب «ممنون الصوتى» وذلك نسبة إلى الشخصية الشهيرة «آجا ممنون»، التى ذكرها «هوميروس» الشاعر اليونانى الشهير فى نصوصه. وقد أرجع اليونان القدماء هذا الصفير إلى أن «ممنون» كان يغنى وينشد خصيصًا لأمه «إيوس» الملقبة بربة الفجر الأسطورية. ورغم تشكيك بعض الكتاب اليونانيين والمؤرخين القدماء فى هذه القصة إلا أن الاسم قد ارتبط بالتمثالين، وليس بالتمثال الشمالى فقط حتى بعد زوال الصفير نتيجة للترميم الذى حدث فى عصر الإمبراطور الرومانى ـ الليبى الأصل ـ «سيبتيمس سيفيرس» (١٩٣ - ٢١١م).

ما زلنا نستطيع أن نتمتع أيضًا بالنظر إلى تلك التماثيل الصغيرة التى تكتنف أرجل التمثالين العملاقين، وهما للملكة «تى». نحت التمثالان من حجر الكوارتيزيت الرملى. وقد تم دفن الملك «أمونحوتب الثالث» فى مقبرة رقم ٢٢ بوادى الملوك بعد حياة مليئة بالإنجازات الأسرية والعسكرية والاقتصادية، وقد تم الكشف عن رأس مومياء وآثار كثيرة داخل مقبرته، ولكن مومياءه ما زالت مثار جدال بين العلماء. وقد ظهر فى أواخر أيامه طاعنًا فى السن، ذا جسم مترهل، ومتعبًا ومرهقًا، مما يؤكد محاكاة الفنان الذى نحت تلك المناظر للحقيقة، وهو ما يحسب للملك لأنه أعطى الفنانين الحرية فى إظهاره هكذا. وكان لوجود قرص الشمس ذى الأشعة المنتهية بالكفوف البشرية معتلية أعلى المناظر المنحوتة للملك الطاعن فى السن وبجواره زوجته الوفية «تى» الأثر الأكبر فى إيمان بعض المؤرخين أن «أمونحوتب الثالث» كان قد بدأ عبادة الرب «آتون» قبل ابنه «إخناتون». وهى مفاجأة تاريخية من العيار الثقيل؛ لأن أغلب المهتمين كانوا يعتقدون بأن «إخناتون» هو أول ملك مصرى عبد «آتون» وكرس المعابد له! بل وقد أطلق الملك «أمونحوتب

الثالث» لقب «آتون» الذى يتألق على قصر من قصوره، وقد كان لهذا أكبر الأثر فى فكر وعقيدة ابنه الملك «أمونحوتب الرابع» الذى حول اسمه إلى «إخناتون» ليصبح أكثر ملوك مصر القديمة إثارة للجدل حتى الآن .

تمثال ممنون وتظهر التماثيل الصغيرة بجانب أرجل الملك أمونحوتب الثالث ـ البر الغربى ـ الأقصر

الملك أمونحوتب الرابع (إخناتون)

حكم هذا الملك المثير للجدل حوالى ١٧ عامًا (١٣٦ - ١٣٥٢ عامًا ق.م)، أنجز خلالها الكثير من التغيرات والتطورات. فقد بدأ حياته الملكية كشريك لأبيه على عرش مصر رغم أنه لم يكن الابن الأكبر (على ما يبدو أن الأمير «تحتمس»، والوريث الشرعى، قد توفى وهو فى سن صغيرة). ورغم أن ديانة قرص الشمس المسماة «الديانة الآتونية» كانت قد ذكرت فى نصوص كثيرة للملوك قبل «إخناتون» إلا أنها وصلت إلى قمة ذروتها فى عصره. والرب الأسطورى «آتون» هو القوة الكامنة والطاقة المنبعثة من قرص الشمس . وقرر الملك تغيير ديانة «آمون»[1] فى معابد مصر وتحويل دفة الأمور الدينية إلى أرباب أخرى، كان على رأسهم «آتون»، وفى العام الرابع من

(١) راجع القاموس للأرباب المصرية الأسطورية القديمة فى نهاية الكتاب.

حكمه غير اسمه لـتأكيد ذلك التحول، فأصبح اسمه «إخناتون»، ومعناه «المفيد لآتون» بعد أن كان «أمونحوتب الرابع»، وتم محو أسماء «آمون» من النصوص والمعابد، بل وأقدم الملك على فعلة لا تنقصها الشجاعة السياسية رغم ـ أنها ولا شك قد أثارت عليه بعض المعارضين من كهنة «آمون» والمسئولين الدينيين بمعبد الكرنك (بيت الرب «آمون» نفسه) ـ ألا وهى انتقال قصر الحكم وعاصمة البلاد من طيبة (مركز عبادة «آمون») إلى «تل العمارنة»، بمحافظة المنيا الآن، وتقع حوالى ٢٨٠ كم جنوب القاهرة. وقد أنجز بناء عاصمته الجديدة التى أطلق عليها «آخت ـ آتون» ـ أى «أفق آتون» ـ خلال عامين فقط، وهو إنجاز معمارى بشرى بكل المقاييس. وقد استخدم عمال وبناؤ «إخناتون» أحجارًا أقل حجمًا من تلك التى اعتاد المصرى القديم على استخدامها. وقد أطلق على تلك الأحجار «التلاتات»، وكان لاستخدام هذا الابتكار المصرى الأثر الأكبر فى الانتهاء من بناء العاصمة فى تلك المدة الوجيزة. كان «إخناتون» فى حاجة إلى الانفصال عن طيبة التى كان بها كهنة «آمون» المهيمنون على مجريات الأمور. ويُرجع بعض علماء التأريخ سبب كره هؤلاء الكهنة والتابعين لديانة «آمون» لـ«إخناتون» إلى أنه هجر معابد الكرنك، وغُلقت أبوابها وقلت مواردها والقرابين والهبات المهداة إليها. ربما يكون هذا هو أحد الأسباب التى دعتهم إلى التخلص من الملك «إخناتون» فى النهاية، ولكن لا نستطيع الجزم بأنه قد مات مقتولًا إلا عندما يتم التعرف أو الكشف عن جثمانه. وأقرب تلك الفرص للتعرف على مومياء «إخناتون» هى دراسة بقايا الهيكل العظمى التى تم اكتشافها داخل مقبرة رقم ٥٥ بوادى الملوك فى أوائل القرن العشرين، وذلك لوجود أسماء «إخناتون» الملكية داخل المقبرة، ولكن المشكلة هى أن هناك أسماء ملكية أخرى داخل المقبرة مثل «أمونحوتب الثالث» والملكة «تى» و«ست» ـ «آمون»، والملك «توت ـ عنخ ـ آمون» والاحتمالات كثيرة، والماهية الأصلية لصاحب تلك المومياء ما زالت مطروحة على طاولة المناقشات والمجادلات.

ومنذ العام السادس إلى العام السابع عشر من حكم «إخناتون»، كانت الديانة الآتونية هى المتربعة على عرش المعابد فى عاصمته الجديدة «آخت ـ آتون»، فانتشرت المعابد والمقابر التى تحتوى على الأناشيد والتراتيل التى تمجد «آتون» وتبجله وتصبغه بصبغة متفردة، فبعد أن كانت المتون تقول: «الحمد لآمون ... أنت يا آمون إنك رب الصمت الذى يأتى عند استغاثة الفقير، وعندما أستغيث بك فى كربتى، ففى الحال تأتى وتنجينى ... ياآمون أنت يا مخرج القطعان فى الصباح ومرشد المتألم إلى المرعى ... يا آمون ـ رع إنى أحبك، وقد ملأت قلبى بك».

تمثال إخناتون المثير للجدل ـ المتحف المصرى ـ القاهرة

أصبحت التراتيل لـ «آتون» تقول: «ما أكثر تعدد أعمالك ... ما أعظم أعمالك ..كلها بحكمة صُنعت .. أنت صنعت النيل فى العالم السفلى، وأنت تأتى به كما تشاء لتحفظ أهل مصر أحياء؛ لأنك خلقتهم لنفسك وأنت سيدهم جميعًا .. »، .. «أنت تشرق بجمالك يا «آتون» الحى ... يا رب الأبدية .. إنك ساطع وقوى جميل، وحبك عظيم وجميل»، تعددت الآراء حول فكرة «وحدانية آتون» وتوحيد «إخناتون»، وما زال هناك خلاف بين العلماء المؤرخين، هل بالفعل وحد «إخناتون» الأرباب المصرية كلها واختزلها فى رب واحد هو «آتون»؟ هل كانت هناك ثورة «إخناتون» ذات مغزى دينى فقط، أم كان لـ«إخناتون» مآرب أخرى؟

هل كان إخناتون موحدًا؟

لا نستطيع أن نجزم بنوايا «إخناتون» ونوازعه الداخلية عندما قام بتلك الحركة الانقلابية فى العقيدة الدينية والفكر السياسى والفنى أيضًا، ولكن توجد كثير من الدلائل والقرائن التى تثبت ـ بما لا يدع مجالًا للشك ـ أنه آمن بأرباب أخرى وذكرها فى نصوصه الدينية مبجلًا إياها ومقدسًا لها. ففى إحدى النصوص الآتونية ذكرت هذه الجملة التى تشرح الموقف المختلط «يامن خلقت العالم كما يهوى قلبك حين كنت وحيدًا»، وكلمة «وحيدًا» هنا بمعناها الهيروغليفى القديم بمعنى ليس له رفيقة، ثم هناك نص آخر مدون فى مقبرة المدعو «آى» فى تل العمارنة، يثبت أن «إخناتون» كان يكرس شعوره الدينى لأرباب أخرى غير «آتون»، وبالتالى لم يكن «آتون» هو الرب الوحيد الأوحد عند «إخناتون»، يقول النص: «التعبد لـ«رع ـ حور ـ آختى» ... التعبد لـ «آتون» الحى العظيم (يقصد هنا الملك، إذ إن «إخناتون» الملك كان يصبغ نفسه بصبغة ربوبية) .. ملك الوجهين القبلى والبحرى الذى يحيا فى الحقيقة (العائش فى الحقيقة، هى من الصفات المفضلة التى خلعها «إخناتون» على نفسه) ..... والعدالة، رب القطرين «جميلة هى صيرورات رع ـ إنه الوحيد الذى يُنسب إلى رع «ابن رع». إذن، كان هناك «رع» الرب الشمسى القديم، وهناك «حور» وهو حورس الصقر القوى مما يدل على عدم وجود «آتون» وحده فى النصوص الدينية. ولو اعتقد البعض أنه من الممكن أن تكون تلك النصوص قد كتبت قبل انتقاله إلى عاصمته الجديدة وتغييره لاسمه، فهذا اعتقاد آخر خاطئ؛ لأنه لو نظرنا لمكان المقبرة التى دُون فيها هذا النص المهم، فسوف نجد أنها للمدعو «آى» وهو من الشخصيات التى لعبت دورًا كبيرًا فى الحياة السياسية والاجتماعية بتل العمارنة بعد الانتقال من طيبة. بل إن المقبرة نفسها موجودة إلى الآن فى حالة طيبة بتل العمارنة

تمثال للجزء العلوى للملك إخناتون ـ المتحف المصرى ـ القاهرة

تمثال صغير لإخناتون وهو يرتدى تاج الخبرش الأزرق
المتحف المصرى ـ القاهرة

بالمنيا، وفى جبانة العاصمة الآتونية توجد مقبرة لـ«ميرى رع» الكاتب الملكى، ونلاحظ هنا اسم «رع» الذى لم يأمر الملك «إخناتون» بتغييره مما يؤكد عدم وجود مشكلة لـ«إخناتون» مع ديانة «رع» ويخلط «إخناتون»علينا الأمر عندما يذكر فى متون «آتون» تلك العبارة: «ما أكثر أعمالك. إنك تتوارى أحيانًا عن الأنظار، أيها الرب الأوحد، فلا وجود بجوارك لآخر سواك». كل هذه النصوص بجانب مناظر الملك الذى يظهر كأهم وأكبر الشخصيات وأكثره تأثيرًا، تعطى لنا ثلاثة احتمالات وهى:

١-إنه لم يكن موحدًا أى لم يعبد ربًّا واحدًا، بل كان هناك رب مفضل رئيسى بالنسبة إليه، وقد أعطاه الصفات المقدسة، ولكنه لم يبتكرها لأنها كانت موجودة ومدونة من قبله وقبل عصره.

٢-أنه إله نفسه، حيث كان حجمه فى كل المناظر المنحوتة الأكبر والأكثر أهمية. وقد ظهر هذا جليًّا عندما ذكر فى النصوص أنه ابن الرب الذى وُلد من صلبه، وفى نص آخر يؤكد أنه شكل من أشكال الرب ولكن على الأرض.

٣-كانت هناك تعددية فى الأرباب، ولم يكن «إخناتون» ليقدر أن يمحى ذكرى كل تلك الأرباب، ولكنه كان دائم الاختلاف مع كهنة «آمون»، ومن المحتمل أن هذه الثورة الدينية كان لها أيضًا جانب سياسى.

على أية حال، لم يكن «إخناتون» بالملك الحالم الرومانسى، غير العائش على أرض الواقع. فقد ظهر فى أكثر من منظر منحوت وهو يقود عجلته الحربية بخبرة وتمكن، وقد تم اكتشاف تماثيل ومناظر ملونة وغير ملونة له وهو يرتدى التاج الأزرق، والذى كان يسمى تاج «الخبرش»، وهو الخاص بالحروب والأعمال العسكرية.

على الجانب الآخر، كان متزوجًا من الجميلة «نفرتيتى» والتى أنجبت له ست بنات، وقد لعبت الملكة المصرية «نفرتيتى» ـ والذى يعنى اسمها «التى من أجلها جاء الجمال، أو الجمال قد جاء» والنطق الهيروغليفى الصحيح هو«نفرت ـ إيتى» ـ دورًا أساسيًّا مهمًّا فى تل العمارنة. ولقد خلع عليها زوجها المحب «إخناتون» لقبًا مهمًّا ألا وهو «الوريثة». ويعتقد بعض المؤرخين أنها قد حكمت وحدها بعد وفاة زوجها فى العام السابع عشر من حكمه. ويعتمد هؤلاء المؤرخون فى هذه النظرية المنطقية على منظر للملكة وهو منحوت على قطعة من الحجر، وتظهر وهى تضرب أحد الأسرى بالمقمعة، وهو فعل لم يكن يقدم عليه إلا الملوك الذكور فقط أو الحكام الذين يعتلون عرش مصر فى العادة. أيضًا تم اكتشاف تمثال لها وحدها وبدون زوجها وقد كبرت فى السن، وهو

ما يثبت أنها عاشت ولمدة غير قصيرة بعد وفاة زوجها؛ لأنه كان من المعروف أن المناظر الملكية فى عصر «إخناتون» كانت تحتوى على كل أفراد العائلة. فدائمًا وأبدًا ما نجد الأب والأم والأطفال وهم يلهون ويلعبون مع بعضهم البعض فى جلسات عائلية دافئة، وهى مناظر لم تكرر كثيرًا فى عصور ما قبل أو بعد «إخناتون». وقد ظهر «إخناتون» فى تماثيله ومناظره المنحوتة بشكل مختلف عن الملوك السابقين، فالعين تأخذ شكل اللوزة، والرأس بيضاوية الشكل، والشفتان غليظتان، والصدر ضيق، والبطن ممتدة على شكل «كرش» ظاهر، والحوض عريض، والفخذان ممتلئتان. وفى المناظر المنحوتة ظهرت أصابعه رفيعة على شكل أرجل العنكبوت، وهو ما جعل بعض الأثريين والأطباء يجزمون بأنه كان يعانى من مرض خلقى أعطاه ذلك الشكل غير المعتاد. الأعراض تشبه إلى حد كبير مرضًا يطلق عليه Frölich's syndrome.

تفاصيل وجه إخناتون ـ متحف الأقصر

ويعتقد البعض الآخر أن كل هذه الصفات والقَسَمات الغير تقليدية ما هى إلا طريقة جديدة فى الفن الملكى أبتكرت لتواكب الثورة الدينية الجديدة القوية، وتتلخص الأفكار والنظريات المختلفة التى ناقشت وما زالت تناقش شكل «إخناتون» الجسمانى إلى نظريتين:

أولاهما: كان هذا بالفعل هو الشكل الحقيقى للملك؛ ولهذا السبب تم إظهار كل الشخصيات الأخرى فى المناظر من كهنة ونبلاء وعمال بنفس الطريقة والشكل، حتى لا يظهر الملك وكأنه مختلف.

ثانيتهما: كان هذا هو نوع جديد من الفن الملكى الذى أبتكر فى تل العمارنة، وهى ثورة فنية كما كانت ثورة «إخناتون» دينية وسياسية. والدليل أنها لم تكن تحاكى حقيقة شكل الملك هو أنه ليس من المعقول أو المنطقى أن كل شعب مصر تحول على مدار ١٧ عامًا وفى يوم وليلة لهذا الشكل ذى الرأس البيضاوية والعيون اللوزية. ولن نستطيع أن نجزم بالحقيقة إلا عند التعرف على المومياء الخاصة بالملك.

إخناتون يداعب إحدى بناته - المتحف المصرى - القاهرة

نفرتيتى التى جاء الجمال من أجلها - المتحف المصرى - القاهرة

الملكة «نفرتيتى»

هى زوجة الملك «إخناتون» الأولى والرئيسية، وأم بناته الست. اسمها الأصلى ينطق «نفر ـ إيتى، أى: الجميلة مقبلة» أو «التى من أجلها جاء الجمال». ثم أطلق عليها اسم «نفر ـ نفرو ـ آتون» بمعنى «جميلة هى شمائل الرب «آتون»، وكان هذا فى العام السادس من حكم زوجها. وقد أنجبت ابنتها الأولى «مريت ـ آتون» فى السنة الأولى من حكم «إخناتون»، ثم الثانية واسمها «ميكيت ـ آتون» فى عام ١٣٤٩ ق.م وقد توفيت مبكرًا فى العام الثانى عشر من حكم الملك، ثم ولدت الأميرة الثالثة «عنخ ـ إسن ـ با ـ آتون»، وهى التى سوف تتزوج الملك الشاب «توت ـ عنخ ـ آمون» فيما بعد، وتصبح ملكة مصر لمدة وجيزة. وتاريخها مثير للجدل، حيث أكد «سليم حسن» أن «إخناتون» تزوجها وهى ابنته، وفى العام السادس للحكم جاءت إلى الحياة البنت الرابعة لـ «نفرتيتى» و«إخناتون» وكان اسمها «نفر ـ نفرو ـ آتون ـ تا شيريت»، ثم البنت الخامسة «نفر ـ نفرو ـ رع» فى العام التاسع للحكم الآتونى، وأخيرًا وفى العام الحادى عشر وُلدت «ستبن ـ رع»، وكان هذا فى عام ١٣٣٩ ق.م.

إحدى بنات إخناتون ونفرتيتى وهى تتناول الطعام

ومعنى اسم هذه الأخيرة: «من اختيار «رع»، وهو ما يؤكد مرة آخرى أن «آتون» لم يكن الرب الأوحد المعبود فى تل العمارنة، والحقيقة، أنه لم يُعَبر ملك مصرى عن حبه واعتزازه بزوجته وبناته كما عبر «إخناتون»، فقد نعتَ زوجته «نفرتيتى» بأحلى الأوصاف مثل «حلاوة الحب» و«ذات المفاتن الجميلة»، و«سيدة الأرضين»، و«المحبوبة منه»، و«سيدة مصر العليا والسفلى»، و«مرهفة الكلم فى كل الأوقات»، و«الممتلكة للإبهار» و«المفضلة». ووصفها فى إحدى اللوحات الحجرية الموجودة على حدود تل العمارنة قائلا: «مليحة المحيا، بهيجة بتاجها ذى الريشتين، تلك التى إذا ما أصغى إليها الإنسان طُرب، سيدة الرشاقة، ذات الحب العظيم، تلك التى يسر «رب الأرضين صُنعها». وقد ظهرت معه فى لقطات نادرة وهى تقبله وهما يقفان معتليان عجلتهما الحربية.

رأس الملكة نفرتيتى الحجرى

رغم عدم اكتشاف مومياء الملكة «نفرتيتى» حتى الآن، رغم المحاولات المضنية من الأثريين، إلا أن النحات العبقرى «تحتمس» ترك لنا عملًا فنيًّا هو الأشهر من بين آلاف التماثيل التى أفرزتها الحضارة المصرية القديمة. نحت رأس «نفرتيتى» من الحجر الجيرى، وقد اكتشفتها البعثة الألمانية بقيادة «لودويج بروخاردت» فى يوم ٦ ديسمبر عام ١٩١٢م بتل العمارنة، وسافرت تلك القطعة الفنية الرائعة إلى ألمانيا فى عام ١٩١٣م، وتنقلت بين العديد من الأماكن والمتاحف لظروف مختلفة حتى استقرت عام ١٩٦٧م فى المتحف المصرى بمدينة «شارلو تنبرج ـ Charlottenburg»، ثم أخيرًا فى غرفتها الزجاجية الجديدة. والتمثال يضم الجزء العلوى من الصدر والرقبة والوجه، ثم التاج الكبير فى أعلى الرأس. وهو نحت لوجه الملكة، يبين لون بشرتها القمحى الذى يميل للبنى الفاتح اللون، المصرى الأصيل. الرقبة منحوتة بإتقان منقطع النظير، فهى مائلة بعض الشىء للأمام، وذلك يساعد على عملية الاتزان للقطعة، تظهر الرقبة منحوتة بطريقة محاكية للطبيعة، فهى رفيعة طويلة. العظمتان الأماميتان بارزتان بشكل إنسيابى بديع، يظهر ثنايا وحنايا الرقبة، وخصوصًا عند التقاء الجزء الأسفل للرقبة مع أعلى الصدر. كل هذه القسمات المصرية هى أكبر دليل على أصل تلك الملكة المصرى الخالص، ويعتبر هذا ردًّا على بزوغ نجم نظرية ضعيفة تقول بأن «نفرتيتى» كانت من أصل آسيوى أجنبى، ولكن سرعان ما أفل نجم تلك النظرية التى لا تعتمد على أسس أو إثباتات قوية، أو صحيحة. وتبدو الملكة وكأنها قد تجاوزت الثلاثين عامًا من العمر بقليل، العينان بأجفانهن منحوتتان وملونتان بالأبيض والأسود، جذابتان رغم غياب تفاصيل إنسان العين (الحدقة) من العين اليسرى، والتى لم تكن ـ على ما يبدو ـ موجودة فى الأصل،

ومن الممكن أن يكون السبب هنا عدم اكتمال التمثال، أو كونه منحوتًا يستعمل كنموذج، وليس للاستعمال الملكى؛ ولذلك وجد النحات «تحتمس» أن من اللياقة أن لا يكتمل التمثال، وإلا ما هو الفرق بينه وبين القطعة الفنية المكتملة، والتى سوف تضعها الملكة فى قصرها أو معبدها، ولكن كل هذه الشروح ما هى إلا نظريات لا ترقى إلى مستوى الحقيقة حتى الآن. وتتجلى عبقرية النحات هنا فى العين اليمنى، حيث نجد أن الجفن الأعلى يلامس جزءًا كبيرًا علويًا من إنسان العين (الحدقة) المصنوع من الكريستال الشفاف الملون، هذا التلامس أعطى الشعور بأن الملكة تنظر قليلًا إلى أسفل فى حياء ساحر، ولم يجد النحات أى حرج فى إظهار بعض التجاعيد الخفيفة جدًا تحت العين محاكيًا بذلك العمر الحقيقى للملكة وقت نحت الرأس لها، الأنف يأتى فى منتصف الوجه تمامًا مؤكدًا لتماثل النحت وتوازنه، وقد أخذ شكلًا طبيعيًا لأقصى درجة، مثله مثل الشفاه الملونة باللون الأحمر غير المبالغ فيه، ثم تنتهى الرأس بهذا الذقن الدال على أنوثة رقيقة. والجلد مشدود وغير مترهل، ناعم براق، صافٍ لامع، يجعلك تقف مشدوهًا بانبهار واحترام لهذه السيدة الجذابة. وهذا الشعور الخاص جدًا لا ينتابنى إلا أمام هذه الرأس وتمثال «تحتمس الثالث» بمتحف الأقصر، رغم الإبداعات الأخرى التى تجذبنى، ولكن ليس بهذا القدر. ومن قبل ذلك يجب أن نقدم الاحترامات والتقديرات إلى النحات «تحتمس» الذى أبدع هذا الفن. أما عن التاج الأزرق الكبير، فهو موضوع قائم بذاته تفرد له الصفحات والفصول. فهذا التاج هو حالة فريدة من نوعها فى التاريخ المصرى، لم ترتده ملكة أو أميرة مصرية من قبل «نفرتيتى» أو بعدها، ومن المحتمل أن تكون «نفرتيتى» هى التى ابتكرته. يتوسط التاج شريط ملون ذو أشكال مستطيلة ملونة بالألوان الحمراء والخضراء والصفراء، يخترقه خط يمتد من أعلى الجبهة إلى أعلى نقطة فى التاج. هذا الخط المستقيم كان فى الأصل مكان ثعبان الكوبرا المنحوت مع التاج، وهو لغرض حماية الملكة كما اعتقد المصريون القدماء، ولكن وللأسف دُمر هذا الثعبان وفُقد، ولم يتم العثور عليه حتى الآن. ومن الممكن القول إن هذه الرأس هى التى جعلت من متحف برلين متحفًا مشهورًا وليس العكس، ولكن هل سوف يأتى اليوم الذى سوف نرى الملكة فيه وهى تلامس الأرض المصرية مرة أخرى؟ لسان حال «نفرتيتى» يقول: هل سوف أمتع نظرى مرة آخرى بجمال النيل والوادى؟! هل سوف أحتضن الأرض الأم، وأتمتع بدفئها مرة أخرى ؟ كلنا نتمنى هذا ياجميلة المنيا.

وقد توقف ذكر الملكة نفرتيتى عند العام الثالث عشر من حكم «إخناتون»، وذلك من أجل أن تتمكن من حكم البلاد بألقاب وأسماء جديدة بعد وفاة زوجها إخناتون. ولكن لا توجد مومياء

لـ «نفرتيتى» حتى الآن. هناك رأس حجرى لها، يبين أنه كان لـ «نفرتيتى» ثقبان فى الأذن وليس ثقب واحد مخصصان للأقراط، ومن هنا، من الممكن أن يكون هذا باب جديد يفتح للكشف عن مومياء لأنثى بها نفس المواصفات، وقد تم الكشف عن الكثير من الآثار لـ «إخناتون» منذ بدايته عندما كان اسمه «أمونحوتب الرابع» منها آثار فى أرمنت، والكوم الأحمر، والأقصر، والكرنك، وكوم مدينة غراب، وإهناسيا المدينة، وهليوبوليس، ومنف، وقوص، وجبل محاجر السلسلة، بل وفى أقصى الجنوب عند صولب وسيسبى بجانب الشلال الثالث. ولكن ظلت اللوحات الحدودية التى نحتها وشيدها لتحديد حدود مدينة «آخت ـ آتون»، عاصمته، هى الأهم، حيث امتلأت بالنصوص التى يُقسم فيها أنه لن يتعدى تلك الحدود احترامًا للأراضى الأخرى التى هى تقع تحت إمرة كهنة الأرباب الأخرى. وفى هذا الموضوع جدل شديد، حيث إنه تم الكشف عن لوحة من هذه اللوحات فى تونا الجبل وهو ما يدعو للاستغراب، حيث إن هذه المنطقة كانت تقع فى الحيز الدينى والطقسى للرب «جحوتى» أو «تحوت» رب الحكمة والكلم والقمر. فكيف تأتى لـ «إخناتون» أن يتعدى حدوده، ويفرض الرب «آتون» على حملة لواء الرب «تحوت»؟! ثم يتوفى «إخناتون» فجأة وبدون أى دليل موثق على الكيفية، كما هو الحال فى حالة «نفرتيتى». توفى صاحب المحاولة القصيرة العمر لتغيير التاريخ الدينى ـ والسياسى ـ والفنى لمصر القديمة. توفى وترك علماء الآثار حتى يومنا هذا يتجادلون ويتناقشون، وهم ما بين مؤيد لفكره ولمحاولته التى اتسمت بالتسامح والرومانسية من وجهة نظر البعض وبين معترض عليه واصفًا إياه بالنشوز عن المألوف لأسباب شخصية، حيث يؤمن البعض أنه فعل كل هذا من أجل نفسه فقط، ورموه بجنون العظمة وتأليه النفس. الحقيقة تقبع فى المقبرة الملكية بالوادى الملكى بتل العمارنة، وأيضًا فى المقبرة رقم ٥٥ بوادى الملوك بالأقصر. الحقيقة سوف تظهر من دراسة رسائل العمارنة التى يبلغ عددها ٣٨٢، والتى تم اكتشافها فى عام ١٨٨٧م. الحقيقة تقبع فى دهاليز غموض التاريخ المصرى القديم.

الملك سمنخ ـ كا رع

تربعت هذه الشخصية على أعلى قائمة الخلط التاريخى. فمن المؤرخين من يقترح أن «سمنخ ـ كا ـ رع» كان ابنًا من أبناء «إخناتون»؛ ولذلك سبق «توت ـ عنخ ـ آمون» فى أحقيته لحكم البلاد. وعدد غير قليل يعتقد أن «سمنخ ـ كا ـ رع» ما هو إلا الملكة «نفرتيتى» بعد إضافة تلك التسمية إلى ألقابها حتى يتثنى لها حكم البلاد بعد وفاة زوجها «إخناتون»، ومن الأثريين من يعتقد أن «سمنخ

ـ كا ـ رع» كان قد تزوج من «مريت ـ آتون» ابنة «إخناتون» و«نفرتيتي» وأنجبا «ميريت ـ آتون ـ تا ـ شيريت»، والبعض الآخر يعتقد أن المقبرة رقم ٥٥ بوادى الملوك كانت له، وبقايا المومياء التى وجدت داخلها هى مومياء «إخناتون»، ولكن كل هذه الاقتراحات لم يتم التأكد منها حتى الآن، ولذلك تبقى هذه الشخصية الغامضة تداعب خيال العلماء وتدعوهم دائمًا إلى الاجتهاد للوصول إلى حقيقتها.

وجه قناع توت عنخ آمون الذهبى ـ المتحف المصرى

الملك توت ـ عنخ ـ آمون

وُلد هذا الملك المشهور فى تل العمارنة، ومن المحتمل أن تكون أمه هى الزوجة الجميلة «كيا»، والتى يكتنف أصلها الغموض، وقد كان اسمه فى البداية «توت ـ عنخ ـ آتون» ومعناه «الصورة الحية لآتون»، ولكن سرعان ما تغير هذا الاسم بعد وفاة «إخناتون» والحكم الآتونى بتل العمارنة إلى «توت ـ عنخ ـ آمون» مما يؤكد نهاية الديانة الآتونية نهاية مؤكدة وعودة ديانة

وكهنة «آمون» إلى المشهد الدينى والسياسى. وقد اعتلى «توت ـ عنخ ـ آمون» العرش عام ١٣٣٦ ق.م وهو فى حوالى الثامنة من عمره، ولكنه حكم لمدة تسع سنوات فقط. وقد تزوج مبكرًا من الأميرة «توت ـ عنخ ـ إسن ـ با ـ آتون» بنت «نفرتيتى» و«إخناتون». والتى تغير اسمها خلال حكم زوجها إلى «عنخ ـ إسن ـ آمون». وليس من المعروف حتى الآن إذا ما كانت هذه التغيرات الاسمية واللقبية والدينية كانت نتيجة قرارات الملك وزوجته، أم كانت نتيجة لتحكم كهنة «آمون» فى مقاليد الأمور بعد استعادتها من كهنة «آتون» مستغلين فى ذلك صغر سن الملك والملكة؟

قناع توت الذهبى المبهر ـ المتحف المصرى ـ القاهرة

لم يكن الملك الشاب «توت ـ عنخ ـ آمون» من الملوك المهمين على خريطة مصر القديمة حتى تم اكتشاف «هاورد كارتر» الإنجليزى لمقبرته ذات الأربع حجرات فى عام ١٩٢٢ م بوادى الملوك بالبر الغربى بمدينة الأقصر. وقد وُجدت آلاف القطع الفنية، والأثاث الجنائزى، والعجلات

الحربية والتوابيت، والآلات الموسيقية، والأسلحة داخل مقبرته فى حالة ممتازة، ورغم أنها لم تكن المقبرة الوحيدة التى اكتشفت بكل محتوياتها، فهناك مقبرة «تويا» و«يويا»، والد ووالدة الملكة «تى»، إلا أن مقبرة «توت ـ عنخ ـ آمون» طغت بشهرتها وبقطعها الفنية الفريدة مثل التوابيت الذهبية والقناع الذهبى الذى لا مثيل له فى أية حضارة أخرى، وهو مصنوع من الذهب واللازورد والكوارتز والأوبسيدون (حجر شبه كريم) والفيروز والزجاج الملون.

ويصل ارتفاع القناع الذهبى والذى كان يغطى رأس ووجه مومياء الملك داخل توابيته الأربعة إلى ٥٤ سم. ومن القطع الفنية المبهرة أيضًا كرسى العرش الذى يظهر الملك وهو جالس مع زوجته الواقفة بجانبه فى جلسة شاعرية لا تنقصها الرقة والحب. و الملاحظ فى هذا المنظر المطروق والمصنوع من الذهب والفضة والكورنيليان الأحمر (حجر شبه كريم)، أن قرص الشمس «آتون» بأشعته المنبثقة تجاه الملكة والملك يعتلى المنظر الموجود على ظهر الكرسى. وهذا يعنى أنه كان قد صُنع للملك فى وقت «إخناتون» ولما تُوفى «توت ـ عنخ ـ آمون» وضع هذا الكرسى فى مقبرته بدون حرج من تغيير اسم الملك وديانته من الديانة الآتونية إلى الديانة الآمونية. وفى آخر المسندين يوجد رمزان للحماية على شكل ثعبانين للكوبرا، ولكن إذا نظرت مرة أخرى سوف تكتشف أن رأس ثعبان الكوبرا هى نفسها رأس لطائر أبى منجل (أيبس) وهو الطائر المقدس للرب «جحوت» رب القمر والكلم والحكمة والشفاء، ولكن هذا يحدث فقط إذا نظرت إلى الرأس موجهًا بصرك من جهة اليمين متوجهًا إلى الناحية اليسرى، وهذه الحيلة الفنية الشديدة التقنية لم تُكرر.

منظر للجزء الخلفى من غطاء الرأس «نيمس» للقناع الذهبى لتوت عنخ آمون

والمومياء فى حالة مزرية تفتقد لعظام وأعضاء نتيجة المعاملة البدائية السيئة التى افتقرت إلى الخبرة، والتى عاملها بها المكتشفون والعاملون على فك لفائفها مثل «كارتر»، والطبيب «دوجلاس ديرى» فى عام ١٩٢٥م.

ووفاة «توت ـ عنخ ـ آمون» المفاجئة جعلت الكثير من الأثريين يشُكون فى أنه قتل، وهذا مخالف لما يعتقده فريق آخر من أنه وقع من فوق عجلته الحربية وجرحت ركبته وتلوث الجرح مما أدى إلى وفاته!

أول عملية تشريح للمومياء كانت على يد الدكتور «دوجلاس ديرى» عام ١٩٢٥م الذى كتب يقول: «على الوجنة اليسرى .. يوجد انخفاض دائرى، حول محيط الجزء المنخفض فى منطقة الأحرف يظهرالجلد غير ملون»، وهى أحرف بارزة كما قال «ديرى»، ولكنه لم يستطع أن يفسر أو يشرح، أو حتى يؤكد سبب الوفاة. ومن المحتمل أن يكون «ديرى» قد دمر الكثير من اللفائف وبعض أجزاء الجسم وهو يُشَرِح الجسد؛ لأن الإمكانيات العلمية فى ذلك الوقت وعلم التحنيط كانت محدودة لدى هذا العالم، والذى من المحتمل أيضًا أن يكون قد تعامل مع المومياء ذات الـ ٥ أقدام و٦ بوصات ارتفاع بطريقة غير حكيمة وبتصرفات غير مسئولة، ثم جاء البروفيسور «هاريسون» الذى أجرى بعض الاختبارات مستخدمًا أشعة x على المومياء عام ١٩٦٨م، ولكن صورة للجمجمة أكدت وجود قطعة من العظم المكسور داخل الجمجمة، وقد جنح بعض الأثريين لتفسير وجود تلك العظمة المكسورة على أنها نتيجة ضربة تلقاها الملك أدت إلى كسر وتفتيت جزء من الجمجمة، الأمر الذى أودى بحياته. وبعد ٨٣ عامًا من اكتشاف المقبرة وفتحها ترك لنا الملك مقبرته على يد بعض المسئولين عن الآثار، وحين نقلوا المومياء إلى عربة بالقرب من المقبرة رقم ٦٢، مقبرة الملك بوادى الملوك (أو ببان الملوك كما كان يُطلق عليها فى الماضى). هذه العربة كانت مجهزة بجهاز «سى ـ تى سكان CT- Scan» من صنع وإهداء الألمان، وأدخلوا المومياء فيه؛ ليأخذوا له الصور المتوالية المقطعية، والتى تظهر كل طبقة من طبقات المومياء بدقة متناهية. وبالتالى تصبح الصورة منقحة دقيقة لما كان عليه شكل «توت ـ عنخ ـ آمون» خارجيًا وداخليًا من كل زوايا جسده مستخدمين طريقة الأبعاد الثلاثية 3D. وبالفعل أخذ الجهاز الألمانى ألف وسبعمائة صورة للجثمان. وكان المسئولون فى سباق مع الزمن؛ لأنه ليس فى مصلحة المومياء أن تتعرض للأجواء الخارجية لمدة طويلة؛ لأن

العوامل الطبيعية وغيرها من المؤثرات التى تتعرض لها وهى خارج التابوت سوف تؤثر عليها بالسلب. ومن العجيب أن الجهاز المتطور قد عزف عن العمل لمدة زمنية حتى استطاع العمال المصريون الأكفاء التعامل مع الموقف. وبعد دراسة المومياء وصور الأشعة قرر فريق العمل أن «توت ـ عنخ ـ آمون» لم يُقتل، ولكنه أصيب فى عظمة إحدى رجليه مما أدى إلى تلوث الجرح وهذا ما أدى إلى وفاته. واقترحوا أنه من الممكن أن يكون قد وقع من فوق عجلته الحربية ليصاب بهذا الجرح القاتل! ورسم المتخصصون الذين اشتركوا فى هذه الدراسة المثيرة صورة للملك الذهبى الشاب وكانت المفاجأة أنهم قالوا إن لونه كان قمحيًّا ولون عينيه كان بنيًّا فاتحًا يميل إلى اللون العسلى المائل للاصفرار. وهذا ما أثار العديد من المؤمنين بأن «توت ـ عنخ ـ آمون» كان يجرى فى عروقه الدم النوبى، وهو ما يظهر من العديد من التماثيل السمراء العديدة للملك، وبروز الفك الأعلى الواضح فى دراسة الجمجمة ... وقالت الدراسة أيضًا بأن الملك تُوفى وهو فى التاسعة عشرة من عمره، وكان هذا الاستنتاج من جراء دراسة أثبتت وجود ضرس العقل. ومن المثير أن الدراسة لم تكشف عن أى تجويف فى الأسنان. بيد أنه لم يكن مصابًا بأى تسوس أو مشاكل فى اللثة، ولكن الحنك كان به شق أو صدع صغير. والعمود الفقرى به التواء وتقوس، ويعتقد العلماء أن هذا كان نتيجة أخطاء فى عملية التحنيط، وأما عن القفص الصدرى والذى وُجد مشوها، تبين أن هناك عظمة من الصدر غير موجودة والجزء الأمامى من القفص بأضلاعه مقطوع ومفصول. ورغم كل هذه الدراسات المتقدمة إلا أن هناك رأيًا مخالفًا يقول بأن وقوع الملك من على عجلته الحربية، وعدم مساعدة الأطباء والممرضين، والجنود والنبلاء وحملة الألوية، والجنود المصاحبين له فى الحال نظرية غير مقبولة. وتوجد بعض الآراء التى تقترح أن الملك الذهبى قد قتل على يد الكاهن «آى» والذى لم يكن له حق شرعى فى وراثة العرش، وقد حاول الزواج من أرملة الملك، ورفضت الملكة الحزينة هذه الزيجة باعثة برسائل إلى ملك الحيثيين (وهو ملك أعداء مصر مما يدل على رفضها للزواج من «آى» الكاهن الأعلى لعلمها بضلوعه فى قتل زوجها) مترجية إياه أن يبعث إليها بابنه لكى تتزوجه وتجعله ملكًا على عرش مصر. وقد وصلتنا الرسالة الحزينة وهى تلخص حالة الرعب والحزن والغضب، بل والرفض التى كانت عليه الملكة الأرملة. تقول الرسالة: «مات زوجى، ليس لى ابن، وعلمت أن لديك كثيرًا من الأبناء الذكور، لو أعطيتنى أحد أبنائك سأجعله زوجًا لى، لن آخذ أبدًا واحدًا من خدمى وأجعله زوجى ... أنا خائفة»، وقد أُرخت هذه الرسالة بعام ١٣٢٧ ق.م، وكان مصدرها

هو وثيقة حياة الملك «سبيللوليوما» ملك الحيثيين. ولما تلقى ملك الحيثيين الرسالة لم يطمئن لكلمات الملكة المكلومة. ولم يثق فى طلبها ظنًّا منه أنها خدعة أو مؤامرة للقبض على ابنه فى مصر، فأوكل لأحد رجال بلاطه بالبحث فى الأمر قائلًا له: «توجه إلى مصر، وعُد إلىّ بالحقيقة». ومن المهم أن نذكر أن القصة الحيثية ذكرت اسم الملكة الحزينة على أنها «داها مانزو» ومعناها «زوجة الملك». ويعتقد فريق آخر من المؤرخين أنه من الممكن أن تكون هذه الرسالة قد بُعثت من «نفرتيتى» وليست من «توت ـ عنخ ـ إسن ـ با ـ آمون». وبالفعل بعث ملك الحيثيين بابنه الذى تم اغتياله عند دخوله الحدود المصرية مما أدى إلى مشكلة سياسية كبيرة بين المملكتين.

وفى النهاية، نقول إن وجود قشرة متجلطة على وجنة مومياء «توت ـ عنخ ـ آمون» اليسرى، ووجود أكثر من تمثال يحاكى الواقع بوجود فتحة فى الجانب الأيسر للوجه، بالاشتراك مع كل ما سبق وذُكر لهو أكبر دليل على أن «توت ـ عنخ ـ آمون» لم يمت موتة طبيعية أو عبر جرح فى الركبة. الاحتمال الأكبر أنه تم اغتياله. وبالفعل اعتلى «آى» العرش لسنوات قليلة. وأفسح موت «آى» الطريق إلى آخر ملوك الأسرة الثامنة عشرة.

أحد توابيت الملك توت

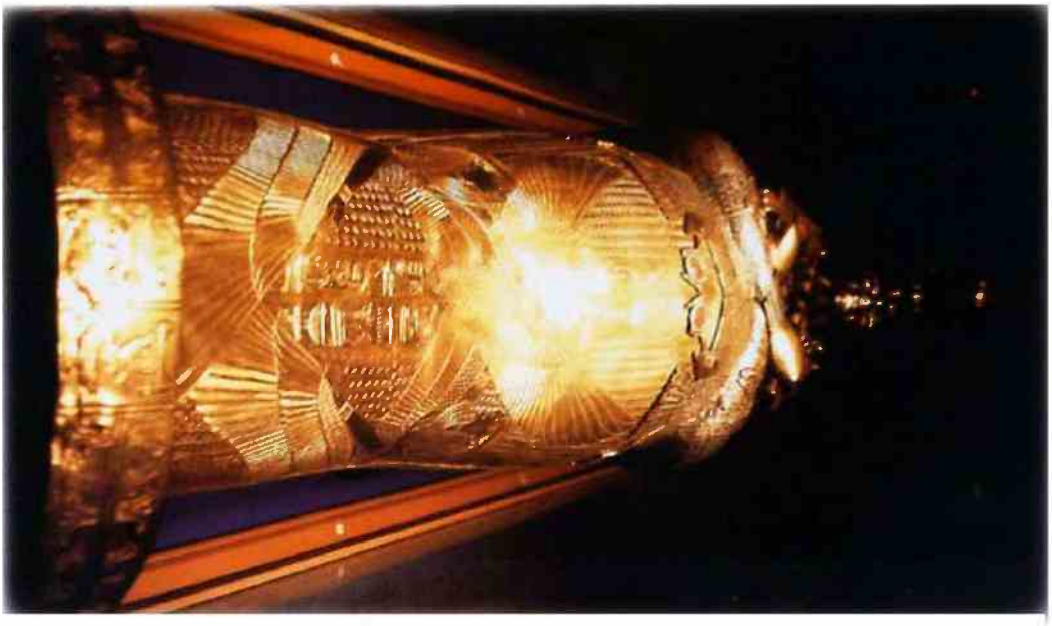

تابوت الملك توت عنخ آمون ـ المتحف المصرى

تفاصيل لتابوت الملك توت

تفاصيل لتابوت الملك نوت

تمثال خشبى يحاكى الواقع الأليم
الذى آل إليه الملك الشاب ـ
المتحف المصرى

التسمية الصحيحة لهذا الملك هى «حر ـ إم ـ حب»، ولكنه اشتهر وسط أجواء كتبة التاريخ باسم «حور محب». وهو بحق حالة فريدة فى تاريخ الأسرات المصرية القديمة. فهو لم يكن له الحق الشرعى فى اعتلاء العرش بعد موت الملك «آى» (الذى حكم حوالى ٤ سنوات فقط) وذلك لغياب الدم الملكى عن عروقه، ولكن قصة نجاح «حور محب» هى خليط بين اجتهاده وطموحه العالى والظروف السياسية للبلاد معًا، وقد حكم حوالى ٢٨ عامًا، وقد تدرج فى المناصب حتى وصل إلى وظيفة مهمة ألا وهى الكاتب الملكى للشئون العسكرية، وبعد أن كسب ثقة البلاط الملكى نُصب كبير أمناء الملك، ثم أصبح القائد الأعلى للجيوش المصرية، وهو بالطبع أعلى منصب وأهمها بعد الملك الحاكم. ونظرًا لتفوقه وقوة شخصيته اختير ليكون حاكمًا للبلاد بعد موت الملك «آى». وبدأ حكمه فى عام ١٣٢٣ ق.م. وهكذا أصبح «حور محب»، ابن الشعب، ابن العامة هو ملك مصر العليا والدنيا. وكما احتاجت مصر القديمة إلى الملك المغوار «تحتمس الثالث» ليستعيد سمعة مصر العسكرية القوية وسط الممالك المحيطة بها بعد فترة هدوء حكم الملكة «حتشبسوت»، كانت مصر محتاجة إلى شخص جرىء مثل «حور محب» لإعادة الأمور إلى نصابها ووقف تلك الاضطرابات السياسية والتغيرات التى سبقت عهده. ففترة العمارنة كانت فترة سادت فيها شخصيات مثيرة للجدل اتخذت قرارات أكثر جدلًا وخلطًا، فكان على «حور محب» أن يستعيد دفة الأمور ويوجهها إلى الاتجاه الذى رآه هو مناسبًا. فقام بتغيير بعض القوانين التى وضعت فى فترة العمارنة ووجدها غير مناسبة، أعاد هيكلة الجيش، وساعد بقراراته فى حل مركزية الإدارات الحكومية، وسن العديد من التشريعات المنظمة لعلاقة الناس بالعدالة والعقوبات لمن يخترق هذه القوانين، وينتهك حقوق الآخرين، وعالج أيضًا مشكلة الابتزاز والرشوة والاستيلاء على حقوق الغير. وقام بتشييد العديد من الأصرح فى معبد الكرنك، وكان هذا متزامنًا مع تدميره للمعابد الآتونية فى طيبة. معلنًا وفاة التجربة الآتونية، ولم يبق فى تل العمارنة الكثير من البنايات، وكانت الخراطيش الملكية لـ«إخناتون» مستهدفة من قبل كهنة «آمون»، فقد كان هذا العصر هو فرصتهم الذهبية للإجهاز على «آتون» ومعابده، وقد وصلت العملية الانتقامية إلى حد تفكيك معبد «آتون». وقد استمر هذا الاستهداف فى فترة الرعامسة المبكرة أيضًا. وقد قاد «حور محب» الملك والقائد العسكرى للبلاد الكثير من المعارك فى الجنوب وفى آسيا أيضًا؛ لاستعادة النظام هناك بعد فترة العمارنه التى ركزت

مجهوداتها فى بناء عاصمة جديدة ونظام دينى جديد. وقد ظهرت إنجازات «حور محب» الحربية فى المناظر التى نحتها له النحات المصرى القدير على جدران مقبرته بسقارة، حيث ظهر الملك وأمامه الأسرى من الجنسيات المختلفة. (ونلاحظ فى المناظر أنه قد تم إضافة ثعبان الكوبرا الحامى فى منتصف جبهة الملك، وهو ما يثبت أن هذه المناظر كانت قد نُحتت عندما كان «حور محب» القائد الأعلى واللواء الأقوى فى الجيش المصرى وقبل أن يصبح ملكًا على البلاد؛ لأن ثعبان الكوبرا الحامى هو من الرموز الملكية). ولقد نُحتت له مقبرة فخمة فى وادى الملوك بالأقصر تميزت مناظرها ونصوصها بالوضوح والعمق، وتم الكشف بداخلها على تابوت منحوت من الجرانيت الوردى الأسوانى، ولكن مومياء الملك المحنطة لم تكن به. وهى مختفية حتى الآن.

وبوفاة «حور محب» عام ١٢٩٥ ق.م أُسدل الستار على ملك من أهم ملوك الأسرات، نجح فى صعود سلم المجد من موظف عادى إلى ملك متوج، رحلة ناجحة مليئة بالطموحات والإنجازات. وبنهاية فترة تميزت بالتقويم وإعادة الهيكلة وسن القوانين الملزمة انتهت أيضًا الأسرة الثامنة عشرة، أكثر الأسرات إثارة للجدل. كثرت فيها النظريات التاريخية، وكانت مكتظة بالشخصيات المتباينة منها القوى والضعيف، والمجدد والمهرطق، والمنتصر والمسالم، ومنها النساء المؤثرات بالإيجاب فى تاريخ مصر.

لم ولن تأتى أسرة بكل هذه المتناقضات مثل الأسرة الثامنة عشرة. هى بحق أسرة وفترة لا نظير لها.

❁❁❁

الأسرة التاسعة عشرة (١٢٩٣ - ١٠٨٩ ق.م)

الملك رمسيس الأول

الاسم الأصلى له «رع ـ مس ـ سو» أى «رع هو الذى صنعه» وهو اسم لأحد عشر ملكًا حكموا مصر. وقد تم اختياره ليكون الوريث الشرعى للعرش عن طريق الملك «حور محب» والذى تشابهت حياته وإنجازاته معه إلا فى مدة الحكم، حيث حكم «رمسيس الأول» لمدة وجيزة

جدًّا لم تتعد السنتين (١٢٩٥ - ١٢٩٤ ق.م)، وقد كانت بداية «رمسيس الأول» فى سلك الجندية، حيث ارتقى إلى قائد عام للجيوش المصرية، وأثبت جدارته حتى وصل إلى حكم البلاد. ورغم قصر فترة حكمه إلا أن إنجازاته الإنشائية كانت على أعلى مستوى. وهو أول ملوك هذه الأسرة الذين تميزوا بالشخصية العسكرية؛ ولذلك كثرت حروبهم، وأيضًا تميزوا بالحنكة والخبرة فى إدارة الأمور، فخطوا معاهدات السلام بشروطها الجازمة الحاسمة. ومقبرة الملك «رمسيس الأول» فى وادى الملوك تتميز بألوانها الباهرة والتابوت الكبير رغم صغر حجم المقبرة نفسها. وقد أنجبت له زوجته «ساترا» ابنًا اسمه «سيتى الأول» الذى سوف يصبح الملك القادم. وقد أشركه والده فى حكم البلاد، فأصبح من أقوى وأشهر ملوك مصر قاطبة.

الملك سيتى الأول

حكم الملك «من ـ ماعت ـ رع سيتى الأول» لمدة ١٥ عامًا، وهو ابن ملك ووالد ملك «رمسيس الثانى». عاش لمدة خمسين عامًا، وتميز حكمه بالإنجازات الفنية والمعمارية والعسكرية. فقد أضاف العديد من النصوص الهيروغليفية المميزة فى بهو الأعمدة بمعبد الكرنك، وأضاف مناظر له على الجدران شارحًا حروبه العديدة ضد الحيثيين والبدو وأهالى الجنوب، وقد عقد هدنة مع العدو التقليدى لمصر ألا وهى مملكة الحيثيين. ولهذا الملك إنشاءات هى الأجمل والأبدع فى تاريخ المعمار والفن. فنظرة واحدة إلى معبده بأبيدوس تؤكد لنا أن نحاتيه كانوا على مستوى راق من الموهبة، فالمقاصير منحوتة بدقة، والمناظر الدينية ملونة بحرفية عالية لم يصل إليها أى فنان آخر. ونظرة أخرى لمقبرته بوادى الملوك بعمقها المميز ودهاليزها المزخرفة وجدرانها المملوءة بالمناظر الدينية التى توضح ولاء الملك للأرباب المقدسة، ثم أخيرًا سقف غرفة الدفن التى تعتبر الأشهر فى تاريخ الفن والفلك المصرى القديم. فعلى خلفية زرقاء زرقة السماء رسم الفنان عددًا من النجوم والأجرام السماوية والأبراج الفلكية مثل نجمة الشعرى اليمانية والمجموعة النجمية المسماة بالعملاق أو الجبار، ويطلق عليها باللغة الأجنبية «أورين ـ Orion» وبرج الأسد وغيرها. ومن اسم الملك يظهر أن الرب «ست» قد عاد ليعتلى قائمة الأرباب المبجلين بعد فترة اختفاء لكهنته. وقد جمع «سيتى الأول» بينه وبين الرب الأسطورى المنافس «أوزوريس»، وهذا الجمع يعتبر إنجازًا لشعوره بالغيرة. وحالة الوئام الدينى هذه كانت الوازع وراء اتباع ابنه «رمسيس الثانى» لنفس النهج عندما جمع بين «ست» و«حورس» الغريمين فى منظر واحد على جدران المعبد

الثانى بأبى سُمبل. ورغم أن مقبرة «سيتى الأول» قد تم الكشف عنها فى عام ١٨١٧م على يد الإيطالى المغامر «بلزونى» إلا أن جثمان الملك كان مسجى فى خبيئة الدير البحرى.

الملك رمسيس الثانى

من بين أحد عشر ملكًا حملوا هذا الاسم كان حظ «رمسيس الثانى» هو الأوفر بين أوساط المؤرخين وكتبة التاريخ. وتقول إحدى خراطيشه الملكية: «أوسر ماعت» أى القوى فى الحق هو رع، و«ستبن رع» أى مختار من رع. وقد حكم من ١٢٧٩ إلى ١٢١٢ق.م أى حوالى ٦٧ عامًا، وهو بهذا يُعتبر ثانى ملك حكم فى عهد الأسرات المصرية القديمة من حيث عدد سنين الحكم (الأول هو الملك بيبى الثانى، حيث اعتلى العرش وهو فى السادسة، وتوفى وهو يناهز المائة عام من العمر، أى حكم لمدة ٩٤ عامًا تقريبًا). ومنذ نعومة أظافره كان والده الملك «سيتى الأول» يجهزه ليكون ملكًا مغوارًا شجاعًا لا يخاف من الوغى، حيث خلع عليه لقب قائد جيش. وقد كان «رمسيس الثانى» بناءً نشيطًا، فقد أمر ببناء العديد من المعابد والمقاصير، والتى عاشت عبر صفحات الزمن حتى وصلت إلينا فى حالة جيدة جدًّا من الحفظ. وخير دليل على هذا آثاره فى مدينة «تانيس» بالشرقية، والتى حكم منها كعاصمة للبلاد، وآثاره فى معبد الكرنك وخصوصًا فى بهو الأساطين والذى احتوى على ١٣٤ عمودًا كان قد شرع فى بنائها والده الملك «سيتى الأول»، أما عن معبد الرمسيوم فقد ترك لنا فيه من المناظر الدينية والعسكرية الكثير، ولكن أكثر ما ميز هذا المعبد الضخم هو تمثال الملك فيه، والذى كان يزن قرابة الألف طن. وقد نُحت عليه لقب من ألقاب الملك ألا وهو «حكا ـ حكو» أى حاكم الحكام.

وأضاف صرحًا بفناء لمعبد الأقصر، وتوج مجهوداته فيه بأنه أضاف ستة تماثيل عملاقة أمام الصرح، ومسلتين من الجرانيت الوردى الأسوانى يكتنفان المدخل الرئيس للمعبد. المسلة الموجودة الآن مسلة رمسيس الثانى بميدان الكونكورد تقف شامخة على يسار الداخل إلى المعبد، أما تلك التى كانت على يمين الداخل فهى فى باريس الآن، تتوسط ميدان الكونكورد. وقد بعث بها محمد على إلى فرنسا كهدية فى عام ١٨١٩م. وقد حرص على مشاهدتها فى الميدان الفرنسى عند تشييدها حوالى ٢٠٠ ألف من الباريسيين. وقد أكمل الملك «رمسيس الثانى» أعمال والده، وأضاف عليها فى منطقة «العرابة المدفونة» بأبيدوس. ومن أهم ما ترك لنا هذا الملك من آثار أفادت المؤرخين هى قائمة الملوك بمعبده الخاص بأبيدوس. هذا الأثر يعتبر من أهم الآثار التى ساعدت الأثريين على إلقاء الضوء على أسماء الملوك وألقابهم (وهذا هو التقليد الذى اتبعه «رمسيس الثانى» محتذيًا حذو والده، حيث ترك

رمسيس الثانى يتوسط الأرباب الأسطورية ـ حديقة المتحف المصرى بالقاهرة

لنا «سيتى الأول» فى معبده بأبيدوس قائمة مكونة من ٧٦ اسمًا لملوك مصر الذين اعتلوا عرشها من قبله) . قائمة معبد أبيدوس لـ «رمسيس الثانى» هى عبارة عن حائط كان فى الأصل مُشيدًا فى معبد «رمسيس الثانى» بأبيدوس، ولكنها الآن تعرض فى المتحف البريطانى بلندن بعد أن استحوذ عليها الإنجليز فى الماضى. وقد تم نقش أسماء عدد من الملوك على الحائط، بجانب ألقابهم الملكية. الحائط المنقور عليه الأسماء والألقاب المصرية القديمة يصل ارتفاعه إلى ١,٣٨ مترًا، وهو من الحجر الجيرى الأبيض الذى يميل الآن إلى الاصفرار. الأسماء الملكية المنحوتة داخل أشكال بيضاوية «خراطيش» ملونة بألوان حمراء وصفراء وسوداء، وتوجد فى أعلى القائمة أسماء ملوك الأسرة الثامنة عشرة أيضًا. فمثلًا فى الصف الثانى من أعلى نجد الخرطوش الخامس من اليمين هو الاسم الملكى «من ـ خبرو ـ رع» وهو الاسم الثانى للملك الشهير «تحتمس الرابع». ثم يليه خرطوش «نب ـ ماعت ـ رع» وهو الاسم الثانى للملك «أمونحوتب الثالث»، وهو صاحب معبد الأقصر الأصلى (والذى أضاف إليه رمسيس الثانى الكثير من الإنشاءات) وتمثالى ممنون، وقد أظهرت هذه القائمة المهمة فى أسفلها أسماء الملك «رمسيس الثانى» بنوعيها. اسمه عند ولادته، والاسم واللقب الذى خُلع عليه عند اعتلائه للعرش. ثم هناك معبده بالنوبة، والذى يسمى «وادى السبوع» وذلك لوجود عدد من تماثيل أبى الهول على شكل جسد أسدى (أو سبع) ورأس آدمى، وهو رأس الملك «رمسيس الثانى». ويضاف إلى قائمة معابد «رمسيس الثانى» الطويلة معبد ببيت الوالى بأسوان ومعابده بالدلتا والجيزة. وفى ميت رهينة بالجيزة تم الكشف عن تمثالين عملاقين للملك فى عام ١٨٨٨م. أحدهما ما زال مُلقى على ظهره داخل مبنى حديث يحميه من عوامل التعرية ويدخله آلاف الزوار يوميًا لمشاهدته، والآخر تم نقله فى عام ١٩٥٤م من ميت رهينة إلى ميدان باب الحديد، فأُطلق على الميدان «ميدان رمسيس». وهو تمثال من صخر الجرانيت الوردى الذى تم قطعه من محاجر أسوان، ثم تم نحته ثم نقله حيث تبوأ مكانة فى معبد الملك بميت رهينة. يتكون الجرانيت الخاص بالتمثال من معادن الفلسبار البوتاسى والميكا والكوارتز، أما عن صخر الجرانيت نفسه فيتصف بخشونة بلوّراته. ويتميز التمثال ـ مثل كل تماثيل «رمسيس الثانى» ـ بالفخامة والضخامة والقوى العضلية. أما عن قسمات الوجه فهى محددة ومنمقة، تُظهر ابتسامة ملكية خفيفة وعينين واسعتين. وتظهر جليًا الذقن المستعارة التى كان يرتديها ملوك مصر القديمة كرمز ملكى. ويرتدى الملك تاجى مصر العليا والسفلى. ويغطى رأسه بغطاء الرأس الملكى المسمى «نمس»، وهو تلك القطعة من القماش التى يتدلى منها قطعتان فتغطى جزءًا من كتفى الملك وجانبى صدره. ويرتدى الملك تنورة الـ «شندجيت». ويتقدم التمثال بخطى واثقة برجله اليسرى، وذلك لأنها كانت أول خطوة عسكرية للمحاربين فى جيوش مصر القديمة، وقد اتبعت كل جيوش العالم هذه العادة العسكرية، حيث نرى فى كل الاستعراضات العسكرية

والمارشات الحربية قائد الفرقة وهو يصيح «شمال ـ يمين»، ونلاحظ أن النحات المصرى القديم لم يترك أية فجوة أو ثقب أو فتحة فى التمثال فجعله كتلة واحدة متماسكة، حتى الكفين ملأهما بخاتمين يحملهما الملك. وبالتالى ساعد هذا على بقاء التمثال فى حالة جيدة بعيدًا عن تدمير العوامل الطبيعية والرطوبة التى من الممكن أن تجد طريقها إلى داخل التمثال بنسبة أكبر إذا كان به عدد من الفتحات والتى تُعَد بمثابة البوابات التى يدخل منها بعض عوامل الدمار للتمثال. ويصل ارتفاع التمثال إلى ١١,٣٦ مترًا، ووزنه إلى ٨٣ طنًا. وقد تم ترجمة النص الهيروغليفى المنحوت على التمثال، يقول النص: «حورس، الثور القوى، محب العدالة، ملك مصر العليا والسفلى، القوى بعد عدالة رع، والمختار منه، ابن الشمس». بدأت عملية النقل الأولى فى عام ١٩٥٤م عندما قام «عبد اللطيف البغدادي» قائد الجناح وأحد أفراد الضباط الأحرار الذين قاموا بثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢م بقيادة عملية النقل بعد تقطيع التمثال إلى ٦ قطع ووضعها فى وضع نائم على ناقلة دبابات والتى سارت فى شوارع الجيزة مستخدمة كوبرى قصر النيل (وهو أول كوبرى من نوعه للمرور أنشئ على النيل من منبعه فى أدغال إفريقيا إلى مصبه، وقد تم افتتاحه للمرور يوم ١٠ فبراير من عام ١٨٧٢م، ثم تقرر هدمه لإنشاء كوبرى آخر محله، وافتتحه الملك فؤاد فى منتصف عام ١٩٣٣م، وهو الكوبرى الحالى الذى يصل بين برى نهر النيل). وقبل أن يحتل هذا التمثال العملاق مكانه فى ميدان باب الحديد كان هناك تمثال يُعتبر علامة من علامات فن النحت المصرى المعاصر وأشهرها على الإطلاق ألا وهو تمثال «نهضة مصر»، والذى تم نقله إلى منطقته القابع بها الآن أمام حديقة الحيوان بالجيزة أمام كوبرى الجامعة الذى لم يكن قد شُيد بعد إبان أيام النقل. وكان الأستاذ «أحمد عثمان» ـ الأستاذ بكلية الفنون الجميلة فى ذلك الوقت .. والذى أطلقت عليه الصحافة فى تلك الأيام لقب «المجبراتى»، هو ذلك المصرى الفذ الذى جمع القطع المختلفة للتمثال وأقامه مرة أخرى بعد ترميمه وتقويته، بل إنه أعاد بناء بعض الأجزاء التى كانت غير موجودة فى التمثال لغيابها عند اكتشافه، كجزء من الأرجل مثلًا. واستدعت هذه العملية الترميمية من المختصين أن يذهبوا إلى مدينة الأقصر لزيارة ومشاهدة ودراسة تماثيل «رمسيس الثانى» الواقفة بين الأعمدة الفرعونية فى الفناء الأول لمعبد الأقصر خلف الصرح الكبير. وقاموا بأخذ مقاسات التماثيل حتى يساعدهم هذا فى التعامل مع التمثال بطل قصتنا هنا.

وبعد ٥٢ عامًا من هذا الحدث المهم الذى مكن «رمسيس الثانى» من تبوء مكانه فى وسط ميدان باب الحديد، قرر المسئولون أن يتم نقله من ميدان رمسيس إلى المكان الذى سوف يبنى فيه المتحف المصرى الكبير بميدان الرماية بالجيزة، ولكن هذه المرة تم نقله واقفًا فى عربة صُنعت خصيصًا للملك المشهور حيث تم عمل كساحتين (عربة أمامية وأخرى خلفية يحملهما عدد كبير

من الإطارات العريضة، المصنوعة من الكاوتشوك الشديد الاحتمال يتوسطهما التمثال فى الوضع منتصبًا). وبدأت عملية النقل فى تمام الواحدة صباحًا ـ بعد منتصف الليل ـ فى يوم ٢٥ أغسطس ٢٠٠٦م وسط وداع جمهور غفير له. وبدأ التحرك بسرعة ٥ كيلومترات فى الساعة. وقد اضطر المسئولون إلى فك جزء من كوبرى المشاة بميدان رمسيس؛ لكى لا يصطدم به التمثال الطويل القامة، ثم تم إعادة تركيب الجزء مرة أخرى. ووصل التمثال فى تمام الساعة الحادية عشرة من صباح يوم الجمعة الموافق ٢٥ أغسطس واستقبله المسئولون بفرحة غامرة. ورغم تأرجح المؤرخين بين مادح لـ«رمسيس الثانى» وواصف له بالأنانية وحب الذات، إلا أننا لا نستطيع أن نغفل إنجازاته وحياته المليئة بالطرائف والإثارة التى ارتبطت به حتى بعد مئات وآلاف السنين من وفاته. وتعتبر معركة «قادش» من أهم الإنجازات العسكرية له، وقد بدأت هذه المعركة الحامية الوطيس والطويلة الأمد فى العام الخامس من حكم الملك، وكان فى ذلك الوقت يقود الجيوش الحيثية ضد المصريين ملك قوى البأس يُدعى «مواتاليس». ورغم استمرار هذه المعركة حتى العام الواحد والعشرين من حكم «رمسيس الثانى» ووفاة الملك الحيثى وتربع الملك «حاتوسيل الثالث» على عرش مملكة خيتا الحيثية، إلا أن هذا لم يثن «رمسيس الثانى» عن إصدار الأوامر لنحّاتيه بعمل التماثيل وإقامة الأصرح والمسلات، بل ونحت معبدى أبى سُمبل فى النوبة الجميلة.

الصرح والمسلات التى أضافها رمسيس الثانى لمعبد الأقصر

مسلة رمسيس الثانى بميدان الكونكورد

واجهة معبد «أبو سمبل» الرئيسى ـ النوبة

تمثالان منحوتان فى الصخر للملك رمسيس الثانى. واجهة معبد رمسيس الثانى بـ «أبو سمبل» النوبة

وأبو سُمبل تقع على بعد حوالى ٢٥٠ كم جنوب شرق أسوان. وقد تم اكتشاف المعبد فى عام ١٨١٣م على يد الرحالة السويسرى «بروخاردت»، ثم قام بإزاحة الرمال من عليه المغامر الإيطالى «جيوفانى بلزونى» بعد أربع سنوات.

وسوف تلاحظ عزيزى القارئ أن رقم ٤ يتكرر كثيرًا عندما نتحدث عن معبدى أبى سُمبل، وهو من قبيل الصدفة الغريبة. وقد تم تكريس المعبد الرئيسى لأربعة أرباب هم: «رع ـ حور ـ آختى» و«آمون ـ رع» و«بتاح» و«رمسيس الثانى» نفسه، ويتقدم المعبد فى الواجهة أربعة تماثيل عملاقة يصل ارتفاعها إلى ٢٠ مترًا.

وفى أعلى الواجهة يصطف عدد من تماثيل القردة المنحوتة كرمز للشمس والحكمة. داخل المعبد، هناك عدد من التماثيل والمناظر المنحوتة الملونة للملك وهو يُظهر إمكانياته العسكرية ويستعرض معاركه وانتصاراته واحتفالاته، وتبين المناظر أيضًا مدى تدينه وإخلاصه للأرباب المختلفة. وتتعامد أشعة الشمس على تماثيل قدس الأقداس[1] الموجودة فى نهاية المعبد مرتين كل عام، يوم ٢٢ من شهر فبراير، ويوم ٢٢ من شهر أكتوبر. وحتى الآن ما زال المؤرخون ودارسو الآثار والفلك المصرى القديم يتعجبون لهذه الظاهرة الفريدة، بل لم يستطع أحد حتى الآن معرفة دلالة تلك الأيام وخصوصيتها عند الملك «رمسيس الثانى». اقترح البعض أنهما اليومان اللذان تربع فى واحد منهما الملك على العرش، وكان اليوم الآخر عيدًا لميلاده، ولكن هذا الاقتراح لا يجد من النصوص القديمة ما يعضده. وفى بداية الستينيات من القرن العشرين بدأت مياه بحيرة ناصر فى التكون خلف السد العالى، وبدأت فى الارتفاع حتى إنها باتت تهدد هذين المعبدين فانطلقت من مصر حملة عالمية للإنقاذ. وبالفعل تبنت أربعون دولة مع منظمة اليونسكو عملية فك وتقطيع المعبدين ثم إعادة تشييدهما فى مكان أعلى وأكثر ارتفاعا لتفادى المياه. وقد بدأت عملية الإنقاذ هذه فى عام ١٩٦٤م، واستمرت لمدة أربع سنوات مكلفة حوالى ٤٠ مليون دولار أمريكى. وقد تم إعادة بنائه على ارتفاع ٦٤ مترًا من مكانه الأصلى مع المحافظة على الشكل والزوايا والمضمون وبدون الإخلال بأى من مواصفاته الأصلية، حتى إن التمثال الثانى من اليسار المحطم لم يكن تحطمه فى العصور الحديثة بل إنه من جراء زلزال حدث فى أبى سُمبل فى العام ٣١ من حكم «رمسيس الثانى». وقد تم تقطيع المعبدين إلى ما يربو عن الألف قطعة حجرية منفصلة، واستخدم أكثر من ثلاثين طنًا من مادة الريذن (وهو نوع

(١) قدس الأقداس هى أهم غرفة فى نهاية المعبد لأنها تحتوى على أقدس النصوص والتماثيل والتراتيل. وفى منتصفها غالبًا ما يكون هناك قاعدة المركب المقدس أو مذبح للقرابين.

من أنواع الصمغ) فى إعادة التشييد، ولحل مشكلة التوازن والصلابة للمعبد بعد إزالته من مكانه المنحوت داخل الجبل كان لزامًا على القائمين على المشروع أن يبنوا جبلين صناعيين لإحاطة المعبدين بهما فى مكانهما الجديد. وفى أثناء عملية التقطيع ولكبر حجم الأحجار المقطوعة (بعض هذه الأحجار وصل وزنها إلى ٣٠ طنًا وأكثر) تم دفن المعبد الرئيسى بالرمال، حتى تكون هذه الرمال بمثابة الحماية للأجزاء الخارجية للواجهة فى أثناء التقطيع والذى بدأ من أعلى متجهًا إلى أسفل الواجهة؛ وذلك لأنه فى حالة سقوط أية قطعة حجرية مقطوعة من أعلى كان من الممكن أن تؤدى إلى بعض الدمار عند اصطدامها بالأجزاء التى تحتها، وقد تم بناء قبتين كبيرتين تعتليان المعبدين؛ وذلك لكى تساعدا فى معادلة ضغط تماثيل الواجهة على ما خلفها من غرف وأعمدة. وقد تم الافتتاح فى يوم ٢٣ سبتمبر من عام ١٩٦٨م. والجدير بالذكر أن المعبد كان قد تم افتتاحه فى العام ٢٤ من حكم الملك «رمسيس الثانى». ثم توالت عمليات النحت والتلوين بعد ذلك لمدة طويلة حتى انتهى الفنان المصرى القديم من هذه المنظومة البديعة قبل عام ٣٤ من حكم الملك.

نحت لأربعة أسرى أجانب ـ حديقة المتحف المصرى بالقاهرة

ومن أكثر القصص إثارة هى قصة بطولات «رمسيس الثانى» إبان معركة «قادش» بسوريا، ففى إحدى المعارك وجد «رمسيس الثانى» نفسه وحيدًا فى مواجهة الأعداء الحيثيين، بدون أية فرقة عسكرية أو فيلق من الجنود لمساعدته، وعلى ما يبدو أنهم قد تأخروا عليه لانشغالهم بمعركة

أخرى، أو ربما تم قطع الطريق عليهم من قبل الجنود الحيثيين. وقد استشاط الملك غضبًا من قواده فصرخ فيهم متوعدًا إياهم بالعقاب، ومتهمًا إياهم بالإهمال وعدم الالتزام. وفى نص قديم يؤكد الملك غضبه وشجاعته ووفاء خيوله، يقول الملك: «جاء جيشى ليمدحنى. مشدوهًا لرؤية ما فعلت ... فقد كان سريعًا (يقصد هنا نفسه) فى تأنيبهم لعدم التزامهم وجُبنِهم، ماذا سوف يقول الناس عندما يُستمع إلى إهمالكم لى، وأنا قد تُركت وحيدًا؟ ولم يأت قائد، أو مساعد قائد، أو جندى ليساعدنى وأنا أحارب. لقد أخذت ملايين من الأراضى الأجنبية، وحدى وأنا مع «الانتصار فى طيبة» و«مووت سعيدة» (أسماء اثنين من خيول الملك) خيول عجلتى الحربية العظام. لقد وجدتهما يساعدانى عندما كنت وحدى أحارب جيوش الأجانب (يقصد هنا الحيثيين). وسوف أنحنى ـ شخصيًا ـ لأزودهما بطعامهما فى حضرتى كل يوم عندما أكون فى قصرى ... هاهما .. هما ما وجدت، لمساعدتى وسط المعركة، مع سائق عجلتى الحربية: «مينا» حامل درعى وحامل كنوسى فى قصرى بجانبى، شهود على بخصوص المعركة، لقد وجدتهم بجانبى». ولقد جمع «رمسيس الثانى» بين الشخصيتين الظافر والمسالم. ويظهر ذلك فى أنه رغم حرصه على أن يسجل ملحمته العسكرية الشهيرة بموقعة «قادش» على جدران معابده إلا أنه أظهر أيضًا ميله للسلام، عندما وافق على عقد معاهدة سلام مع الحيثيين مكررًا ما فعله والده الملك «سيتى الأول» وملك الحيثيين «مورسيليس الثانى» فى عام ١٢٩٥ ق.م، ومن الواضح أنه ومع كثرة المواقع الحربية بين المملكتين، أدرك الطرفان أن الحرب واستمرارها لم تُجد، بل سوف تزيد الخسائر من الجانبين. فجنح الطرفان إلى الوسائل الدبلوماسية. وقد تم إرسال المبعوثين لـ «رمسيس الثانى» من قبل ملك قادش طالبين للسلام (وهى مدينة تقع بين نهرالعاصى وبين رافد آخر يجرى من الغرب، وقد أصبحت جزيرة صعبة الغزو، عندما شق أهلها قناة صناعية عرضية، بل إنها أيضًا كانت تقع على ربوة عالية، الأمر الذى جعلها تستعصى على الجيوش الغازية)، وقد تم الكشف عن نص المعاهدة فى معبد الكرنك ونص آخر فى معبد الرمسيوم بالبر الغربى لمدينة الأقصر وأماكن أخرى، وقد اكتشف ـ أيضًا ـ نص المعاهدة الحيثى فى «حاتوساس» عاصمة الحيثيين القديمة، وهى منقورة ومنقوشة على لوحات من الطين بالكتابة البابلية المسمارية؛ لأنها كانت لغة التخاطب الدولى بين شعوب المنطقة. وقد تم عقد المعاهدة فى العام الحادى والعشرين من حكم «رمسيس الثانى»، حوالى ١٢٥٩ ق.م. ومن شروط المعاهدة :

١ - أن السلام بين المملكتين يجب أن يستمر للأبد.

٢ - لا يجوز لطرف أن يطغى على أرض الآخر.

٣- يساعد كل بلد الآخر فى حالة الاعتداء عليه من قبل أى عدو.

٤- يجب تسليم أى شخص يحاول الهروب أو اللجوء لبلد الآخر لبلده الأصلى. ولا يُعذب أو يُضطهد عند رجوعه، ولا يُتَخذ ضده أى إجراء عنيف.

واتبع الملك المصرى نفس أسلوب الملك «أمونحوتب الثالث» عندما صاهر أسرات ممالك آسيا الغربية، عندما تزوج «رمسيس الثانى» من أكبر بنات الملك «حاتوسيل» سنًا. وقد أرسل الملك الحيثى ابنته فوصلت إلى الأراضى المصرية فى الشهر الثالث من فصل الشتاء فى العام ٣٤ من حكم الملك. وقد خلع عليها الملك المصرى اسم «ماعت حور ـ نفرو ـ رع» ثم تزوج الابنة الحيثية الثانية فى عام ١٢٣٦ ق.م تقريبًا. وقد ساعدت هاتان الزيجتان الديبلوماسيتان على نجاح المعاهدة؛ لأنهما خلقتا شعورًا أُسريًا ودفئًا عاطفيًا بين الأسرتين المتناحرتين.

ومن الطريف أن «رمسيس الثانى» قد بعث برسالة بالخط الآكادى المسمارى على لوح من الطين لوالدة الابنة الكبرى المدعية «بودو خيبا» يظهر احترامه وتقديره لملكة المستقبل (رغم تربع الملكة الرئيسية «نفرت ـ إيرى» على عرش مصر). وقد استخدم لقب «أخت» عندما كان يوجه كتاباته لملكة الحيثيين، وذلك لتوطيد الأواصر الأسرية بين العائلتين، ومن ثم البلدين. وقد طمأن ملك مصر الملكة الأجنبية، إلى أن ابنتها الأميرة سوف تُعامل بكل احترام كملكة لمصر. وأصبح أعداء الأمس أصدقاء اليوم وعائلات المستقبل. ومن المؤكد أن «رمسيس الثانى» عندما اتخذ قرار السلم هذا، لم يكن ديكتاتوريًا فى قراره منفردًا به، بل أنه جنح إلى استشارة معاونيه. يقول النص المصرى القديم على لسان ملك مصر: «... عملت على أن يتم إحضار جميع قادة سلاح مشاتى وسلاح مركباتى الحربية الذين تجمعوا فى مكان واحد، وجعلتهم يستمعون إلى مشروع «السلام» الذى أرسل إلى ... وأجابوا قائلين لجلالته، له الحياة والصحة والقوة: «أيها العاهل، أيا سيدنا، السلام أمر طيب»..، وأمر جلالته أن يُسمع كلامه، ورحل فى سلام فى اتجاه الجنوب ... وعاد فى سلام إلى البلد المحبوب ...». و بالتالى انتهى هذا الصراع الذى دام بين المملكتين زهاء القرن.

وقد تُوفى «رمسيس الثانى» فى شهر أغسطس من عام ١٢١٣ ق.م بعد ٦٦ عامًا وشهرين من الحكم منفردًا. صعد هذا الصقر الذهبى إلى الأفق الغربى .. وكما وصف المصرى القديم حالة الموت: «الموت هو فقط البداية ..». وتم تحنيط الجثمان فى سبعين يومًا كعادة المصريين القدماء (وهى معادلة للسبعين يومًا التى كانت تختفى فيها نجمة الشعرى اليمانية، ثم تظهر فى اليوم السبعينى فى

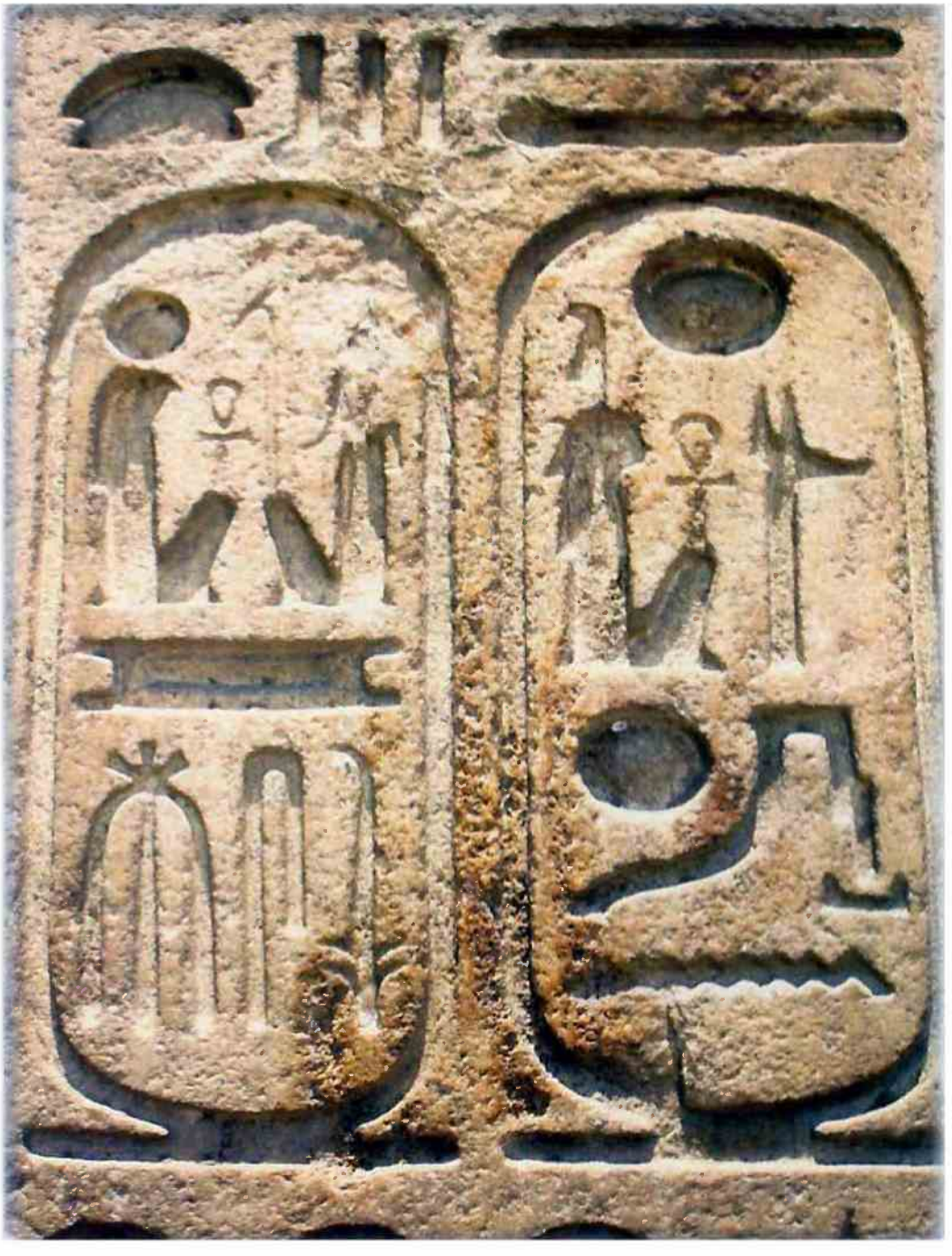

أسماء رمسيس الثاني ـ جرانيت وردي ـ حديقة المتحف المصري ـ القاهرة

سماء مصر متزامنة مع وصول الفيضان، وكما يبعث الفيضان وطميه الغنى الخصب للأرض المصرية بعد جفافها، سوف يُبعث الملك بعد وفاته). وتم دفنه فى المقبرة رقم ٧ فى وادى الملوك، ولكن تم نقل المومياء لحمايتها من أيدى اللصوص إلى خبيئة الدير البحرى فى عملية الإنقاذ الشهيرة التى قام بها الكهنة المخلصون فى عصر الأسرة ٢١، ورغم أن عملية التحنيط الملكى كانت على أعلى مستوى إلا أن بعد ٣٢٠٠ عام من وفاته، أصيبت المومياء بمرض مفاجئ. واضطر المسئولون المصريون إلى السماح له بالسفر إلى فرنسا للعلاج. وفى عام ١٩٧٦م حزم «رمسيس الثانى» حقائبه وارتحل فى رحلة علاج بعد أن أنهى كل الأوراق والمستندات المطلوبة للسفر، وقد تم دراسة وفحص المومياء عن طريق الأشعة السينية، وتم الاستعانة بدراسة المختص «جى سميث» عام ١٩١٢م والذى كان أول من وجد بعض المشاكل الناتجة عن عملية التحنيط والمواد المستخدمة آن ذاك، وقد اكتشف «سميث» أيضًا أن جسد الملك يعانى من بعض الشروخ فى العمود الفقرى، والتى حدثت أثناء ملء جمجمة الملك بالصمغ. يبدو أن المحنطين المصريين القدماء كانوا قد حركوا الرأس والجمجمة حركة عنيفة فأدت هذه الحركة إلى بعض الكسور والشروخ فى العمود الفقرى، وفور وصول المومياء إلى المعامل الطبية ومراكز الأشعة بدأ الأطباء الفرنسيون فى العمل بِكد آملين فى الوصول إلى حل للمشكلة الغامضة. واتخذ المتخصصون الخطوات التالية:

١- أخذوا بعض العينات الدقيقة والصغيرة جدًّا من صدر المومياء.

٢- جمعوا بعض الشعيرات المنفصلة عن الرأ س.

٣- تمت دراسة العينات فى متحف التاريخ الطبيعى والمعامل المختصة.

وانتظر العالم نتائج التحاليل!

وتساءل العالم .. هل إصابة المومياء هى من جراء نوع من أنواع البكتريا المضرة ؟ أم هى نوع من الفطريات؟ أم أن بعض الحشرات قد بدأت تتغذى على الجسد؟ ومع استخدام الميكروسكوب الدقيق استطاع العالم الدكتور Jean Monchacca التعرف على العامل الذى كان من الممكن أن يدمر المومياء. فقد وجد أنه نوع من الفطر المدمر النادر واسمه العلمى هو Fries Deadalea Biennis وقد تمت دراسة أجزاء أخرى من الجسد، فوجد المختصون العديد من الحقائق الطبية والعلمية، بل والإنسانية لـ«رمسيس الثانى»، فأضافت بعض المعلومات المهمة لفصول حياة ذلك الملك العتيد، ومنها:

(أ) أن «رمسيس الثانى» كان يعانى من بعض المشاكل فى الأسنان، ولم تكن هذه مفاجأة عندما نضع فى الاعتبار أن الملك توفى فى أوائل التسعينيات من عمره.

(ب) كان الملك يعانى من تصلب الشرايين Arteriosclerosis.

(ج) ملأ المحنطون فتحتى الأنف للمومياء بحبات الفلفل الأسود الذى ظهر بوضوح فى صورة الأشعة، ثم تم سد الفتحتين عن طريق وضع الصمغ الذى جف وتحجر؛ وذلك لمنع الحبات من السقوط والخروج من الأنف، وقد اعتقد المصرى القديم أن هذه الحبات سوف تساعد على بقاء الأنف فى حالة جافة جيدة، محتفظة بشكلها الطبيعى وقوامها الرشيق. وقد كان اعتقادًا صحيحًا.

من هو فرعون نبى الله موسى عليه السلام؟

سؤال يتبادر للذهن دائمًا عندما نتحدث عن قصة نبى الله موسى عليه السلام وقد تباينت النظريات والتحليلات، فمن المؤرخين من قال إنه «رمسيس الثانى»، ومنهم من اقترح أنه «ميرنبتاح»، وذهب البعض الآخر إلى أنه كان هناك «فرعونان»، فرعون الاضطهاد وفرعون الخروج! والاقتراحات ما زالت تطرح، ولكن لم يتفق الجميع على اسم واحد.

وأصل لقب أو اسم «فرعون» جاء من كلمتين فى الكتابة الهيروغليفية هما: «بر» و«عا» بمعنى البيت أو القصر الكبير، ثم تحول حرف الباء إلى حرف فاء فتغيرت تلك الكلمة المركبة إلى «فرعا». وتحول الحروف ليس بالشىء الغريب، فقد تحولت «با ـ يم» إلى «فايم» ثم «فايوم» أى الجسد المائى الكبير، وعندما أضيفت إليها أداة التعريف العربية: «الـ» أصبحت «الفيوم»، اسم المدينة المصرية والواحة الغناء. وفى البداية اعتقد المحللون لهذه الكلمة «فرعا» أو «برعا»، أنها تقصد حاكم البلاد فى عصر الأسرات المصرية القديمة متبعين نفس فكرة إطلاق أسماء مثل الباب العالى فى إسطنبول أو البيت الأبيض فى أمريكا أو القصر الجمهورى مثلًا. فيقال: «أصدر الباب العالى الفرمان التالى»، والجميع يعلم أن الباب العالى لا يصدر الفرمانات والقرارات، ولكنه رمز للحاكم. واعتقد الكثير أن هذا ما حدث بالفعل فى كلمة «فرعا» التى أصبحت فرعون. قالوا بأن: «فرعون» هواللقب الذى خلفه المصرى القديم على الملك. وهنا تكمن المفاجأة التاريخية ألا وهى أن لقب «فرعون» لم يستخدم لوصف حاكم البلاد المصرية القديمة إلا فى زمن الأسرة الثامنة عشرة ولفترة محدودة جدًّا.

ويؤكد العالم الشهير «آلان جاردنر» فى كتابه الكبير «النحو المصرى القديم» أن الاستخدام الأول للقب فرعون المعنى به الملك كان فى زمن الدولة الحديثة فى إحدى رسائل العمارنة التى

بُعث بها إلى «إخناتون». ولكن فى وقت الدولة القديمة مثلًا استُخدم لفظ «بر ـ عا» لوصف البيت الكبير مثل عبارة «سمر بر عا» أى موظف البلاط فى البيت الكبير أو القصر. أما مع نهاية الدولة الوسطى وجدنا عبارات مثل: «بر عا عنخ وجا» بمعنى «البيت الكبير، فليعيش (وقد استخدم المصرى القديم هنا اللفظ الدال على الجماد) وينتعش». ولذلك لم نكتشف حتى الآن أية خراطيش ملكية مسبوقة بلقب «بر ـ عا». فالملك «خوفو»، و«خفرع»، و«منكاورع»، ومن قبلهم «سنفرو»، ثم «أمنمحات» و«سيزوستريس» ثم «سقنن ـ رع ـ تاعا»، و«كامس» و«أحمس»، ثم «أمنحوتب الثانى والثالث»، و«تحتمس الثالث»، ثم «الرعامسة»، و«سيتى الأول»، كل هؤلاء لم نجد لفظ «بر ـ عا» تسبق خراطيشهم الملكية ! وبعد انتهاء الأسرة التاسعة عشرة وجدنا أن اللفظ المستخدم هو «حم ـ إف» بمعنى «جلالته».

ويقترح أحد الباحثين أن «بر ـ عا» اسم وليس لقبًا، بيد أنها (أى هذه الكلمة) لم تأخذ أداة التعريف العربية وهى الألف واللام لتكون الفرعون، وقد ظهر هذا جليًّا فى نصوص القرآن الكريم، ومن هنا يقول الاقتراح بأنه كان هناك حاكم يحكم مصر فى وقت نبى الله موسى ﷺ اسمه «بر ـ عا» أى «فرعون». وقد جنح أغلب الكتاب فى هذا الموضوع إلى ذكر ملك بعينه ليكون هو فرعون الخروج ولكن بدون عرض السبب التاريخى الذى يُعينه على إثبات قوله. فيقول أحد المؤرخين والمحللين لمقارنة الأديان مثلًا (وهو عالم جليل): «إن فرعون الاضطهاد هو «رمسيس الثانى»، وفرعون الخروج هو «منفتاح» (ويقصد هنا «ميرنبتاح») الملك الذى ورث عرش مصر من والده «رمسيس الثانى». ولكن لم يقدم الدليل والبرهان النصى والمادى على هذه الأطروحة. لم يقدم أغلب المحللين النصوص الهيروغليفية أو البرديات أو أى دليل مادى يقول لنا متى حدثت عملية الخروج وعبور اليم من قِبَل بنى إسرائيل، رغم إيماننا العام بالحادثة لأنها جاءت فى القرآن الكريم، وقد جاء ذكر قصة نبى الله موسى ﷺ فى عدة سور منها سورة طه، والنمل، والقصص، والإسراء، والأعراف، ويونس، والشعراء، والنازعات، والمائدة، وهود، وإبراهيم، وهو كُثر. ومن آيات القرآن الكريم الآية رقم ١٣٧ من سورة الأعراف وبها أكبر دليل مفيد فى معرفة ماهية الملك الطاغية. يقول الله ـ سبحانه وتعالى ـ فى محكم كتابه: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾. معنى هذا أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد دمر كل ما بنى هذا الملك من أصرح ومعابد، ومسلات،

وتماثيل، وغيرها من البنايات. إذن، لم يبق أى مبنى أو جدار يحمل اسم هذا الملك «فرعون»، أو تشييد حدث فى عصره بأيدى عشيرته. وقد كان لكل الملوك الذين رشحهم المؤرخون والأثريون من قبل، بنايات شاهقة مثل معابد «رمسيس الثانى» وغيرها، وهى ما زالت باقية منتصبة وقائمة ومحفوظة حتى الآن بدون أى دمار. إذن، لا نعتقد أنه أحد هؤلاء الملوك ذى الآثار الباقية.

إذا، لم يكن فرعون الخروج «رمسيس الثانى»، فهل من الممكن أن يكون ابنه «ميرنبتاح»؟ لهذا الملك «ميرنبتاح» لوحة حجرية ضخمة فى الدور الأول الأرضى بالمتحف المصرى تقف خلف التمثالين العملاقين للملك «أمونحوتب الثالث» وزوجته الملكة «تى». وقد أطلق عليها الأثريون اسم «لوحة إسرائيل»! وهى للأسف تسمية خاطئة، ولكن ولذكر كلمة «إسرائيل» فيها مرة واحدة أطلقوا عليها هذا الاسم رغم أن أغلب النص يتكلم عن انتصارات الملك المصرى ضد القبائل الليبية وسوريا وكنعان وغيرها. واللوحة الحجرية كانت فى الأصل للملك «أمونحوتب الثالث»، ولكن «ميرنبتاح» استغل ظهر الحجر الشاغر، ورَسم ونَحت عليها مناظر له وهو يتلقى سيف الانتصار من الرب «آمون ـ رع» الأسطورى. و يظهر الملك وهو يرتدى تاج الـ«خبرش» الأزرق وهو تاج الحروب والمعارك، وتظهر أيضًا من الأرباب المصرية الأسطورية «مووت» و«خونسو» وهما يهبان الملك الصولجان الذى يرمز إلى ملايين السنين من الحياة المديدة. وأكد أصحاب نظرية أن «ميرنبتاح» هو فرعون الخروج، وأن مومياءه الموجودة حاليًا فى المتحف المصرى لونها أبيض (وهذا صحيح)، وأن هذا البياض هو من جراء الأملاح التى التصقت بجسد الفرعون الغريق ! ومن المعروف أن «ميرنبتاح» حكم حوالى ١٠ سنوات، ولكن إذا نظرنا إلى أعلى اللوحة فى أول سطر فى النص المنحوت على اللوحة الحجرية «لوحة إسرائيل» نجد أن النَص يؤرخ كل تلك الأحداث والانتصارات العسكرية التى أنجزها «ميرنبتاح». السطر يقول إن هذه الانتصارات حدثت فى السنة الخامسة من حكم الملك المصرى، اليوم الثالث للشهر الثالث من الصيف. إذن، لو كان «ميرنبتاح» هو فعلاً فرعون الخروج، كيف تثنى له حكم البلاد بعد غرقه؟ لمدة خمس سنوات كاملة؟ أما عن موضوع الملح الأبيض الذى يغطى المومياء، فهذه أيضًا نظرية ضعيفة، إذ أن أغلب المومياوات قد استخدم فى تحنيطها الملح الذى أتى به المصرى القديم من وادى النطرون، فلو أضاف المحنط كمية أكثر من اللازم أثناء عملية التحنيط والتجفيف سينتهى الأمر بالمومياء بأن تكون على هذا اللون الأبيض الذى هو لون

الملح، ونضيف أيضًا أنه كان من الممكن أن يكون فرعون الخروج قد غرق فى البحيرات المرة أو فى فرع النيل الذى كان يصل إلى شبه جزيرة سيناء أو البحر الأحمر. والدليل الآخر هو أننا نعلم أن زوجة فرعون نبى الله موسى ﷺ وهى «آسيا بنت مزاحم» لأنه قد تم ذكرها فى الحديث النبوى الشريف الوارد فى صحيح البخارى عن أبى موسى ـ رضى الله عنه ـ قال: رسول الله ﷺ: «كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسيا بنت مزاحم امرأة فرعون، ومريم بنت عمران» (٣٤١١). وقد ذُكرت زوجة فرعون فى القرآن الكريم فى سورة التحريم فى آية ١١ قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾﴾ صدق الله العظيم. ومن هنا نؤكد أن فرعون الخروج والاضطهاد لم يكن أيًّا من هؤلاء الملوك الذين ذُكروا ووثقوا أسماء زوجاتهم مثل الملك «رمسيس الثانى» الذى ذكر أسماء زوجاته الملكيات حتى الأجنبية منهن، وبالتأكيد لم يكن منهن زوجة اسمها «آسيا بنت مزاحم».

والحصيلة أننا لا نستطيع أن نؤكد أن ملك مصر بعينه هو فرعون الذى ذُكر فى القرآن الكريم ويبقى هو وماهيته غامضًا رغم محاولات بعض علماء الغرب إلصاق تاريخه بتاريخ ملك مثل «رمسيس الثانى» كنوع من أنواع تسييس التاريخ حتى يتسنى للصهاينة المطالبة بحقوقهم فى التاريخ المصرى مدعين بناءهم للمعابد وتشييدهم للمسلات، ونحتهم للتماثيل البديعة التى هى، بدون شك، فن وتصميم وصناعة مصرية مائة فى المائة.

الملك ميرنبتاح

هو الملك الرابع فى قائمة الملوك الذين اعتلوا عرش مصر فى زمن الأسرة ١٩. وقد حكم حوالى عشر سنوات ١٩١٣ - ١٩٠٣ ق.م. وهو أيضًا الابن الثالث عشر للملك «رمسيس الثانى» من زوجته «إيست ـ نفرت» وذلك لأن الأب عاش ليرى اثنى عشر من أبنائه يموتون. مشاهد الملك «ميرنبتاح» المنقورة على جدران معبد الكرنك تؤكد لنا قوته العسكرية وقيادته للجيش المصرى متقدمًا فيالق الجنود بعجلته الحربية ليسجل انتصارًا بعد انتصار. وقد شرح بالتفصيل مآثره وبطولاته ضد الأعداء فى نص أدبى غنى بالمبالغة والكناية فى لوحة موجودة الآن بالدور الأرضى بالمتحف المصرى بالقاهرة. يبدأ النص بتوثيق التاريخ المؤرخ لكل هذه المآثر: «العام الخامس من (سنوات) الحكم، الشهر الثالث من فصل شمو (الربيع) اليوم الثالث فى عهد جلالته ..»، ثم

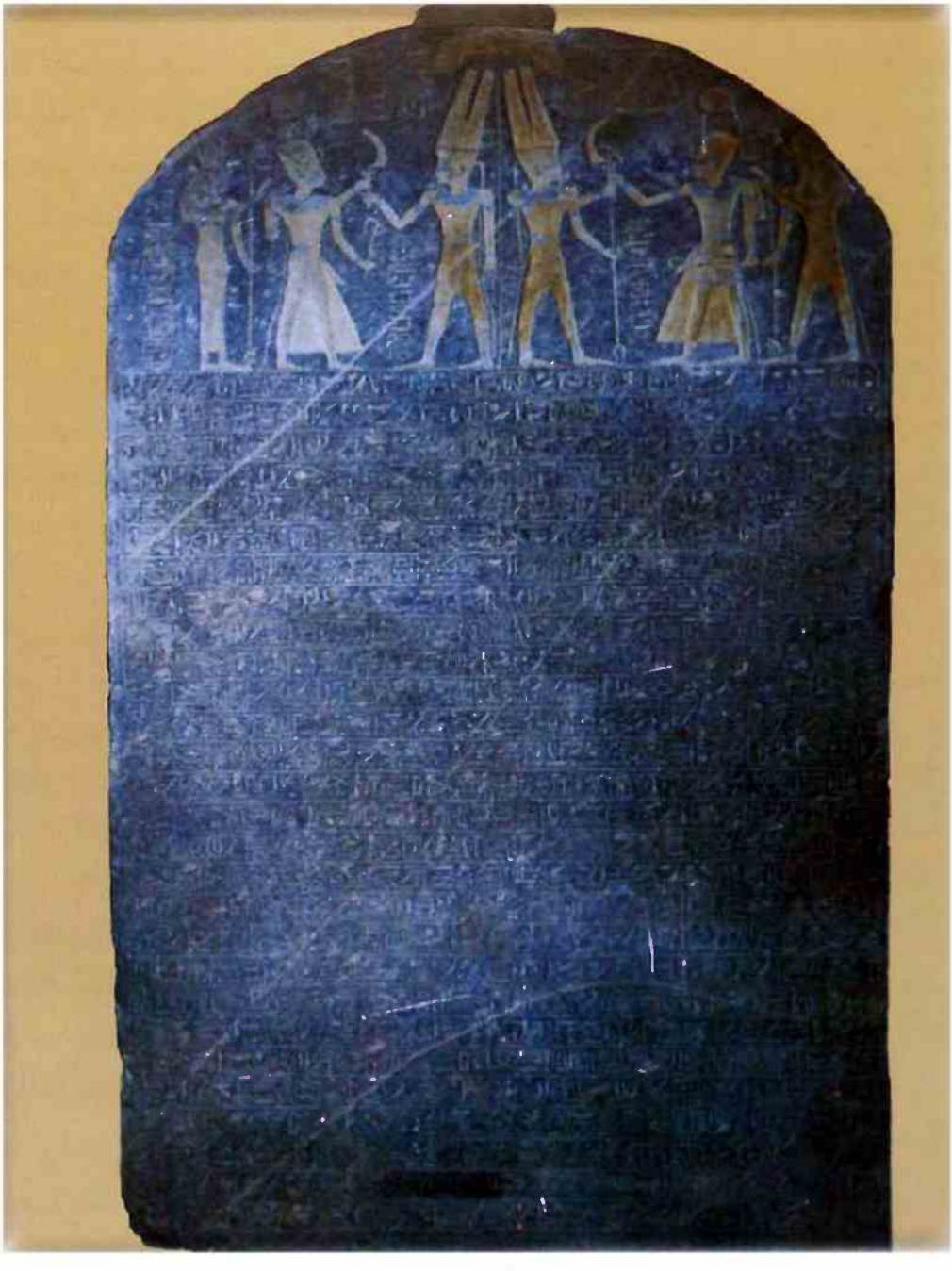

لوحة مرينبتاح بالدور الأرضى بالمتحف المصرى ـ القاهرة

يعدد ألقابه الملكية والدينية، ثم يشرح بالتفاصيل كيف كانت شجاعته وإقدام جيشه هما السبب فى الانتصار على الليبيين. وقبائل الليبو (كلمة ليبو هو أصل كلمة ليبيا) كانوا من القبائل شديدة البأس، وقد كان ظهورها مع قبائل الـ «مشوش» الليبية فى اتحاد وتحالف ضد القوات المصرية إيذانًا ببدء معارك حامية الوطيس بين الفرقتين. وكانت السمات الجسمانية للّيبو مختلفة عن المصريين رغم قرب المملكتين. فقد كان الليبيون ذوى بشرة بيضاء فاتحة، ويقترح بعض المؤرخين أنهم كانوا ذوى شعر أشقر وعيون ملونة، وذلك لاختلاطهم بعناصر بشرية من شمال البحر المتوسط. وينهى النص حديثه عن الجسارة المنقطعة النظير للملك وجيوشه قائلاً: «لقد دمرت بلاد الليبيين، و«الخاتى» مسالم، وطُهرت كنعان من كل شىء كان بها، واقتيدت «عسقلان» (وقد ذكر الملك «عسقلان» أو «إيسكَلون» كما كان يكتبها المصرى القديم فى نص آخر بجانب بهو الأعمدة فى معبد الكرنك)، وتم أخذ «جيزر»، وأصبحت «نيو عام» وكأنها لم تكن، وبذرة إسرائيل لن توجد بعد الآن (وكلمة بذرة هنا من الممكن أن يكون معناها فى الأصل أو الجذر بمعنى لقد تم إبادة إسرائيل كلها من جذورها، أو تكون بمعناها الصريح المفهوم بدون تورية ألا وهو أن معناها البذرة التى تزرع فى الأرض والتى استولى عليها الملك المصرى من مخازن غلاب الجيوش المهزومة)، وأصبحت سوريا أرملة لمصر (تعبير مجازى للهزيمة والحزن وفقدان السيطرة). أما عن كلمة «إسرائيل» هنا فهى الخطأ الذى وقع فيه العديد (قاصدين أو بحسن نية) عندما تخيلوا أو اعتقدوا أنهم بنو إسرائيل فى وقت الخروج، وبالتالى فإن «ميرنبتاح» هو فرعون نبى الله موسى ﷺ ولكن إذا نظرنا جيدًا إلى كلمة «إسرائيل» نجد أنه تلاها منظر «مخصص» لرجل وامرأة، وهذا معناه فى الهيروغليفية: قبيلة أو مجموعة من البشر وليس بلدًا أو مملكة؛ لأنه إذا أراد أن يكتب هنا كلمة هيروغليفية بمعنى «مكان» أو «بلد» أو «مدينة» لكان قد استخدم «مخصص» بعد كلمة إسرائيل مرسوم على هيئة دائرة داخلها أربعة مثلثات معبرة عن كلمة «نويت». إذن، هو هنا يعنى قبيلة واحدة أو مجموعة واحدة من البشر وليس بلد أو أمة مستقرة، ومن المعلوم أن بنى إسرائيل دخلوا مصر على شكل عدد من القبائل، وليس قبيلة واحدة.

وكعادة الملوك المصريين القدماء، كان الهدف من الحروب والمعارك هو إرساء قواعد النظام و حماية البلاد من أى خطر داهم، ولكنهم كانوا يجنحون إلى السلام و الهدوء. ومثل أبيه وجده لم يكن الملك «ميرنبتاح» بعيدًا عن روح السلام والوئام، فيؤكد فى نهاية النص أن «كل البلدان توحدت وسادها السلام». وهذا ما كان يميز الحضارة المصرية إذا ما قورنت بحضارات أخرى

اتصفت بالقسوة وعدم الآدمية، فقدمت تلك الحضارات القرابين الآدمية للأرباب الأسطورية، وقتلت الأطفال؛ لتقديمهم كهبة للرب الذى كانوا يتعبدون له. ولكن لم يكن هناك قرابين آدمية تقدم فى مصر للأرباب، ولم يُقتل الخدم الملكى لكى يصاحب الملك فى مقبرته عندما يتوفى كما ادعى بعض المؤرخين الأجانب. وقد تم اكتشاف مقبرة الملك «ميرنبتاح» على يد الإنجليزى «هوارد كارتر» فى عام ١٩٠٣م بوادى الملوك بالأقصر، وقد كانت المناظر الجدارية على مستوى راقٍ جدًّا من النحت والرسم والتلوين، وتُظهر تلك المناظر الملك صاحب المقبرة (وهى مقبرة رقم ٨) وهو فى حضرة العديد من الشخصيات المقدسة، وأرواح ما بعد الموت والأرباب مثل «بتاح» رب العمال والفن ومدينة منف، وهو الرب الذى كان يحمل الملك فى نفسه مكانة خاصة له؛ وذلك لأن اسم الملك «ميرنبتاح» يعنى «محبوب بتاح». ومشهد آخر مهم هو مشهد الملك وهو يتقدم مركب «رع» وهو فصل قصصى به تفاصيل الأحداث التى سوف يمر بها الملك فى الساعة الخامسة من كتاب البوابات، وهى البوابات التى يجتازها المتوفى خلال رحلته فى الحياة الأخرى. وقد تم اكتشاف أربعة توابيت حجرية داخل المقبرة، ثلاثة منها كانت من الجرانيت الوردى الأسوانى، والرابع والذى كان على شكل آدمى لأنه كان يحتوى على جثمان الملك المحنط، وقد كان التابوت منحوتًا من الألباستر الأبيض، وقد كان الجرانيت والألباستر من الأحجار المفضلة عند المصرى القديم، وقد برع فى التعامل معهما منذ تقطيعهما فى المحاجر مارًّا بنحتهما و انتهاء بنقلهما إلى أماكنهما فى المعبد أو القصر أو المقبرة. والجرانيت صخر طبيعته نارية حمضية يتكون من معادن المرو والفلسبار الحمضى، ويغلب فيه وجود معادن الهوربنلند و المايكا، ولونه يتأرجح بين الرمادى المائل للحمرة واللون الوردى الأحمر، وهو موجود بكثرة فى صحراء مصر الشرقية، ومحاجر أسوان هى الأشهر عبر تاريخ مصر القديمة . أما عن الألباستر فيُطلق عليه «كالسيت» ورمزه الكيميائى «Caco3»، ويوجد بأشكال مختلفة وهيئات متباينة فى الطبيعة، وهو عديم اللون أو أبيض شفاف تخلله عروق بنية وبيضاء أو قرمزية، ويوجد أيضًا بلون أخضر وألوان أخرى عديدة. وتتميز طبيعة الألباستر بالشفافية، ويتكون فى الرواسب الجيرية والرخام.

وقد وُجدت مومياء هذا الملك فى خبيئة «أمونحوتب الثانى» بوادى الملوك، وتم فك لفائف الكتان من على الجثمان فى يوم ٨ يوليو ١٩٠٧ميلادية. وقد تمت دراسة المومياء عن طريق مختصين فوجدوا الآتى:

١- كان الملك يعانى من مشاكل فى الأسنان وأغلب الضروس الطاحنة غير موجودة.

٢- كان يعانى من تصلب الشرايين والتهاب المفاصل.

٣- وجدت بعض الكسور فى عظام الفخذ.

٤- تم حشو الجمجمة بقماش الكتان خلال عملية التحنيط.

٥- وجد الأنف محشوًا بالصمغ.

٦- تم تلوين الجفون باللون الأسود بعد وفاة الملك.

٧- وبدا من الواضح أن هناك العديد من الكسور والقطع فى أجزاء متفرقة من المومياء من جراء محاولات اللصوص و نابشى القبور للبحث عن المجوهرات الملكية التى كانت تتحلى بها المومياء.

٨- يوجد ثقب فى الجزء الخلفى للجمجمة.

وقد توفى الملك «ميرنبتاح» فى حوالى عام ١٢٠٣ ق.م، فحكم بعده الملك «من ـ مى ـ رع آمون مسو» لمدة لا تتجاوز الثلاث سنوات. وعلى ما يبدو أنه لم يكن له أحقية اعتلاء العرش، والجدير بالذكر أن الملك «ميرنبتاح» كان قد أنجب ولدًا من زوجته «إيست ـ نفرت» اسمه «سيتى ـ ميرنبتاح» وهو الأمير الملكى والوريث الشرعى الذى سوف يعتلى العرش بعد ما استولى عليه «آمون مسو». هذا الأمير الملكى معروف عند المؤرخين والأثريين باسم «سيتى الثانى».

الملك سيتى الثانى

وهو الملك «أوسر ـ خبرو ـ رع سيتبن ـ رع» «سيتى الثانى»، وقد حكم البلاد حوالى ٦ سنوات، من عام ١٢٠٠ إلى عام ١١٩٤ ق.م. شيد ثلاث مقاصير فى معبد الكرنك خلف الصرح الأول ـ غير المكتمل ـ وكرسها للاحتفالات الدينية المرتبطة بثالوث طيبة: «آمون» وزوجته «موت» وابنهما «خونسو»، وقد برزت هذه الظاهرة الدينية عندما أراد الكهنة ومعهم حكام البلاد أن يوحدوا الديانات المختلفة والأرباب فى شكل واحد متصل وفى بعض الأحيان عائلى كما هو الحال فى ثالوث طيبة. ويوجد أيضًا «ثامون الأشمونين»، وهما أربعة أزواج قوية أسطورية وجدت قبل الخلق حسب الاعتقاد الكهنوتى، وهما: «نون ونونت» (الماء الأزلى البدائى)، و«حح وححت» (الأبدية والاستمرارية الغير محددة) و«كيك وكيكت» (الظلام الدامس)، و«آمون و آمونت» (وآمون هو الذى أطلق عليه فيما بعد المختفى، وتم توطيد صلته بالشمس والقوى الكونية). ويوجد أيضًا «تاسوع هليوبوليس» وهما: «آتون» (الخالق من وجهة نظر كهنة معابد

الشمس بأون فى هليو بوليس)، و«شو» (اهواء والجو) و«تفنوت» (الرطوبة والندى)، و«جب» (الأرض)، و«نوت» (السماء)، و«إيزيس» (أم الأرباب والنسر الحامى)، و«أوزوريس» (رب الحياة الأخرى والخصوبة والنماء)، و«ست» (رب الكوارث والصحراء) و«نفتيس» (الندابة). وقد كان للمقاصير الثلاثة التى بناها الملك «سيتى الثانى» دور مهم فى احتفالية القوارب المقدسة للأرباب الثلاثة داخل معبد الكرنك حيث كانت تستقر تلك المراكب. وفى مجمله، كان حكم هذا الملك يتصف بعدم الاستقرار والقلاقل. وقد توفى فى سن متقدمة بعض الشىء، وتم الكشف عن مومياته فى خبيئة «آمون حوتب الثانى» بوادى الملوك، وتم فك لفائفها لدراستها فى يوم ٣ سبتمبر ١٩٠٥م. وقد نجح اللصوص فى الوصول إليها حيث قاموا بعمل ثقب فى الرأس بحثًا عن المجوهرات الملكية، وقد تبين فى وقت دراسة المومياء أن الذراعين مكسورتان، ولكن بقيت الأسنان فى حالة لا بأس بها. وقد كان الملك «سيتى الثانى» يعانى من التهاب المفاصل. مقبرته فى وادى الملوك هى المقبرة رقم ١٥.

الملك سبتاح

حكم «آخ ـ إن ـ رع ستبن ـ رع سبتاح» مدة ليست طويلة، وكانت من عام ١٩٠٤ إلى ١١٩٨ ق.م. واسمه بالكامل معناه «جميل من أجل رع، مختار من رع، ابن بتاح». اعتلى العرش وهو فى سن الثانية عشرة تقريبًا. وهو حفيد الملك «سيتى الثانى». ساعدت الملك حديث السن فى الحكم كوصية الملكة «تا ـ وسرت»، والتى اعتلت العرش بعده، وقد تم الكشف عن مومياته فى خبيئة مقبرة الملك «أمونحوتب الثانى» بوادى الملوك، رغم أن مقبرته فى نفس الوادى رقم ٤٧، فى حالة جيدة جدًّا وقد تم استخدامها عن طريق حكام وشخصيات أخرى. وعندما دخل الأثرى «إدوارد إيرتون» مقبرة الملك «سبتاح» نجح فى الوصول إلى غرفة فى مكان عميق خالية من المناظر الجدارية. وتوقف هنا ولم يكمل التنقيب، ولكن من المهم أن نذكر هنا أنه وهو فى طريقه إلى هذه الغرفة رأى العديد من المشاهد الجدارية الملونة والمهمة مثل مناظر قرص الشمس والربة «ماعت» رمز العدالة والنظام، ودرس الأثرى «إيرتون» أيضًا مشاهد فى دهاليز تلك المقبرة العميقة تظهر نصوصًا هيروغليفية تحتوى على تراتيل للرب «رع» وفصولًا عديدة من الـ «إيمى ـ دجوات» (ما هو كائن فى العالم السفلى). وقد أكمل المهمة العالم الأثرى «بيرتون» فى عام ١٩١٢م ثم تم تنظيف المنطقة المحيطة بالمقبرة على يد الأثرى «كارتر»، ولكن من أكثر الأشياء المرتبطة بهذا الملك إثارة هى المومياء، والتى تم فك لفائفها فى ٢٩ أغسطس ١٩٠٥م، وقد تمت دراسة المومياء دراسة مستفيضة، وكان اللون

الأبيض هو الغالب على بشرة الملك؛ وذلك من جراء وجود طبقة من الملح عليها (يذكرنا هذا بنفس حالة مومياء الملك «ميرنبتاح» الموجودة فى غرفة المومياوات بالمتحف المصرى بالقاهرة. وهذا دليل آخر على أن وجود الملح كان فى أكثر من مومياء ولم تتفرد مومياء «ميرنبتاح» بهذه الخاصية أو الصفة، والتى حاول بعض العلماء الاستفادة منها لإثبات أنه «الفرعون الغريق»)، وقد نالتها أيدى اللصوص فدمرت أجزاء فى الجسد والوجه، وذلك لغرض البحث عن المجوهرات القديمة. وقد بدا واضحًا أن الملك «سبتاح» كان يعانى من مرض شلل الأطفال وأسمه الطبى العالمى Poliomyelitis فى رجله اليسرى. ولم تعرف للملك زوجة حتى الآن .

الملكة تا ـ وسرت

الملكة الحاكمة «ست ـ رع ميرى ـ آمون تا ـ وسرت ستب ـ إن ـ موت» اعتلت عرش مصر وحدها بعد وفاة الملك الشاب «سبتاح»، وبذلك تنضم إلى قائمة الملكات اللاتى حكمن بدون ملك وزوج مثل «سوبك ـ نفرو»، و«حتشبسوت»، وغيرهما، ولكن كان حكمها قصيرًا، لم يتعد العامين، من عام ١١٩٨ إلى ١١٩٦ ق.م. وقد لقبت نفسها بمحبوبة الربة «موت» و«بنت ـ رع» و«محبوبة آمون». ومثل الملكة «حتشبسوت» كان فى بلاط الملكة «تا ـ وسرت» شخصية ذكورية قوية مهيمنة على مجريات الأمور ألا وهو المدعو «باى»، ومن المحتمل أن يكون سورى الأصل مما جعل البعض يعتقد بأن البلاد كانت تمر بفترة وهن وقلاقل، وقد ساعد «باى» الملكة «تا ـ وسرت» فى الحكم مما أدى ـ على الأرجح ـ إلى غضب المدعو «ست ـ ناخت» فهب ليعتلى عرش مصر، ولينهى بهذه الفعلة الأسرة التاسعة عشرة. فلم يكن لـ «سبتاح» زوجة أو أولاد معروفين، وفى الوقت نفسه لم يسمح «ست ـ ناخت» للملكة «تا ـ وسرت» (زوجة الملك «سيتى الثانى»، والوصية على عرش مصر فى زمن حكم الملك الشاب «سبتاح») أن تستمر فى حكم البلاد.

ومثلما انتهت الدولة الوسطى بحكم «سوبك ـ نفرو» الحاكمة، انتهت الأسرة التاسعة عشرة بحكم «تا ـ وسرت». وقد تم الكشف عن مقبرتها فى وادى الملوك وهى الآن مقبرة رقم ١٤. وهى مقبرة مثيرة، حيث بدأ العمل فى نحتها عندما كانت «تا ـ وسرت» متزوجة من الملك «سيتى الثانى»، ثم تمت بعض الإضافات، والأعمال النحتية والفنية إبان فترة وصايتها على العرش فى أيام حكم «سبتاح»، ثم تم تعميق وتكبير المقبرة، وتمت إضافة العديد من المناظر الجميلة الدينية فى فترة حكمها. لم يتم العثور على جثمان لها حتى الآن، ولكن هناك محاولة من بعض الباحثين لربط مومياء الملكة مع مومياء رقم ٦١٠٨٢؛ وذلك لوجود تشابه فى ملامح الوجه مع الملك «ميرنبتاح» والذى يعتقد البعض

أنه كان والدها. ويعتقد العالم «إليوت سميث» أن عملية تحنيط المومياء رقم ٦١٠٨٢ تمت فى نفس زمن «سيتى الثانى»، و«سبتاح» ولكن تبقى هذه المحاولات كلها فى طور البحث والتمحيص.

❁ ❁ ❁

الأسرة العشرون (١١٨٦ - ١٠٦٩ ق.م)

الملك ست ـ ناخت

حكم هذا الملك المؤسس لهذه الأسرة لمدة وجيزة جدًّا لا تتعدى العامين. وكان هذا من عام ١١٨٧ إلى ١١٨٥ ق.م. اسمه وألقابه تضمنت اسم الرب الأسطورى «ست»، وهو ما يؤكد تبجيله وتقريظه لهذا الرب (مثل الملكين السابقين «سيتى الأول وسيتى الثانى»). والملك «أوسر ـ خاو ـ رع ـ ست ـ ناخت» جاء على الخريطة التاريخية ليعيد الأمور إلى نصابها، وعلى الأرجح حاول التخلص من النفوذ الأجنبى داخل القصر، والذى كان يهدد العرش. وقد كان له ولزوجته «تى ـ ميرن ـ إيست» وضع دينى مقدس، وقد تم الكشف عن تابوت فى خبيئة «أمونحوتب الثانى» مكتوب عليه أسماء الملك «ست ـ ناخت». يعتقد البعض أن جثمانه هو ذلك الجثمان الذى وجد داخل مقبرة الخبيئة مسجى فى قارب خشبى صغير. هل وضعه الكهنة فى هذا الوضع إيذانًا ببدء الإبحار عبر نهر النيل السمائى «ورنس» ليصل فى النهاية إلى الأبدية المرجوة؟ وكما أعطى الملك «رمسيس الأول» إشارة البدء للأسرة التاسعة عشرة فعل الملك «ست ـ ناخت» للأسرة العشرين، وكلاهما اشترك فى صفة واحدة، ألا وهى مدة الحكم القصيرة.

الملك رمسيس الثالث

الملك القدير «أوسر ـ ماعت ـ رع ميرى ـ آمون رمسيس الثالث» هو آخر الملوك المصريين القدماء العظماء. وقد حكم حوالى ٣١ عامًا. وطوال فترة حكمه (منذ عام ١١٨٤ إلى ١١٥٣ ق.م) اهتم بالدفاع عن البلاد وقمع الثورات و الاضطرابات فى كافة أنحاء المملكة المصرية، وقد برع فى إنشاء المعابد وبناء القصور. وقد تطور المعمار وفن النحت والرسم والعلوم فى عصره تطورًا كبيرًا ظهر جليًّا فى معابده بالكرنك ومدينة هابو وغيرها. وقد استغل المساحات الكبيرة فى أصرحته وجدران معابده فى إظهار انتصاراته وإنجازاته العسكرية على أعدائه من الليبيين والبدو «الشاسو»

واللوبيين والأموريين والبلست (قبائل عاشت فى أرض كنعان، وأطلق عليهم فيما بعد الفلست، وهم أصل تسمية فلسطين) وشعوب البحر (جيوش لأمم شديدة البأس كانت تقطن جزر وسواحل البحر المتوسط آنذاك)، وفى العام الواحد والعشرين من حكمه وقع «رمسيس الثالث» على وثيقة معاهدة سلام بينه وبين الملك الحيثى «خاتوساى الثالث» بعد أن التمسها الأخير منه، وقد ذكرتنا هذه المعاهدة بتلك التى أبرمها الملك «رمسيس الثانى» مع الحيثيين، وقد بدا واضحًا تأثر الملك «رمسيس الثالث» بشخصية الملك «رمسيس الثانى» فى اختياره لألقاب مماثلة له وبناء المعابد الشاهقة الارتفاع والعظيمة الحجم.

الملك رمسيس الثالث يتقدم أحد الاحتفالات الدينية

ونظرًا لأن نصوص هذا الملك المغوار ومشاهده العديدة والبرديات التى تم اكتشافها والتى تتكلم عنه وعن تاريخه موجودة بوفرة وتمت ترجمتها وتحليلها بدقة، فقد عُرف وعُلم عن هذا الملك أكثر من أى ملك آخر. فأصبحت تفاصيل حياته وإنجازاته وطريقة حكمه، بل ومشاكله الشخصية معروفة. وهى لا تخلو من الإثارة ، نصطفى منها بعض النقاط التى تهمنا فى سياق هذا الكتاب:

١- كان متزوجًا من سيدة تُدعى «إيست» وهى التى سوف تكون أمًا لملكين فى المستقبل، وهما «رمسيس الرابع والسادس»، ولكن كان للملك أيضًا محظيات وزوجات ثانويات كثيرات.

٢- إحدى هذه الزوجات الثانويات واسمها «تى» تآمرت ضد زوجها الملك «رمسيس الثالث» بغرض التخلص منه ووضع ابنها «بنتاور» على العرش بدلًا منه. وقد اشترك فى «مؤامرة الحريم»، كما أُطلق عليها من المؤرخين، العديد من الشخصيات ذات المناصب العالية داخل القصر مثل المشرف على الخزانة «إيب رع»، وساقى الملك «مسد سو رع»، والمشرف على الماشية «نب حوابن» وعدد من زوجات لضباط حرس باب الحريم فى القصر. وقد تم القبض على المتآمرين وعلى ما يبدو أن الملك لم يُصب بسوء، ولكن بعض المؤرخين يؤكد وفاته نتيجة المؤامرة. وقد نال المتآمرون عقابهم الذى تراوح من الحكم عليهم بالإعدام وصلم الأذن وجدع الأنف.

٣- وُجد فى معبد مدينة هابو خرطوش ملكى لإحدى الملكات، ولكنه كان فارغًا أى بدون اسم هيروغليفى للملكة، وهو ما أعطى الانطباع أنها كانت متورطة فى «مؤامرة الحريم».

٤- اتخذت إحدى بوابات معبد مدينة هابو شكل البوابات والقلاع السورية مما يوحى بالتأثر المعمارى. وقد أضفت بوابة «ميجدول» (كما كان يطلق عليها) صبغة عسكرية على المعبد الدينى، هذا بجانب وجود تماثيل للربة «سخمت» ربة الحروب والمعارك والرعب الأسطورية، التى أعطت الانطباع الأكيد لشخصية الملك القوية ـ ذات الطابع العسكرى ـ الصارمة.

٥- على الحائط الخارجى للمدخل الثانى الرئيسى للمعبد، وعلى جهة اليسار من الداخل إلى أول فناء مفتوح توجد بعض الكتابات الهيروغليفية الصغيرة ولكنها عميقة، ومن الطريف أن إحدى الخراطيش الملكية التى تحتوى على اسم للملك الذى يحمل صفة التدليل، فقد كان اسمه «سس» وهو تصغير لاسم الملك «رمسيس». وهى من الخراطيش النادرة التى تؤكد ـ وهذا ما ربما يتناساه بعض الباحثين فى تاريخنا ـ أن هؤلاء الملوك القدماء كانوا أيضًا بشرًا عاديين، يحملون كل صفات الإنسان الطبيعى الذى يعيش على أرض الواقع.

٦- يوجد أطلال قصر كامل متصل بالمعبد، به العديد من الغرف والطرق المؤدية إليها. ومن الطريف أن إحدى هذه الغرف هى غرفة الحمام. وقد وصلت درجة اهتمام المصرى القديم بالنظافة إلى درجة عالية جدًّا. فقد ابتكر نظامًا محكمًا للتخلص من نفاياته وفضلاته الشخصية، بطريقة علمية وصحيحة. وهذا ما جعل حضارته تستمر لمدة طويلة؛ لأن الإنسان المبتكر يحتاج إلى جسد نشيط وصحى.

٧- ذكرت بردية «هاريس» العديد من منشآت ومبانى الملك «رمسيس الثالث» فى حين ذكرت بردية «الاضرابات» كيف أن العمال فى زمن هذا الملك لم يكونوا سعداء بالمرتبات والمعاملات المادية فقرروا أن يقوموا بإضراب منظم فى العام التاسع والعشرين من حكم الملك، وطالبوا كهنة معبد الرمسيوم (معبد الملك «رمسيس الثانى») بصرف مرتباتهم من سمك وخضراوات وملابس (لم يكن هناك عملات معدنية أو ورقية فى تلك الأيام، بمعنى أنه لم يكن هناك نقود للتعاملات المادية بالمعنى المعروف الآن). وقد تمت اتصالات بين المسئولين من كهنة، وعمدة المدينة، ورئيس الشرطة مع المتظاهرين والمضربين، وقد تعامل جميع المسئولين مع الموضوع الشائك بحنكة وسياسة، فقد سمح رئيس الشرطة للعمال بالتعبير عن رأيهم الغاضب عن طريق اصطحابهم إلى المعبد الملكى ليجلسوا هناك ويعرضوا كل طلباتهم. وهذه الطريقة هى طريقة متحضرة جدًّا، حيث يتبعها الكثير من الأنظمة السياسية الآن؛ لأنها الأفضل من الناحية الأمنية. وربما يكون رئيس الشرطة قد فعل هذا لتوصيل رأى العمال ومساعدتهم على الإفصاح عمّا يكنونه داخل أنفسهم من اعتراض وغضب، ومن ناحية أخرى يكون هذا كله تحت إشراف المسئولين حتى لا ينفلت زمام الأمر من يد الشرطة، وتتحول الإضرابات إلى ثورة أو شغب. هذا التعامل المنظم والمتحضر بين الحكومة والشعب حدث فى حوالى عام ١١٧٠ ق.م. وفى النهاية قدم عمدة المدينة الحبوب والغلال من مخازن المعبد الملكى كحل للمشكلة ولتهدئة العمال الثائرين، وبالتالى وصل العمال إلى الهدف المنشود وبطريقة عملية وذكية. هذه الحادثة أثبتت للعالم أجمع أن العامل المصرى القديم هو أول من طالب بحقوقه بطريقة منظمة ومبتكرة وحصل عليها، وقد تعلمت حضارات العالم القديمة والمعاصرة من هذه الحادثة الكثير.

توفى الملك «رمسيس الثالث» فى الستينيات من عمره، وقد تم اكتشاف مومياته ضمن خبيئة الدير البحرى، وتم فك اللفائف الكتانية على يد العالم «ماسبيرو» فى ١ يونيو عام ١٨٨٦م أمام الخديو «توفيق». ولم يتم الكشف عن أى دليل فى المومياء على أن الملك مات مقتولًا أو نتيجة محاولة اغتيال، وهو ما يؤكد فشل محاولة الاعتداء على الملك عن طريق «مؤامرة الحريم» المذكورة آنفًا. وقد استعاض المحنطون باللفائف الكتانية التى تملئ تجويف العينين بدلًا من العينين. وقد لوحظ وجود ثقبين فى الأذنين مخصصين للأقراط. ومن المعروف أن موضة ارتداء الأقراط قد بدأت فى الانتشار فى وسط الملوك الذكور منذ منتصف الأسرة الثامنة عشرة. وبنهاية حكم هذا الملك يُسدل الستار على آخر الملوك المصريين العظماء، والدليل هلى هذه المقولة يكمن فى تلك المنشآت والمعابد و الأصرح التى تركها لنا. يكمن فى تلك البرديات التى تثبت أنه حكم البلاد بطريقة حكيمة.

تمثال لرمسيس الثالث بمعبده بمدينة هابو ـ البر الغربى ـ الأقصر

ونظرة ثاقبة لمقبرته رقم ١١ فى وادى الملوك تؤكد أن الفن والإبداع النحتى والتكريس والإخلاص الدينى كان قد وصل ذروته إبان حكم رمسيس الثالث.

الملك رمسيس الرابع

حكم ابن «رمسيس الثالث» الأكبر، الملك «حكا ـ ماعت ـ رع رمسيس الرابع» لمدة لا تتجاوز الست أو السبع سنوات (١١٦٣ - ١١٥٦ ق.م). واسمه يعنى «حاكم العدالة مثل رع، ورع خَلَقَه» ثم غير اسمه لاحقًا إلى «أوسر ـ ماعت ـ رع ستبن ـ آمون». عاش هذا الملك حوالى خمسين عامًا من العمر، ومن المحتمل أن يكون قد عانى قبل وفاته من مرض ما أشعره بدنو أجله، وهذا ما استنبطه المؤرخون من نص قديم تركه لنا الملك يدعو فيه للأرباب ويجزل لهم الهبات والهدايا من أجل إطالة عمره، وعلى المستوى المعمارى والإنشائى لم يربو الملك «رمسيس الرابع» إلى مستوى والده، حيث ترك لنا آثارًا قليلة إذا ما قورنت بمعابد ومقبرة أبيه. وحتى مقبرته رقم ٢ فى وادى الملوك، والتى تم الكشف عنها عام ١٩٠٥م على يدى الأثرى «إيرتون»، لم تكتمل لوفاة الملك قبل أن ينتهى العمال من إبداعاتهم، ومع هذا فقد بقيت إلى يومنا هذا ألوانها محتفظة برونقها. لم يقم بأية حملات عسكرية مؤثرة خارج مصر، وانصبت اهتماماته على أعمال أخرى ذات فائدة، مثل بعثه بالعمال إلى وادى الحمامات لجلب أحجار الشست (وهى من الصخور المتحولة Metamorphic Rocks.؛ إذ إنها تتحول متأثرة بالارتفاع فى درجات الحرارة والضغط، وقد استخدمها المصرى القديم فى كثير من الأعمال الفنية، والتى احتفظت بحالتها الممتازة إلى يومنا هذا، مثل «صلاية نارمر»[1] الشهيرة بالمتحف المصرى بالقاهرة، وقد أُطلق على هذا الحجر اسم «بخن» بالهيروغليفية)، وقد اكتشف العالم الفرنسى «ڤيكتور لوريه» مومياء الملك «رمسيس الرابع» فى عام ١٨٩٨م، ولوحظ أن المحنط المصرى القديم قد وضع بصلتين (مثنى بصلة) بدلًا من العينين، ووضع حلقتين من البصل ليسد فتحتى الأنف، وقد ملأ فراغات الجمجمة والأنف بالصمغ، وهو ما ساعد المومياء على الاحتفاظ بنفسها فى حالة جيدة، مع القليل من الأجزاء المكسورة مثل الثقب الذى وجد خلف الرأس، والقطع الذى تم دراسته فوق منطقة الحوض، وهى من نتاج محاولات اللصوص ونابشى القبور للبحث عن المجوهرات.

(١) هى قطعة حجرية كانت تستخدم فى طحن وسحق الأحجار وتحويلها لمسحوق بودرة رقيق يستخدم فى عمل الألوان ومواد الزينة. (أنظر الصورة صفحة ١٩).

الملك رمسيس الخامس

حكم الملك الشاب «أوسر ـ ماعت ـ رع آمون ـ حر ـ حب ـ شيف رمسيس الخامس» لمدة خمس سنوات فقط، واسمه معناه «قوية هي عدالة رع، رع خَلَقَه، آمون هو قوته»، وهو ابن «رمسيس الرابع» (والبعض اقترح أنه ابن الملك «رمسيس الثالث»). وقد عانى هذا الملك البائس من العديد من الأمراض التى أودت بحياته مبكرًا، وهذا ما ظهر عند دراسة المومياء، والتى تم اكتشافها فى خبيئة الملك «أمونحوتب الثانى» بوادى الملوك فى عام ١٨٩٨م، وتم فك لفائفها فى ٢٥ يونيو من عام ١٩٠٥م بالمتحف المصرى بالقاهرة، و كان الملك قد أصيب بالفتاق والجدرى قبل وفاته، ويعتقد عالم التحنيط الشهير «سميث» أن ذلك كان فى العام الخامس والعشرين من حياته. ولم يترك الملك «رمسيس الخامس» الكثير من البنايات أو النصوص، اللهم إلا مقبرة غير مكتملة بوادى الملوك، وهى مقبرة رقم ٩، والتى شاركه فيها الملك التالى «رمسيس السادس».

منظر ملون جدارى من مقبرة الملك رمسيس السادس ـ وادى الملوك ـ الأقصر

مناظر لمقابر وادى الملوك وترجع إلى عصر المملكة الحديثة

الملك رمسيس السادس

الملك «نب ـ ماعت ـ رع ميرى ـ آمون رمسيس السادس آمون ـ حر ـ خب ـ شيف» حكم من عام ١١٥١ إلى ١١٤٣ ق.م. معنى اسمه: «بالحقيقة هو رع، محبوب آمون، رع خَلَقَه، آمون هو قوته». وهو ابن من أبناء «رمسيس الثالث»، وقد اتصف حكمه بالضعف والوهن العسكرى وظهر هذا فى تراجع الجيوش المصرية فى آسيا وأرض كنعان، وأيضًا فقدان السيطرة على سيناء ومحاجرها الغنية، ومع هذا فقد ترك لنا مقبرة (هى رقم ٩ بوادى الملوك) غاية فى الإبداع، اكتشفها العالم «جيمس بيرتون» فى العشرينيات من القرن التاسع عشر الميلادى. وقد احتوت جدران هذه المقبرة العميقة على العديد من النصوص القديمة من فصول كتاب الأبواب ذو النصوص المقدسة التى تشرح كيفية عبور المتوفى عبر الأبواب فى الحياة الأخرى، والكهوف وهى تلك الأماكن الغامضة التى يعبر عليها المتوفى فى رحلته إلى الأبدية، وأسماء الموتى، وما هو كائن فى العالم الأسفل، وبغرفة الدفن تم اكتشاف تابوت محطم كبير. ويعتبر سقف هذه الغرفة الأخيرة من أجمل ما أبدع الفنان المصرى القديم من رسم ملون على الحجر. فالسقف هنا مقبب بعض الشيء وبه منظران متوازيان للربة «نوت» ربة السماء الأسطورية مصاحبة لنصوص من «كتاب اليوم» وهو أحد فصول «كتاب السموات». ويبين المنظر الشمس وهى تُبتلع عن طريق «نوت»، ثم يُعاد بعثها وولادتها من جديد عندما تخرج من أسفل جسم «نوت»، والتى تظهر هنا على شكل امرأة منحنية ممدودة الذراعين، ويظهر أيضًا الكثير من الشخصيات المقدسة والأرباب، ومشهد للجعران المجنح والقوارب الشمسية التى تبحر على سطح صفحات المياه السمائية. وقد ترك لنا أيضًا الفنان القديم مناظر للرب الأسطورى «إيكر» وهو من الأرباب الأوائل، ويظهر على شكل تمثالين لأبى الهول. ورغم وضع الكهنة للكثير من المشاهد التى تؤكد معاقبة الأرواح الشريرة والشخصيات الكارهة للملك خلال رحلته للأبدية (بعض هذه المشاهد تبين أسرى مقيدى الأيدى ومقطوعى الرءوس) إلا أن هذا لم يردع اللصوص ونابشى القبور، فاخترقوا كل حواجز اللعنة المنصوص عليها فى الكتابات الهيروغليفية بالمقبرة. وعندما تمت دراسة المومياء عام ١٩٠٥م، وجدت فى حالة مزرية، فالجمجمة قد تم تحطيمها وهى غير موجودة الآن، ولكن بقى الجلد المحنط المجفف للوجه، ولكن الأسنان التى وجدت كانت حالتها غير سيئة. وقد اقترح العالم «سميث» أن طول الملك عند مماته كان حوالى ١ متر و٧١ سم.

مناظر ملونة من مقابر وادى الملوك ـ البر الغربى ـ الأقصر

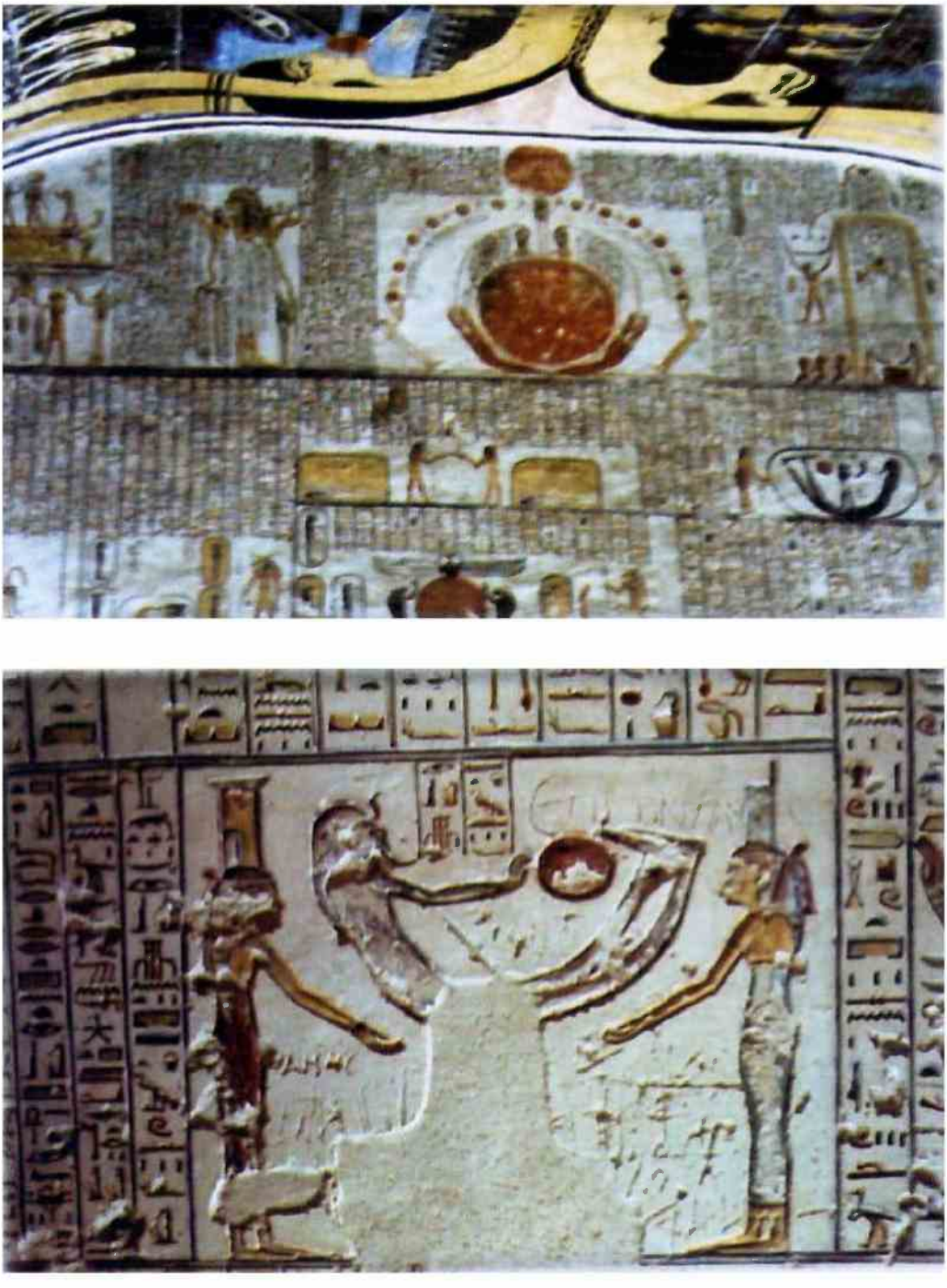

مناظر جدارية من مقبرة رمـــيس السادس بالبر الغربى بالأقصر ـ وادى الملوك

الملك رمسيس السابع

الملك «أوسر ماعت رع مرى آمون ستبن رع، رع مس آن آمون نتر حقًّا أون» هو الملك «رمسيس السابع»، والذى حكم مصر حوالى ست سنوات. ورغم أن المعلومات المتاحة عن هذا الملك قليلة وذلك لعدم الكشف عن آثار كثيرة له (والسبب هو ربما ندرتها فى الأصل أو عدم وصول المكتشفين لها حتى يومنا هذا)، ورغم عدم اكتشاف مومياته؛ مما زاد من الإبهام الذى يحيط، به إلا أن مقبرته التى تم دراستها باستفاضة لهى دليل على تطور فن النحت والتلوين فى عصره، وقد حافظ الفنان المصرى القديم على مستواه الرائع فى هذا المضمار. مقبرة الملك «رمسيس السابع» هى المقبرة رقم «واحد» فى وادى الملوك، وبها العديد من المناظر البديعة لرب الشمس على شكل القرص المنير الذى يجاوره الملك وأرباب أخرى، وتم نحت العديد من النصوص المقدسة بالكتابات الهيروغليفية لفصول «كتاب البوابات» و«كتاب الكهوف» و«كتاب الأرض»، وتم ذكر الرب «أوزوريس» أكثر من مرة، ولكن أكثر المناظر أهمية هو منظر للقارب المقدس للرب الأسطورى يقوده عن طريق شده بالحبال مجموعة من الأرباب. على القارب توجد مقصورة على شكل «مقصورة» يقف بها الرب الشمسى تحميه حية طويلة ملتوية كان يقال لها «محن»، وهو اسم الثعبان الذى كان المصرى القديم يعتقد أنه سوف يحمى الرب الشمسى خلال رحلته على قاربه عبر طرق ودهاليز وسبل الحياة التى هى كائنة فى العالم الأسفل.

والغريب فى هذه المقبرة أنه فى غرفة الدفن تم الكشف عن حفرة لتحتوى المومياء، ولكن هذه الحفرة المخصصة لدفن الملك مغطاة بتابوت مقلوب ومفتوح من أسفله، وقد تم نحت هذا التابوت على شكل يقارب ويماثل بشدة شكل الخرطوش الملكى.

الملك رمسيس الثامن

الملك «أوسر ماعت رع آخن آمون، رع مسس ست حر خبشف» من الملوك الغامضين الذين لم يتم الكشف عن آثار لهم. فلم يوجد لهذا الملك مقبرة أو مومياء أو معبد حتى الآن، ولكننا نعلم أنه كان أحد الأمراء الرعامسة وقد حكم قرابة العام. ومن المؤكد أن البلاد فى وقته قد وصلت إلى حالة اقتصادية واجتماعية متردية ظهرت علاماتها بوضوح فى عصر الملك الذى جاء بعده.

مناظر جدارية للأرباب الأسطورية المصرية القديمة ـ وادى الملوك ـ البر الغربى ـ الأقصر

مناظر من مقابر وادى الملوك بالبر الغربى بالأقصر

حكم الملك «رمسيس التاسع» قرابة السبعة عشرة عامًا. ورغم طول مدة حكمه، والتى تعطى الانطباع باستقرار الأمور بعض الشىء إذا ما قورنت بالملوك الذين سبقوه، ورغم جمال وعمق ودقة مقبرته بوادى الملوك، إلا أن هذا كله لم يخف على المؤرخين حالة الفوضى والفقر وعدم الأمان الداخلى التى كانت البلاد تعانى منها. وعلى ما يبدو أن انهيار الحالة الاقتصادية للبلاد وضعف الحكام من ناحية، وانتفاضة الجياع التى أدت إلى حالات عديدة من السرقة وعدم احترام القوانين من ناحية أخرى أدت إلى حدوث شرخ كبير فى آليات الحكم آنذاك، وكانت هذه الحالات الشعبية الغاضبة ممزوجة بالإحساس بعدم توافر الأمن ولقمة العيش. فاخترقوا حرمة الأموات وتومت سرقة المقابر لما فيها من أشياء ثمينة. وسرقة المقابر عن طريق الأهالى كان نذير خطر؛ لأن هذا كان يعنى عدم إيمان هؤلاء الأهالى بتلك النصوص الدينية، التى سوف تجلب اللعنة على هؤلاء الذين سوف يخترقون بوابة المقبرة ويقلقون صاحبها من سباته الأبدى. وهذا دليل على تردى الحالة والشعور الدينى فى البلاد فى ذلك الوقت. فلم يبالوا بالحرس، أو النصوص، أو اللعنات، كان الفقر والجوع والفوضى أقوى من كل هذا. فاختلط الحابل بالنابل، ولم تفلح محاولات الملوك المتوفين والمدفونين فى مقابرهم فى حماية أنفسهم عن طريق وضع الخناجر والتعويذات لحمايتهم. لم يكترث هؤلاء اللصوص بكل هذا. وهذا ما يجعلنا نعتقد أن على طول عصر الأسرات كان هناك عدد ليس بقليل من أفراد الشعب لم يكونوا يؤمنون بالعقيدة الملكية التى كانت تُمارس فى المعبد، هذه العقيدة التى حرصت على إظهار الملك بشكل مقدس وبطبيعة ربانية، ولكن الواضح أن الشعب كان له رأى آخر، بل لقد وصل شعوره إلى حد الاستهزاء بهؤلاء الملوك وقوتهم الساحرة المزعومة التى تستمر حتى بعد مماته. يقول أحد النصوص: «أجساد تذهب وأجساد تأتى من زمن الأوائل ... لقد استمعنا إلى كثير من كلمات الحكماء «إيمحتب» و«ددف حور» ... ولكن أين الحكماء وأين ديارهم ؟ تهدمت جدرانهم وطاحت مساكنهم وما عاد منها كيان ... ذهبوا ولم يعد منهم أحد ... ذهبوا وما قال لنا أحد عن حالهم شيئًا .. ولا حكى لنا أحد عن مطالبهم ولم يطمئنا أحد عليهم .. لم يذهب أحد وأخذ أى شىء معه ...لم يذهب أحد وعاد مرة ثانية .. الذى مات قلبه، ولم يسمع صراخ أحد .. والنعى لم يخلص أحد من الآخرة». إذن، كان هناك إيمان بالحياة الأخرى فى الأوساط الشعبية، ولكن لم يعتقدوا أن هؤلاء الحكام والحكماء سوف يكون لهم قوة الرجوع إلى هذه الحياة أو تحوله إلى رب مقدس بعد وفاته، وقدعلمنا عن سرقات المقابر

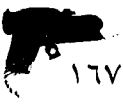

فى عصر الملك «رمسيس التاسع» عن طريق دراسة عدد من البرديات مثل بردية «أبوت» وبردية «أمهرست»، وبردية «هاريس» وغيرها، والتى ذكرت عمليات السرقة بالتفاصيل والقبض على اللصوص واعترافاتهم خلال التحقيق معهم. قال أحد رجال الملك: «إن عشر مقابر من مقابر الملوك وأربعًا من مقابر الملكات، وكثيرًا من مقابر النبلاء قد دخلها اللصوص وسرقوها». وفى حالة من الحالات المضبوطة كان نصيب اللصوص حوالى ١٤,٥ كيلو جرامًا من الذهب تمت سرقتها من المقبرة. وتدل هذه السرقات أيضًا على فساد الذمة عند بعض المسئولين عن هذه المقابر وحمايتها. وقد توفى الملك «نفر ـ كا ـ رع ستبن ـ رع رمسيس التاسع» حوالى عام ١١٠٨ ق.م بعد فترة حكم غير قصيرة، وقد تم نقل مومياته عن طريق الكهنة من مقبرة رقم ٦ فى وادى الملوك إلى مقبرة رقم ٣٢٠ المعروفة بخبيئة الدير البحرى، لحمايتها من الدمار والسرقة. وقد كشف ونقب فى هذه المقبرة الإنجليزى «هنرى سولت» فى عام ١٨١٧م ثم «دارسى» فى عام ١٨٨٨م، وتمت دراسة نصوصها بدقة لأهميتها. وقد تميزت مقبرته بالإبداع فى مجال النحت والتلوين، ولكن على ما يبدو أن الملك توفى قبل الانتهاء من الأعمال فيها. وهذا ما يظهر جليًا فى المناظر الجدارية لغرفة الدفن، والتى يمكن أن توصف بالرعونة فى الأداء من جهة الفنان، ربما يكون السبب هنا أنه كان تحت ضغط عامل الوقت، فأسرع فى إنهاء المناظر وتلوينها؛ فظهرت دون المستوى إذا ما قورنت ببقية المناظر. بل إن مستوى نحت السقف والجدران لغرفة الدفن نفسها كان رديئًا لا يربو إلى مستوى الفنان المصرى القديم، ولكن مع الفنان كل العذر؛ لأنه كان لديه ٧٠ يومًا فقط لينهى المهمة، تلك الأيام السبعون التى سوف يتم تحنيط الملك فيها.

الملك رمسيس العاشر

الملك «خبر ـ ماعت ـ رع ستبن ـ رع رمسيس العاشر» حكم حوالى تسع سنوات (١١٠٨ - ١٠٩٩ ق.م). استمرت خلال سنين حكم هذا الملك حالة التردى فى الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية للبلاد. ولم يوجد لهذا الحاكم الكثير من الآثار إلا بعض قصاصات البردى وشقافات أوستراكا حجرية، وبعض تماثيل صغيرة على هيئة جعارين. ومقبرته فى وادى الملوك هى مقبرة رقم ١٨ وهى غير مكتملة ومصابة بالتدمير من جراء الفيضانات الناتجة عن المطر. وقد اهتم بمناظر هذه المقبرة العالم الفرنسى الشهير «شامبليون» والذى كان بارعًا فى الرسم كما هو بارع فى علم اللغات. فرسم بعض المناظر الموجودة بالمقبرة، ولكن لم تكن براعة هذا العالم لتكتمل؛ إذ

إننا اكتشفنا الكثير من الأخطاء والذلات له، وذلك عبر دراسة رسائله التى كان يبعثها إلى فرنسا عندما زار مصر الزيارة الوحيدة فى حياته عام ١٨٢٨م.

أخطاء شامبليون

«جان فرنسوا شامبليون» هو مؤسس علم الكتابة المصرية القديمة، ويحلو لبعض المؤرخين إطلاق لقب «أبو علم المصريات» عليه. زار مصر لدراسة الآثار والتاريخ، ومكث بها من شهر أغسطس ١٨٢٨م حتى ديسمبر ١٨٢٩م. وهو عالم مجتهد ودءوب، ولكنه كان له زلاته الغريبة وأفكاره الغير نمطية. فقد اعتقد أن السلم المتنقل والأسفنجة اللذين كانا يستخدمهما فى تنظيف المناظر الجدارية والنقوش القديمة هما أعظم اختراع للبشرية، وقد ذكر هذا فى خطاب بعثه إلى فرنسا من منطقة «بنى حسن» بالمنيا بتاريخ ٥ نوفمبر ١٨٢٨م. وقد اعترف «شامبليون» بأن الأمر قد اختلط عليه ـ وفى الحقيقة إن أبا علم المصريات قد أخطأ ـ عندما أرخ بعض الأعمدة الحجرية المنحوتة فى جبل «بنى حسن» إلى العصر اليونانى الإغريقى؛ لأنها كانت تشبه إلى حد كبير الطراز الدُورى (وهو من الطرز الإغريقية فى تشييد الأعمدة)، ومن الواضح أنه كان يقصد هنا أعمدة مقبرتى «باكت» و«خيتى» عندما ذكر فى مذكرته ورسائله إلى «فيجاك» أن مقابر أقصى الشمال فى مجموعة «بنى حسن» تتميز باحتوائها على رواق أمام أبوابها منحوت فى الصخر، يتكون من أعمدة تشبه للوهلة الأولى الأعمدة الدُورية اليونانية الموجودة حتى الآن فى آثار صقلية وإيطاليا وغيرها من الآثار اليونانية، ونجد أنه لزامًا علينا وللأمانة التاريخية أن نصحح ما كتبه «شامبليون» فى رسالته. يقول «شامبليون»: «... كما عثرت فى نفس المقبرة (وقد ذكرها من قبل على أنها مقبرة للمشرف على الأراضى الشرقية واسمه «نيبوتيف») على لوحة فى غاية الأهمية تصور كاتبًا ملكيًا يقوم باستعراض خمسة عشر أسيرًا من الرجال والنساء والأطفال أوقع بهم أحد أبناء «نيبوتيف»، ومن الواضح أنه كان يتكلم هنا على مقبرة «خنوم حتب» وهو عمدة وأمير «مناعت خوفو»، البلدة التى وُلد بها الملك «خوفو» الشهير صاحب هرم الجيزة الشهير. كان «خنوم حتب» فى منصبه هذا أيام حكم الملك «أمنمحات الثانى»، ويستطرد «شامبليون» قائلًا: «... ويقدم الكاتب لسيده فى الوقت ذاته قرطاسًا برديًا دَون فيه بالتفصيل تاريخ القبض على هؤلاء الأسرى وعددهم سبعة وثلاثون أسيرًا. وقد كانوا طوالًا، ومعظمهم له سحنة غريبة وأنف أقنى، واستخدم اللون الأصفر الفاتح فى تلوين أجسادهم، وقد ارتدى الرجال والنساء الثياب الفاخرة المزركشة، والتى

تشبه ملابس نساء الإغريق المصورة على الآنية الإغريقية القديمة (واضح هنا تأثر «شامبليون» بالحضارة الإغريقية) ... وأنا على يقين من أن هؤلاء القوم أغريقيون أيونيون أو من بلاد آسيا الصغرى المجاورة للمستعمرات الآيونية ... (ثم ينهى شرحه للمنظر الجدارى قائلًا) ... هؤلاء حقًّا إغريقيون من القرن التاسع قبل الميلاد، رسمتهم بأمانة أيدى المصريين.

والحقيقة المتعارف عليها فى هذا المضمار هى أن هؤلاء الأجانب كانوا من القوم الذين أطلق عليهم المصريون القدماء اسم الـ«عامو»، وهم من أصل آسيوى وليس إغريقيًّا كما قال «شامبليون» ثُم إن تاريخ هذه المقبرة المؤكد هو ١٩٢٩ - ١٨٩٥ ق.م. وهذا ما يؤكد خطأ «شامبليون»؛ لأن فى هذا التاريخ لم يكن هناك ممالك أو بلاد إغريقية أو إمبراطورية يونانية على النحو المتعارف عليه. وللأسف كان «شامبليون» شخصًا عصبيًّا إلى حد ما، لا يحب أن يعارضه أحد أو لا يتفق مع آرائه. وكان فى بعض الأحيان يستخدم لغة غير لائقة فى الرد على معارضى نظرياته أو أفكاره واصفًا إياهم بمواصفات دنيئة.

الملك رمسيس الحادى عشر

حكم الملك «من ماعت رع ستب إن رع رع مس الحادى عشر»[1] من عام ١٠٩٩ إلى ١٠٦٩ ق.م. وهو آخر ملوك الأسرة العشرين وآخر الملوك الرعامسة أيضًا. استمرت حالة الوهن فى البلاد إبان حكم هذا الملك وضرب الضعف أرجاء المدن والقرى. وبدأ الكهنة فى اعتلاء المناصب العالية المتحكمة فى مقاليد الحكم حتى إن بعض الأثريين يعتقدون أن فى عدد غير قليل من سنوات حكم هذا الملك لم يكن هو الحاكم الفعلى للبلاد. لم تكن لمصر أية هيمنة على الممالك المحيطة، ولم تكن معاملة المصريين الزائرين لحكام تلك الممالك الأجنبية بالمعاملة الطيبة كما كانت فى الماضى مما يدل على معرفة الملوك الأجانب بالحالة المتردية للحكام والبلاد. وفى السنين الأخيرة لحكمه بدأت شخصيات مهمة فى الظهور مثل «حريحور» وقد لُقب بالكاهن الأكبر بمعبد آمون بطيبة، وكان أيضًا قائدًا للجيش. وقد تمكن «حريحور» من فرض سلطته السياسية على مصر العليا متضمنة طيبة والنوبة. وتم الكشف عن خراطيش ملكية له ولزوجته مما أكد أنه قد حكم كملك متفرد على هذه المنطقة، ولكنه لم يستطع ـ على ما يبدو ـ أن ينفرد بحكم مصر كلها، وكان ظهور «حريحور»

(١) لم يعدد أو يرقم أو يرتب المصرى القديم ملوكه وحكامه. هذه الأرقام والترتيبات حديثة. فمثلاً لم يسمِّ هذا الملك بالحادى عشر، هذا الترتيب هو إضافة من علماء الآثار لتسهيل عملية التذكرة بأن هذا الملك هو الحادى عشر من الملوك الذين حملوا اسم رمسيس.

علامة واضحة تدل على ضعف حكم «رمسيس الحادى عشر». وفى مقبرة رقم ٤ بوادى الملوك تم دراسة النصوص الدينية التى أمر بنحتها هذا الملك، ورغم طول مدة حكمه إلا أن المقبرة لم تكتمل نقوشها رغم عمقها، ولكن تم الكشف عن مناظر دينية تُظهر الملك مع الأرباب كالعادة مثل الربة «ميريت ـ سجر» الربة الحامية، وفى عام ١٩٧٩م تم تنظيفها والتنقيب فيها عن طريق العالم القدير «جون رومر»، والذى كانت تمثل بعثته المتحف الأمريكى الشهير، ومتحف بروكلين بنيويورك، وقد عاش داخل هذه المقبرة عدد من أفراد الشعب المصرى المسيحيين هربًا من اضطهاد الرومان.

وبنهاية حكم «رمسيس الحادى عشر» يُسدل الستار على فصل آخر من فصول العبقرية المصرية القديمة، وهى الأسرة العشرون. أسرة، بدأت وانتهت بفترات مضطربة ووهنة، وتوسطتها أسماء هى الألمع فى تاريخ حكام مصر القديمة. أسرة تمتعت بالانتصارات والإنجازات احتضنتها روح الإنسان المصرى المبدع، ولكن كانت هناك أيضًا ومضات من الانكسارات والإحباطات غزلتها يد الظروف المطروحة، وأصبحت سببًا لإعادة هيكلة النظام الحاكم والنظام الأمنى والاقتصادى للعصور القادمة.

❁ ❁ ❁

العصر الوسيط الثالث (عصر الانتقال الثالث)
(١٠٦٩ - ٩٤٥ ق.م)

الأسرة الحادية والعشرون (١٠٦٩ - ٩٤٥ ق.م)

الملك «حدج ـ خبر ـ رع ستبن ـ رع سمندس» حكم البلاد حوالى ٢٦ عامًا، وهو أول حكام تلك الأسرة، ولكن كانت هذه الفترة الوسيطة هى فترة خلط وغموض، إذ كان هناك فى بعض الأوقات أكثر من حاكم فى الوقت نفسه، يحكم كل ملك من مدينة مختلفة، وكانت تانيس هى المدينة المهمة والعاصمة القوية التى يحكم منها الكهنة الذين استطاعوا الوصول إلى العرش؛ وذلك لقوتهم الدينية وسيطرتهم على مقاليد الأمور الاقتصادية والاجتماعية معًا، وهى الآن منطقة «صان الحجر» بالشمال الشرقى من الدلتا، ومن الممكن القول إن «تانيس» كانت هى المكان المفضل لبعض ملوك الأسرة الحادية والعشرين والثانية والعشرين من المصريين والأجانب لبناء معابدهم ومقابرهم، بل لقد نقل هؤلاء الملوك الكهنة، والملوك الأجانب كثير من الأحجار والتماثيل من مدينة «بى ـ رمسيس» المجاورة، والتى كانت تحتوى على الكثير من آثار الملك «رمسيس الثانى». واسم «سمندس» يذكرنا بالرب «مندس» الكبش الأسطورى الذى كانت تُنحت له التماثيل وتُحنط له الكباش. وتحنيط الحيوانات المقدسة كان من العادات والتقاليد الدينية والطقسية المعروفة فى مصر القديمة.

تحنيط الحيوانات فى مصر القديمة

لقد أظهر المصرى القديم تقديره لقدرات الكثير من الحيوانات والطيور، واصطفى من كل حيوان صفة معينة خاصة به، أو حركة جسمانية لمحها فى الحيوان، أو صفة بعينها مثل السرعة أو الجرأة أو القوة العضلية، أو الذكاء الفطرى، أو جمال الشكل، ثم جعل هناك علاقة وطيدة بين هذه الصفة والرب الذى أراد أن يصفه بهذا النعت. فمثلًا كان لزامًا على «آمون» أن يكون قوى

الشكيمة جزء المراس، فاختير له الكبش، ولذلك وجدنا عددًا غير قليل من تماثيل أبى الهول الحامية ذات رأس الكبش أمام الصرح الأول لمعبد الكرنك، وقد أهداها الملك «رمسيس الثانى» للمعبد، وكذلك الرب «مندس» والذى كانت تقام له الشعائر وتُنشد له التراتيل حتى الأسرات المتأخرة من تاريخ مصر القديمة، وقد بين اختيار الحيوان المحدد للرب الأسطورى قدرًا كبيرًا من طريقة تفكير ذلك الزمان. فمثلًا وجد المصرى أن هناك حيوانًا من العائلة الكلبية وهو «ابن آوى»، يحوم دائمًا حول مقابر المتوفين، ينبش القبور ويلتهم الأجساد التى اعتبرها المصرى القديم مهمة جدًا لعملية الوصول إلى الجانب الآخر فى رحلته للوصول إلى الحياة الثانية التى يتمناها ويريدها، ولما كان «ابن آوى» يهدد هذا الوصول، وهذا الاعتقاد الدينى المهم، بأكله للمومياء أو الجثمان أو العبث بها، أراد المصرى أن يستميله إلى جانبه متمشيًا مع المثل الشائع: «إذا لم تستطع أن تغلبهم ... إذن ضمهم إليك». فجعله رمزًا لرب الحفاظ على الأجساد من البلاء والعفن. وجعله أيضًا رمزًا للتحنيط وحماية القبور، وجعل فردًا آخر من أفراد عائلة الكلاب رمزًا لفتح الطرق والبوابات فى العالم الآخر- وأطلق عليه «ويب ـ واويت». أما «ابن آوى» فقد أطلق عليه اسم «إينبوه» (أنوبيس).

منظر منحوت لابن آوى ـ حديقة المتحف المصرى ـ القاهرة

تبجيل ابن آوى كان واجبًا دينيًا عند المصرى القديم

ولأنوبيس عدة تماثيل ومناظر ملونة بالمعابد والمقابر. فيكاد لا يوجد معبد أو مقبرة فى مصر القديمة إلا وتجد بها نصًا مكرسًا أو منظرًا ملونًا للرب «أنوبيس». وكان دائمًا ما يطلى باللون الأسود، ويمثل وأُذناه مرفوعتان؛ وذلك لسبب ألا وهو أن المصرى كان يريده دائمًا فى حالة استعداد وتأهب للهجوم على الأعداء أو الأرواح الشريرة. ومن أجمل التماثيل لأنوبيس هو التمثال الخشبى الأسود الموجود الآن بالمتحف المصرى بالقاهرة ضمن مجموعة الملك الذهبى «توت عنخ آمون»، وهو تمثال غاية فى الدقة حيث تظهر تفاصيل الوجه والذيل والجسد، بل وعظام القفص الصدرى بشكل تشريحى بديع. ويعتقد البعض أن داخل ذلك التمثال الخشبى مومياء حقيقية محنطة لحيوان «ابن آوى». ويعتقد بعض العلماء أن حيوان أنوبيس ليس «ابن آوى» فى الحقيقة، ولكنه حيوان من فصيلة الثعالب؛ لأن الذيل المبين فى المناظر المنحوتة والتماثيل والتمائم لأنوبيس أطول من ذيل «ابن آوى»، ويماثل ذيل الثعلب الصحراوى الذى يقطن الصحراء المصرية، وقد حُنطت أيضًا الكلاب وتم الكشف عنها فى جبانات أسيوط والأقصر، بل وفى وادى الملوك.

وفى حالات أخرى كان المصرى القديم يتقى شر حيوان بعينه فيعينه رمزًا لرب أسطورى، وأقدم مثال لهذا هو حيوان الأسد، ففى منطقة حوض كوم أمبو بجنوب مصر، وُجدت مقابر بها عظام أسود ترجع إلى عصور ما قبل الأسرات، وهذا دليل على تبجيل المصرى البدائى لهذا الحيوان القوى. وقد استمر هذا التبجيل لمدة طويلة جدًّا مستحضرًا قوة الحيوان ومجسدًا إياها. يحضرنا هنا نص يقول فيه الملك «رمسيس الثانى» واصفًا نفسه: «أسد قوى، مخالب ممتدة وزئير مخيف يرعد فى الوادى حيث يوجد وحش الصحراء». وفى هليوبوليس كانت قصة الخلق الأسطورية تقول بأن أول ربين مقدسين خلقهما الرب «آتوم» كانا شبلين (واحدًا ذكرًا والآخر أنثى) وهما مسئولان عن شروق الشمس وغروبها. وبالتالى أصبح الأسد بنوعيه ـ الذكر والأنثى ـ هو أول رمز يربط الشمس بالأبدية والبعث، وهو ما اعتمدت عليه الديانة المصرية القديمة على مدار آلاف السنين كقاعدة دينية صلبة انطلق منها الكثير من الاعتقادات الدينية المصرية القديمة.

وقد كانت «سخمت» هى أنثى الأسد القوية التى تمثل الرعب والحماية والرعد والبرق والحروب! أما عن العِجل فقد كان رمز الخصوبة والقوة البدنية الدائمة، وقد أطلق عليه اسم «أبيس»، وقد كان الملك الحاكم يطلق على نفسه لقب الثور القوى أو العِجل المخصب، وقد تم تحنيط العجول ودفنها فى توابيت ضخمة توزن العديد من الأطنان تصل فى بعض الأحيان إلى ٨٠ طنًا، مثل تلك التى تم الكشف عنها فى سراديب السرابيوم بسقارة، ولم يكن يتم اختيار

الربة الأسطورية سخمت ـ المتحف المصرى ـ القاهرة

الجعل أو الجعران كان رمزًا للشمس والأبدية ـ المتحف المصرى ـ القاهرة

العِجل المقدس بطريقة بسيطة أو عشوائية. فلم يكن أى عجل مقدس (وكذلك الحال فى أغلب الحيوانات). بل هو عِجل مختار به مواصفات خلقية كثيرة وضعها الكهنة، بسبب صعوبة توفر كل تلك الصفات فى العجول، كان للنجاح فى الوصول إلى أحد هذه العجول احتفالية كبيرة يفرح لها المصريون، ويحزنون أيضًا حزنًا شديدًا إذا ما نفق هذا العِجل. وهذه المواصفات المراد توافرها فى العِجل هى : أن يكون أسود اللون بعلامة بيضاء على هيئة ماسة على الجبهة، مع منظر طبيعى يشبه طائر العقاب على الظهر، وشعر مزدوج فى ذيله، وعلامة طبيعية تشبه الجعران (الجعران هو نوع من أنواع الخنافس) تحت اللسان. ومن هنا، نعلم أنه لم يكن سهلًا أن يختار الكهنة هذا العِجل المخصوص أو أن يجدوه، وبعد وفاته يتم تحنيطه على موائد كبيرة مخصصة لهذا مصنوعة من الألباستر، وقد تم الكشف عن أمثلة عديدة لهذه الموائد فى منطقة «ميت رهينة» بشبرامنت بالجيزة، وقد بدأت عبادة العجل «أبيس» منذ بدايات عصر الأسرات ـ ومحتمل أن تكون قبلها ـ واستمرت حتى العصور اليونانية والرومانية حتى إن الإمبراطور «هادريان» قد أمر بنحت تمثال بديع لعجل «أبيس» وهو الآن داخل المتحف اليونانى الرومانى بالإسكندرية. وقد تم اكتشافه بجانب المكتبة الصغرى وعامود السوارى بالإسكندرية. وكانت من أكبر أخطاء الحاكم «قمبيز» الفارسى أنه أمر بذبح العجل «أبيس» قاصدًا، وهو ما اعتبره المصريون إهانة كبيرة.

ومن أكثر الأرباب الأسطوريين ارتباطًا بتحنيط الحيوانات والطيور كان الرب «جحوتى» أو «تحوت»، وقد كان يُرمز له بقرد البابون وطائر أبى منجل ذى المنقار الطويل المنحنى. و«جحوتى» كان رمز العِلم والحكمة والعدل، والكلمة والشفاء، والطب وأشياء كثيرة. وقد تم الكشف عن آلاف وآلاف من طائر أبى منجل والقرود المحنطة فى دهاليز وسراديب تحت الأرض فى منطقة تونا الجبل بالمنيا، وبوادى الملوك بالأقصر. ويوجد الآن عدد من مومياوات القردة بغرفة الحيوانات المحنطة بالدور العلوى بالمتحف المصرى بالقاهرة، وهى فى حالة ممتازة من الحفظ لدرجة أنه لا يصعب للناظر أو الزائر أن يرى تفاصيل الشعر والظفر لهذا الحيوان النشيط. ومن القصص المثيرة أن مجموعة من البريطانيين جاءوا فى الماضى وسرقوا مئات الجثث المحنطة لطائر أبى منجل (Ibis)، ونقلوها إلى مدينة ليفربول بإنجلترا، حيث تم خلط الجثث المحنطة للطائر مع فضلات وروث الحيوانات لصنع سماد يغذى ويخصب الأراضى الزراعية البريطانية، وبذلك فُقدت كميات كبيرة من طيور أبى منجل وذلك لاعتقاد الإنجليز أن الجثث المحنطة تحتوى على مواد مغذية للتربة ومفيدة للزراعة. بل إن أحد ملوك إنجلترا اعتقد بأنه إذا دهن جسده بتراب مصنوع من مومياوات المصريين القدماء بعد طحنها، سوف يعيش للأبد!

وقد تم تحنيط التمساح أيضًا، وشيدت له المعابد والمدافن فى الفيوم وكوم أمبو، وأطلق عليه اسم «سوبك». أما عن تحنيط القطة (والتى أطلق عليها المصرى القديم اسم «مياو» وهو أقرب إلى مواء الهرة فى اللغة العربية) فقد حنطها المصرى القديم كحيوان أليف ليأخذها معه إلى الحياة الأخرى عند البعث؛ لأنه اعتبر قطته الشخصية التى كانت تعيش معه فى البيت شيئًا مهمًا يستحق أن يلازمه فى الحياة الأخرى، وقد لفها بالكتان الفاخر ووضعها فى صناديق خشبية أو حجرية، واقفة تارة ومشدودة على شكل جسد مستقيم تارة أخرى. كذلك تم تحنيط الأسماك مثل قشر البياض النيلى.

واستمر حكم الأسرة الحادية والعشرين من تانيس، فحكم «آمون ام نسو»، ثم الملك «بسيوسينس الأول» وفى الأغلب هو ابن الكاهن الأعلى لآمون «بانيجيم». ويعتبر «بسيوسينس الأول» هو بحق أهم ملوك تلك الفترة المضطربة، وقد كان يحكم مصر السفلى فى حين كانت مصر العليا فى يد الحكام الليبيين. وعندما تم اكتشاف مقبرته على يد العالم الفرنسى «مونتيه» فى تانيس كانت المفاجأة المذهلة أن الأشياء الثمينة التى وجدت كانت على مستوى عالٍ وراقٍ وثمين جدًا لدرجة أن المؤرخين قارنوها بمحتويات مقبرة «توت عنخ آمون». فقد تم الكشف عن قناع ذهبى بديع، وتابوت فضى غالى القيمة للملك «بسيوسينس الأول». وقد امتدت مدة حكم الملك «عا خبر رع ستبن ـ آمون بسيوسينس» من عام ١٠٣٩ إلى ٩٩١ ق.م. ثم تلاه الحاكم «أمن ـ أموبى» الذى حكم من ٩٩٣ إلى ٩٨٤ ق.م. وبعده اعتلى عرش مصر الملك «أوسركون» وهو من أصل ليبى وحكم لمدة ٦ سنوات، ثم جاء الملك «سيى ـ آمون»، والذى حكم من ٩٧٨ إلى ٩٥٩ ق.م، وهو الملك الذى فى عصره تمت أكبر عملية إنقاذ للمومياوات الملكية، فتم نقلها إلى خبيئة الدير البحرى بعد إعادة تحنيط بعضها ولفها مرة أخرى بلفائف الكتان وكتابة بعض العبارات لتأكيد اسم المومياء وألقابها على اللفائف الخارجية، وقد أنجز الكهنة هذه العملية تحت جناح الليل حتى لا يراهم اللصوص فيتعرفوا على مكان الدفن الجديد. وبالفعل بقيت تلك المومياوات الملكية فى أمان حتى تم الكشف عنها فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، فتم نقلها إلى متاحف القاهرة وهذا الفعل النبيل يثبت إصرار هذا الملك على حفظ مومياوات أجدادة الذين سبقوه وذلك يدحض نظرية أن كل فرعون يهدم ما بناه من قبله ويمحى أسمة، ثم اعتلى عرش مصر آخر ملوك تلك الأسرة ألا وهو الملك «بسيوسينس الثانى»، والذى حكم حتى عام ٩٤٥ ق.م.

الأسرة الثانية والثالثة والرابعة بعد العشرين
(٩٤٥ - ٧١٥ ق.م)

استمرارًا لحالة التردى وحكم الأجنبى، كانت هذه الأسرة مليئة بالأسماء الليبية مثل «شيشونق» أو «شاشانق»، و«أوسركون الأول»، و«شيشونق الثانى»، و«تاكلوت الأول»، وغيرهم من الملوك الذين تلقبوا وتسَموا بنفس الأسماء، وقد كانت البداية قوية على يد «شيشونق الأول» الذى أراد أن يعيد أمجاد عصور الرعامسة عندما قاد بعض الحملات العسكرية الناجحة فى آسيا لاستعادة هيبة مصر فى تلك المناطق بعد فترة من الوهن والضعف، واختار تل بسطة ليكون مدينته المفضلة، وقد اختلط فى تلك الأسرة والتى تلتها الحابل بالنابل. فدبت الفرقة والاضطرابات بين أفراد القصر، وطالب العديد من الأشخاص بالحكم، فكان منهم الكاهن والعمدة والقائد العسكرى. وقد اغتصب بعضهم الحكم من بعض. واستمرت فترة القلاقل هذه فى زمن حكم الأسرة الثالثة والعشرين، حيث حكم بعضهم متخذين مدنًا مختلفة كعواصم لحكمهم مثل «هيرا كليو بولس الكبرى»، و«هير موبوليس الكبرى» (بالمنيا) و«ليونتوبولس»، و«تانيس» واحتفظوا رغم هذه الحالة المضطربة بأسماء الملوك الذين جاءوا قبلهم، فقد تم الكشف عن أسماء الملك «شيشونق الرابع» و«أوسركون الثالث»، ولم يتعرف على آثار كبيرة أو مبهرة لهؤلاء الملوك، الشيء الذى يثبت حالة الضعف والوهن التى كانت البلاد عليه إبان فترة حكمهم.

وقد زاد الغضب الشعبى من هؤلاء الأجانب، ولكن كان هذا هو وقت القواد الليبيين، فقد أحكموا قبضتهم على مقاليد الأمور، ورغم أن بعضهم قد انضم إلى قائمة أشهر ملوك مصر الكبار مثل «شيشونق» المنتصر إلا أن حالة الضعف فى أوقات أخرى وصلت إلى حد أن الأسرة الرابعة والعشرين كان بها ملك واحد فقط، ولم يكن له أية أحقية فى اعتلاء العرش وحكم البلاد، وهو الحاكم «باك أن رن إف» والذى اعتلى عرش البلاد خلال فترة قلاقل استمرت من عام ٧٢٧ إلى ٧١٥ ق.م. وبنهاية حكم هذا الملك الغامض تنتهى تلك الفترة الغريبة من تاريخ الأسرات، وتبدأ أسرة جديدة وحقبة جديدة ألا وهى الفترة المتأخرة.

العصر المتأخر (٧٤٧ - ٣٣٢ ق.م)

الأسرة الخامسة والعشرون (٧٤٧ - ٦٥٦ ق.م)

مقدمة

حكم هذه الأسرة النوبية لمصر هو نتاج تلك العلاقة الوطيدة والمتباينة بين المصريين والنوبيين. كان هناك العديد من الحكام الذين حكموا فى عصور بائدة أصولهم جنوبية، وقد تضاربت الأقاويل واختلف المؤرخون حول ما إذا كان حكام مثل «أمنمحات الثالث»، و«آمون حوتب الثانى»، والملكة «تى» والملكة «أحمس نفرتيرى» كانوا جميعًا من أصل نوبى أو جنوبى، ولكن علاقة النوبيين بجنوب مصر وشمالها مؤكدة على الصعيد الملكى والشعبى أيضًا. فنجد فى كتابات المصرى القديمة كلمة واسم «نحسى» بمعنى (النوبى) أو «الأسمر». وقد أطلق المصريون القدماء على النوبة اسم «تا ـ سيتى» أى «أرض القوس»؛ وذلك لتميز النوبيين فى استخدام القوس والسهم فى الأعمال الحربية، وكان هناك دائمًا الفرق العسكرية والفيالق النوبية ضمن أفراد الجيوش المصرية لتميزهم وشجاعتهم وإقدامهم ولقوة أجسادهم أيضًا. ومن أهم العلاقات بين المملكتين هى العلاقات التجارية، فقد ازدهرت وانتعشت التبادلات التجارية والتعاملات الاقتصادية بينهما. فاستوردت مصر من النوبة البخور والصمغ وجلود الحيوانات والذهب وعاج الفيل وريش النعام وبيضه. وقد اضطرت القوارب والمراكب من الطرفين أن تتعامل مع الجنادل والشلالات الستة (وهى جميعًا تقع شمال الخرطوم الآن) التى كانت تعترضهم خلال رحلتهم عبر نهر النيل من وإلى النوبة. وهى جنادل مكونة من الصخور الطبيعية التى تتخللها ممرات عشوائية وقنوات مائية غير منتظمة وبأعماق مختلفة. فكان على الملاحين الانتظار حتى وقت حدوث الفيضان فيرتفع منسوب المياه ليغطى كل تلك الصخور، وبذلك يتسنى لهم الإبحار عبر الجندول أو الشلال،

والجندول المصرى الوحيد موجود حتى الآن فى أسوان، وهو الذى شيد بجانبه سد أسوان القديم، وكانت هناك الممالك النوبية القوية والتى حكمت النوبة العليا فى الجنوب الأقصى والنوبة الوسطى والنوبة السفلى بشمال السودان، ومنها من حكمت جنوب مصر دون شمالها، ومنها من حكمت كل مصر، واتحد فى تلك الأزمنة الجيشان المصرى والنوبى؛ ليحاربا الآسيويين دفاعًا عن مملكتى مصر والنوبة.

وقد حكمت تلك الأسرات النوبية القوية مصر قرابة ثلاثة أرباع القرن، ولكن عمر الحضارة النوبية يصل إلى ٢٥٠٠ عام، وقد تميزت عن كل الحضارات والممالك والأسر النوبية الكوشية (كان اسمها مملكة كوش) والنباتية (نباتا هى أهم مركز سياسى لمملكة كوش) ثلاث فترات زمنية وصلت فيها الحضارة النوبية إلى أوج مراحلها. وهى حضارة «كيرما» (٢٠٠٠ - ١٥٠٠ ق.م)، وحضارة «نباتا» (٧٥٠ - ٢٧٠ ق.م)، وحضارة «المروى»، والتى استمرت حتى سقوط المملكة النوبية فى حوالى ٣٢٠م. وقد تم الكشف عن آثار تلك الحضارات العريقة، والكشف عن معابدها وأهراماتها العديدة على يد الأثرى الأمريكى «جورج ريزينير» بين عامى ١٩١٦ إلى ١٩٢٣م، والذى أكد وجود تسعة عشر مدفنًا «نباتى» فى منطقة «نورى» بالنوبة العليا (حوالى ٢٥ كم جنوب غرب الجندول الرابع بالقرب من «نباتا»). أما فى منطقة «مروى» (على البر الشرقى لنهر النيل بإقليم بوتانا السودانى الآن) فقد تم اكتشاف معابد الأرباب المصرية بجانب الأهرامات النوبية. وفى منطقة «الكورو»، والتى تَبعُد حوالى كيلو ونصف الكيلو متر غرب نهر النيل، و١٦ كم من جبل بركل المقدس لدى النوبيين، تم الكشف والتنقيب فى ٣٦ مدفنًا ملكيًّا. «الكورو» كانت المكان المفضل للدفن لدى حكام الأسرة الخامسة والعشرين النوبية مثل «كاشتا» و«بيى» و«شاباكا»، و«شيبيتكو» و«تانوتامون» ومعهم مقابر ١٤ ملكة وعدد من الأشخاص المتميزين، ولكنهم غير معروفين بالاسم لدينا. ملك واحد فقط قرر عدم بناء مدفنه بـ «كورو». كانت أغلب أهرامات «كورو» تتميز بزوايا انحدار حادة (تصل إلى ٦٨ درجة أحيانًا) وتتفرد عن أهرامات مصر بأن كان لدى كل هرم معبد ومدخل مبنيان فى الناحية الغربية للهرم، ولكن كانت جبانة «نورى» تساوى ضعف جبانة «كورو» من حيث المساحة، وتحتوى على مدافن الملوك النوبيين فى الفترة ما بين حكم الملك «طهرقا» (صاحب أكبر أثر ملكى فى مملكة كوش كلها وهو هرمه بمنطقة نورى) إلى الملك «ناستاسين»، والتى وصلت إلى ثلاثة قرون ونصف القرن. ومن هنا يظهر جليًّا تأثر النوبيين بالمعمار المصرى، وظهر أيضًا واضحًا تأثر المصريين بالأرباب

النوبية، بل وتسمية بعض الأرباب المصرية بأسماء نوبية كما حدث فى معبدى أبى سُمبل. وكان هذا عكس ما حدث بالدلتا من قبل الحكام الليبيين الذين أهملوا المعابد و المقاصير المصرية، ولكن النوبيين كانوا حريصين على تكريس المعابد والأصرح، سواء داخل معابد الكرنك أو فى جبل بركل المقدس بالنوبة. تم التزاوج بين المملكتين بمباركة الشعبين وحكامهم، فامتزج الدم المصرى والنوبى معًا؛ ليصبح دمًا واحدًا مكونًا من عنصرين متجاورين من نفس القارة والأصل الجغرافى، يربطهم نهر طويل عظيم، عاشوا على ضفافه ليسطروا فصولًا جديدة من تاريخ أمة عتيدة. ومن الممكن أن نقول مؤكدين إن حكم النوبيين لمصر فى تلك الفترة، أرجع مصر القديمة ـ إلى حد كبير ـ إلى شكلها وشخصيتها القوية الأصلية. إذن، فقد تمصر النوبيون وتنوب المصريون (إذا جاز التعبير).

الملك بعنخى أو بيى

رغم أنه كان للملك النوبى «كاشتا» السبق فى الدخول إلى أسوان بجيوشه، حيث أبدى إعجابه بالأرباب المصرية الأسطورية، ولكن من الأصح أن نعتبر أن المؤسس الحقيقى لهذه الأسرة القوية هو الملك «أوسر ـ ماعت ـ رع بيى ـ عنخ ـ إى مرى آمون». ويفضل أغلب المؤرخين أن يطلقوا عليه «بيى ـ Piye». وقد سار هذا الملك على درب الحضارة المصرية ودرس معايير الفكر الفرعونى، فبنى لنفسه هرمًا لكى يُدفن به بعد تحنيطه على الطريقة الملكية المصرية. وقد أكد العلماء أنه أول ملك بنى هرمًا فى مملكة «كوش» النوبية، ورغم أنه الآن مُحطم، إلا أن بقاياه جعلت الدارسين يتعرفون على سماته والتى منها أنه كان لديه دَرج طويل مكون من ١٩ درجة فى الجانب الشرقى للهرم يؤدى إلى غرفة الدفن. وكانت زاوية الانحدار ٦٨ درجة، وقد حكم هذا الملك القوى والجرىء مصر من عام ٧٤٧ إلى ٧١٦ ق.م. وهو حكم لم يخل من المغامرات العسكرية، فقد زحف تجاه الدلتا حتى وصل إلى مدينة «سايس»؛ ليقضى على تلك المحاولة الثورية التى قادها حاكم الدلتا «تيف ـ نخت»، وبالفعل تم له الفوز على الحاكم الدلتاوى الذى لم تنجح محاولته فى الاستقلال بمملكة خاصة به، منفصلة عن الجنوب فى الدلتا. ورجع «بيى» سالمًا من الشمال إلى جنوبه المفضل محملًا بالذهب والفضة والأخشاب، عاد سعيدًا مزهوًّا بإنجازاته. ولما توفى «بيى» بعد حكم ملىء بالازدهار تم دفنه فى هرمه وبجانبه أربعة من خيوله المفضلة التى أراد أن يتمتع باستخدامها والنظر إليها فى الحياة الثانية.

آمنرديس، الأخت والابنة الملكية النوبية

تُعتبر الأميرة «آمنرديس»[1] النوبية من أهم الشخصيات النسائية التى عاصرت فترة التأسيس الحقيقية للأسرة الخامسة والعشرين الكوشية. كانت ابنة الملك «كاشتا» وأخت الملك «بيعنخى» أو «بيى»، وقد حصلت على ألقاب ملكية عديدة مما يثبت أهميتها كشخصية دينية وسياسية، فقد كانت «الزوجة المقدسة» و«العابدة المقدسة آمون فى طيبة» و«محبوبة أوزوريس»، وقد شُيدت لها المعابد، ونُحتت لها التماثيل البديعة، ومن أهم معابدها هو معبدها بمدينة هابو بالبر الغربى بالأُقصر، وهو مشيد على يسار الزائر لهذا المعبد الضخم: «معبد مدينة هابو»، والوصول إليه سهل، حيث من الممكن دخوله من الفناء الأول للمعبد الكبير بعد عبور البوابة الثانية، وقد اكتشف العالم الأثرى الشهير«أوجست مارييت» عام ١٨٥٨م تمثالاً لـ«أمنرديس» منحوت من الألباستر (الكالسيت) ويعتبر بحق من أجمل ما أفردته تلك الحقبة. ويعتبر من النتائج الإيجابية ومن المواليد الأصحاء الذين وُلدوا من رحم تلك الحضارة المتألفة والمتزاوجة فى سعادة، الحضارة المصرو ـ نوبية.

يبلغ ارتفاع التمثال حوالى ١٧٠ سم، وقد تم الكشف عنه فى معبد «مونتو» الرب الأسطورى بمعابد الكرنك، وقد تأثر المكتشف «مارييت» بشخصية «آمنرديس» لدرجة أنه كتب سيناريو وصمم المناظر المسرحية لأشهر أوبرا مصرية قديمة ألا وهى «أوبرا عايدة» ساردًا قصة حياة الأميرة «آمنرديس» والتى أرادت أن تخلد ذكراها بوضع اسمها داخل خرطوش ملكى، فإذا بها تشتهر أيضًا عبر أشهر الأعمال الأوبرالية فى تاريخ الفن، ولكن ولصعوبة اسم «آمنرديس» على المغنيين الأجانب، قرروا أن يغيروا اسمها فى الأوبرا إلى «عايدة» وهو اسم ليس له علاقة بحقيقة «آمنرديس» أو تاريخها.

الملك شباكا

الملك «نفر ـ كا ـ رع شباكا» هو ثانى الملوك الكوشيين فى الأسرة النوبية الخامسة والعشرين، وقد حكم من عام ٧١٦ إلى ٧٠٢ ق.م، وقد كان لهذا الملك شخصية عسكرية قوية، حيث نجح فى القضاء على نفوذ الملك «باك إن رن إف» الصاوى (الأسرة الرابعة والعشرون) بالدلتا. وبدا واضحًا أنه رغم القوة العسكرية التى أظهرها النوبيون والمصريون فى هذه الفترة كانت هناك مملكة أخرى تتوسع وتتوغل فى آسيا متجهة إلى الغرب حيث أرض كنعان ومصر. هذه المملكة

(١) أسمها الأصلى ينطق هكذا: «إيمن ـ إر ـ دى. إس».

هى المملكة الآشورية، والتى نازلت الملوك النوبيين فى أكثر من موقعة تباينت فيها الانتصارات والانكسارات عند الطرفين.

وبدا جليًا الازدهار الأدبى فى عصر الملك «شباكا» والعودة إلى الأصول المصرية الفنية، حيث ترك لنا عصر هذا الملك التماثيل المنحوتة على الشاكلة الفرعونية والنصوص الدرامية والدينية التى لها علاقة بقصة الخلق، وكانت أيضًا هناك طفرة فى عملية بناء السدود لحماية وادى النيل من الفيضان. وقد استنبط الملك «شباكا» نفس الفكر الملكى المصرى القديم وسار على دربه، فلقب نفسه بنفس لقب الملك «بيبى الثانى» الدولة القديمة ـ وجعل أخته «آمنرديس» ذات سلطة دينية وسياسية، ووضع ابنه «حور ـ ما ـ آخت» ككاهن أعلى للرب «آمون» فى طيبة. ولهذا الأمير تمثال من الحجر الأحمر بمتحف النوبة بأسوان الآن، وهو أعلى ما وصل إليه فن النحت فى هذه الفترة. ونشط «شباكا» فى بناء المعابد ووضع اسمه وألقابه الملكية على أغلب المعابد المهمة مثل: الكرنك، وأبيدوس، ومنف، وإسنا وغيرها. وقد دفن فى هرم فى منطقة «كورو»، وكان لهذا الهرم غرفتان للدفن، تم تجميل جدرانهما بالمقولات السحرية الدينية التى تضمن للمتوفى حياة ثانية كريمة، وهى نفس النصوص المصرية القديمة التى آمن بها ملوك الأسرات المصرية من قبل. شُيد هذا الهرم من الحجر الرملى. وفى جبانة الخيول الملكية تم الكشف عن بقايا جوادين للملك «شباكا» تم دفنهما بعد أن تم تزيينهما بالأحجار الشبه كريمة، ولكن يد اللصوص وصلت لتلك المدافن، فلم يبق منها إلا القليل. ورغم أن ابن الملك «شباكا»، الكاهن الأعلى «حور ـ آخت» كان أيضًا هو الأمير الوراثى والحاكم وحامل ختم الوجه البحرى والابن الأكبر للملك، لكنه لم يحكم بعد وفاة أبيه؛ لأن الحكم قد انتقل مباشرة إلى الملك «شبتاكا»، وهو ابن الملك المؤسس «بيى» واسمه بالكامل «جيد ـ كا ـ رع شبتاكا»، وقد حكم حوالى ١٦ عامًا، ولما توفى دفن كالعادة فى هرمه بـ«كورو»، ويتولى العرش بعده الرجل الذى سوف يحضر اسمه فى سجلات التاريخ بحروف من الذهب النوبى، الرجل الذى سوف يعيد أمجاد «رمسيس وتحتمس»، هو الملك النوبى «طهارقا».

الملك طهارقا

الملك «نفر ـ تم حو رع طهارقا» هو ثالث الملوك الكوشيين الذين حكموا من «نباتا» النوبية، وقد حكم من عام ٦٩٠ إلى ٦٦٤ ق.م، وقد قاد الجيوش النوبية والمصرية فى معارك عديدة ضد الآشوريين الذين كانوا قد قوى نفوذهم فى الدلتا، وفى البداية كان الانتصار من نصيبه، ولكنه هُزم بعد ذلك بسنوات قليلة واضطر إلى الانسحاب إلى «نباتا» ليحكم من هناك. وقد عضد الآشوريون

الحكام الصاويين وشدوا من ساعدهم فى الدلتا ليكونوا سدًّا منيعًا ضد «طهارقا» وجيوشه وليضمنوا عدم عودته؛ لأنهم كانوا على دراية كبيرة بالأوضاع السياسية فى الدلتا آنذاك. وكانوا على علم أن هناك الكثير من أمراء الأقاليم الموالين لـ«طهارقا» الكوشى، فتم التخلص منهم تاركين الحاكم الصاوى «نخاو» ليكون بمثابة الشوكة فى حلق «طهارقا»، وقد وصلت عمليات التشييد والبناء فى عصر «طهارقا» إلى أعلى الدرجات، حيث ترك لنا هذا الملك النشيط الكثير من التماثيل، والأعمدة، والمقاصير فى معابد مصر رغم إصراره على ألا يغتصب أى أثر من أى ملك قبله، وهى عادة انتشرت فى بعض الأزمنة لدى بعض الحكام. وبنى معبدًا فى جبل «برقل المقدس» بالنوبة وكرسه لعبادة الربة «موت» زوجة «آمون».. وتميز هذا المعبد بوجود عدد من الأعمدة ذات التيجان التى نُحتت على شكل الوجه الكامل للربة «حاتحور» الجمال والموسيقى. أما أشهر آثاره فى الأقصر فهى ذلك العمود المشيد بالفناء الأول لمعبد الكرنك، والذى يصل ارتفاعه إلى ٦٢ قدمًا. وهو واحد من عشرة أعمدة كانت تكون فى الماضى مقصورة ضخمة كرسها «طهارقا» لعبادة الرب «آمون».

الكبش كان رمز آمون المقدس

وقد كرس العديد من الأبنية للأرباب مثل معبد «أوزوريس» رب الجبانة. ووجدت آثاره فى معبد مدينة هابو والحمامات ومنف وقفط وتانيس، وقد كان الملك «طهارقا» مزواجًا، وقد تزوج من خمس سيدات على الأقل. وتوفى «طهارقا» بعد ستة وعشرين عامًا من الحكم. وقد قرر أن

عمود الملك طهارقا ـ معبد الكرنك ـ الفناء المفتوح الأول خلف الصرح الأول للمعبد

يُدفن فى منطقة غير «كورو» ألا وهى منطقة «نورى» فى الجهة المقابلة من النهر. وقد شرح الأثرى «تيموثى كيندال» هذه الحركة الجديدة والغير تقليدية لـ«طهارقا» بأنه أراد أن يكون هرمه متعامدًا مع شروق الشمس فى أول يوم من العام المصرى الجديد، وهو ما يجعله على علاقة وثيقة بفكرة وعقيدة البعث والحياة الثانية عند المصريين القدماء، ومن أهم القطع الفنية التى تركها لنا هذا الملك الفنان هو تمثاله على هيئة أبى الهول. يصل ارتفاع التمثال إلى ٤٢ سم ويظهر جسد الأسد رابضًا فاردًا ذراعيه الأماميين. وهو رمز الحماية وقوة الشكيمة. وفكرة التمثال الفنية والدينية هى أن الملك نفسه هو ذلك الأسد الحامى. تم نحت التمثال من حجر واحد من الجرانيت الوردى، ويظهر شعر الأسد على جانبى وجه الملك بطريقة مماثلة لنفس الطريقة التى ابتكرها النحات المصرى القديم إبان الدولة الوسطى، وتم نحت ثعبانى الكوبرا الحامية أعلى الجبهة الملكية. وعلى صدر الأسد الرابض تم نحت اسم الملك داخل خرطوش ملكى. يقبع هذا التمثال الفريد ذوالحالة الممتازة من الحفظ فى المتحف البريطانى بلندن.

الملك تانوتامانى

كان الملك «با ـ كا ـ رع تانوتامانى» هو آخر ملوك تلك الأسرة العتيدة، وقد حكم من عام ٦٦٤ إلى ٦٥٦ ق.م. وكانت بدايته مشجعة وتتميز بالقوة والإقدام، حيث استطاع غزو الدلتا وهزيمة الحاكم الصاوى الذى عينه الآشوريون «نخاو الأول»، ولكنه لم ينجح أن يبقى ملك مصر والنوبة إلا قرابة العام فقط، إذ سرعان ما اضطر إلى مواجهة الآشوريين فى معركة أخرى هُزم فيها هزيمة نكراء واضطر إلى سحب جيوشه إلى الجنوب مرة أخرى. ونجح الآشوريون فى إعادة الكرة بتنصيب حاكم صاوى آخر بدلًا من «نخاو الأول» الذى هزمه وقتله «تانوتامانى». هذا الحاكم الجديد فى الدلتا هو ابن الحاكم المقتول واسمه «بسماتيك الأول» وخلال السنوات الأخيرة كشف «تشارلز بونيت» و«دومينيك فالبل» عن حفرة قطرها حوالى ٣ أمتار تحتوى على سبعة تماثيل مهمة لخمسة ملوك هم: «طهارقا» و«تانوتامانى» و الثلاثة الباقون هم ملوك أصلهم نباتى، وقد حكموا المملكة النوبية النباتية بداية من الجندول الثانى وحتى الجندول السادس، واسمهم «سينك آمانى سكن» و«آنلامانى» و«أسبيلتا». وقد تم ترميم تمثال «تانوتامانى» ليظهر لنا أن الملك كان حريصًا على اتباع طريقة وشكل التماثيل المصرية الفرعونية، فقد تم نحت ثعبانى الكوبرا على الجبهة، ويغطى الملك رأسه بخوذة محكمة، ويتدلى من رقبته منظر منحوت لدلاية تظهر الكبش الحيوان المقدس الذى كان يرمز للرب «آمون» المصرى الأسطورى، وهذا الكشف مهم للغاية لأنه يثبت

كيف أن أهم الملوك الكوشيين كانوا حريصين على اتباع التقليد المصرى فى السياسة والفن على حد سواء. ويعتقد بعض المؤرخين أن هذه التماثيل قد تم تدميرها على يد الملك «بسماتيك الثانى» الذى حارب الكوشيين والنوبيين وهزمهم، وبعدها قرر تحطيم تماثيلهم ووضعها فى حفرة لإنهاء ذكراهم ومحو تاريخهم بل وحياتهم الأبدية.

هذا الاكتشاف مكانه فى مدينة «بنابس» القديمة، وهى منطقة «دوكى جيل» الآن، شمال كرمة بـ«السودان»، وقد وضع هذا الكشف المذهل تلك المنطقة على خريطة الآثار فى العالم لأنه من المتوقع ازدياد الاهتمام بتلك الأماكن التى تظهر الربط بين حضارة مصرية تم دراستها باهتمام واستفاضة والحضارة النباتية المروية، الكوشية، النوبية السودانية، والتى لم تحظ حتى الآن بنفس الاهتمام العالمى من قبل الدارسين والباحثين. النوبة ما زالت تحمل العديد من الأسرار القديمة، ويُذكر للملك «تانوتامانى» أنه قد ترك بين آثاره ومقاصيره لوحة من الجرانيت الوردى يروى فيها حُلمًا جاء فيه عدد من الربات المقدسات ليؤكدوا له أنه سوف ينتصر ويتولى عرش القوة والعنفوان. وهذا بالطبع يذكرنا بنفس الفكرة المصرية القديمة، والتى اتبعها الملك «آمونحوتب الثانى»، والملك «تحتمس الرابع» صاحب لوحة الحلم التى تقبع فى سكون بين أيدى تمثال أبى الهول بالجيزة، وقد نقل الملك النوبى نفس فكرة ظهور الأرباب فى الأحلام والنبوءات التى ابتكرها هؤلاء الملوك المصريون للوصول إلى مآربهم، سواء كانت هذه الرغبات هى الوصول للعرش وإضفاء الشرعية عليهم أو الانتصار الممدوح من الأرباب، وحرص الملك «تانوتامانى» على أن يُدفن فى هرم بمنطقة «كورو» بجوار مقبرتين لجوادين من جياده كعادة الحكام الكوشيين.

نهاية الأسرة الخامسة والعشرين

وبنهاية حكم آخر ملوك هذه الأسرة يُسدل الستار على واحدة من أقوى الأُسر فى تلك الحقبة. زمن القوى الكوشية والعنفوان العسكرى النباتى، زمن الفن النوبى المتأثر بالمصرى، زمن انفصال قوى الحكم فى الدلتا الصاوية المعضدة من جانب الآشوريين بقيادة ملوكهم مثل «إسرحدون» و«آشور بنيبال»، عن قوى الجنوب الذى كان يديره الكوشيون بالاسم واللقب فقط، ولكن الحاكم الحقيقى الذى يدير دفة الأمور كان فى الحقيقة ـ كما ذكرنا آنفًا ـ مديرى بيوت العابدات المقدسات (كاهنات لهن نفوذ كبير داخل وخارج المعبد). لكن، وعلى الجانب الآخر عاشت واستمرت الكثير من العادات والتقاليد الموروثة من المصريين مثل بناء الأهرامات والتماثيل المصرية الشكل، فكانت النتيجة نصوصًا وفنونًا وديانة مصرية نوبية، فى خليط حضارى لم تستطع رياح الوقت أن تمحو سماتها.

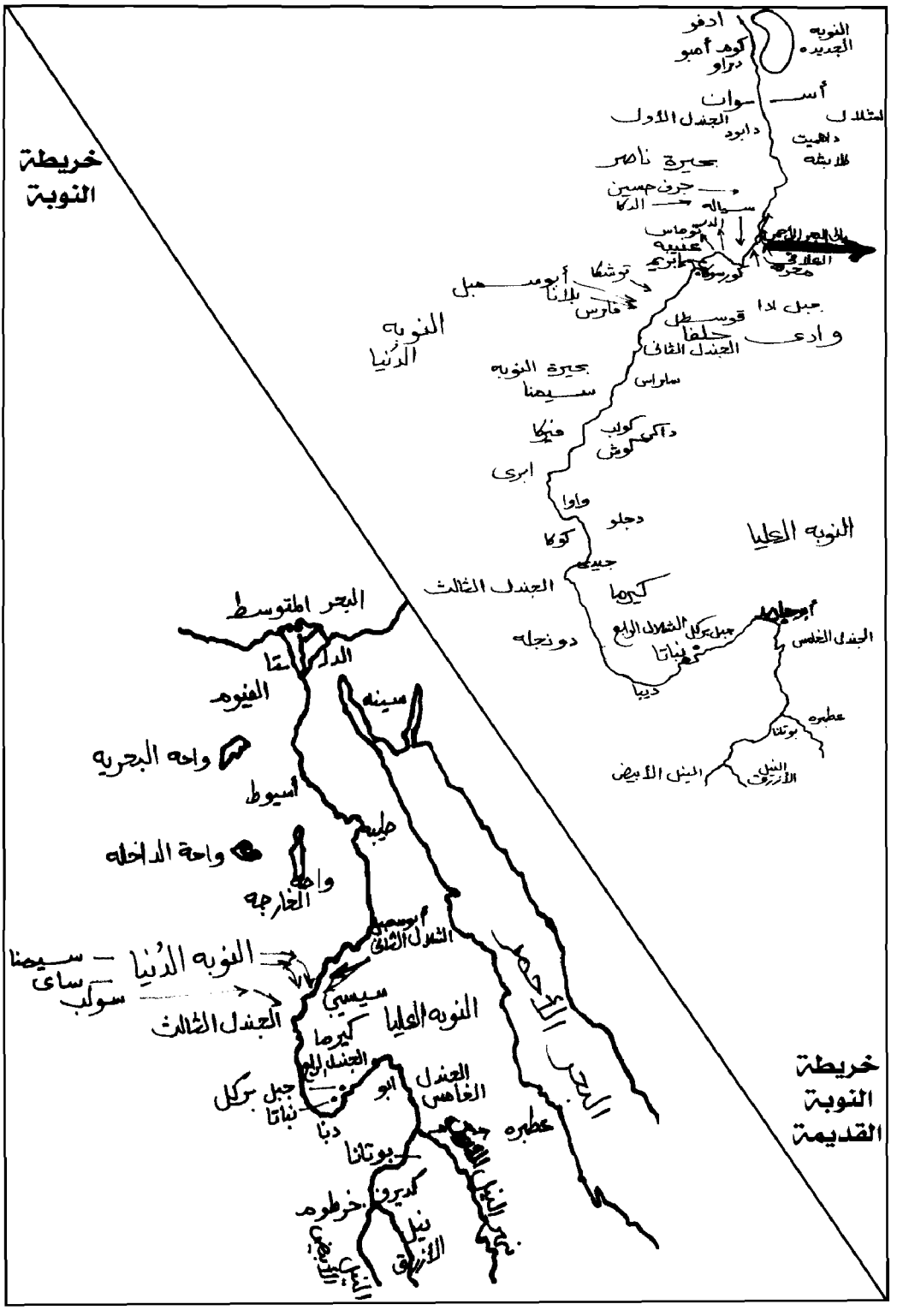

خريطة النوبة
النوبه الجديده
ادفو
كوم أمبو
دراو
أسوان
الجندل الأول
دابود
الشلال
داهيت
جرف حسين
السيالة
الدكا
الدر
عنيبة
أبو سمبل
توشكا
فارس
بلانا
أدندان
جبل ادا
قوسطل
وادي حلفا
النوبه الدنيا
الجندل الثاني
بحيرة النوبه
سيمنا
سارواس
كولب
فيركا
كوش
امبرى
داوا
دجلو
كوكا
جيمى
النوبه العليا
الجندل الثالث
كرما
دونجله
جبل بركل
الشلال الرابع
نباتا
الجندل الخامس
دبا
عطبره
بوتانا
النيل الأبيض
النيل الأزرق
البحر المتوسط
الدلتا
الفيوم
سيناء
واحه البحريه
أسيوط
واحة الداخله
واحة الخارجة
أبو سمبل
الشلال الثاني
النوبه الدنيا
سيمنا
ساى
سولب
سيسبي
النوبه العليا
الجندل الثالث
كيرما
الجندل الرابع
جبل بركل
نباتا
دبا
ابو
الجندل الخامس
عطبره
بوتانا
كديرو
خرطوم
نيل الأزرق
خريطة النوبة القديمة

الأسرة الصاوية

الأسرة السادسة والعشرون

(٦٦٤ - ٥٢٥ ق.م)

هذه هى الأسرة التى طالما نافست الأسرة الكوشية النوبية ودارت بينهما الحروب، وقد كانت هى الأيدى الطويلة للآشوريين فى منف والدلتا بصفة عامة. وهى أيضًا الأسرة التى وضعها الآشوريون كحائط منيف منيع لوقف أية محاولة للنوبيين للتقدم شمالًا. وقد تم أشورة بعض الصاويين (جعلهم يولُون بالفضل والانتماء لمملكة «آشور» رغم أنهم فى البداية كانوا ألد أعدائها) مثل «نخاو الأول» و«بسماتيك الأول» والذى يُعتبر المؤسس الحقيقى لهذه الأسرة الصاوية، وقد حكم «بسماتيك الأول» من عام ٦٦٤ إلى ٦١٠ ق.م، وقد كان حكم هذا الرجل هو بداية ظهور الأجانب الإغريق فى منطقة الدلتا، حيث استعان بهم كمرتزقة فى فرض سطوته على الدلتا، وقد تزوج من «محيت ـ إن ـ وسخت» فأنجبت له الأميرة الكاهنة «نيتوكريس الأولى» و«ميريت ـ نيت» وملك المستقبل «نخاو الثانى»، ويعتبر الملك «واح ـ إم ـ إيب ـ رع نخاو الثانى» هو ثالث الملوك الصاويين، وقد حكم من عام ٦١٠ إلى ٥٩٥ ق.م، وقد كان هذا الملك العديد من الإنجازات، وعاصر العديد من الأحداث المهمة فى المنطقة، وساعده فى هذه أنه كان ملكًا مبتكرًا، مفكرًا ومبدعًا ولا يخشى أن يدخل فى تجارب محسوبة، ومن هذه الأحداث والإنجازات:

١ - شق قناة تصل الفرع البلوزى لدلتا نهر النيل بالطرف الشمالى للبحر الأحمر.

٢ - بناء أسطول بحرى كبير هو الأول والأقوى من حيث ضخامة وكثرة عدد المراكب والسفن وطريقة الأداء.

٣- انهيار الدولة الآشورية، الحدث الذى شجعه على غزو أرض كنعان وفرض سطوة المملكة المصرية مرة أخرى على تلك المناطق بعد فترة طويلة من الغياب .

٤- ظهور القوى البابلية فى الأفق واحتلالها مكانة مرموقة على الخريطة الجغرافية والسياسية العالمية.

٥- عاصر عصر النهضة والازدهار اللذين أتت بهما هذه الأسرة. فانتشرت عمليات ترميم المعابد والآثار المصرية، وتمت عمليات نقل ونسخ الكثير من النصوص الأدبية والدينية من أصولها المهددة بالضياع أو الدمار.

٦- عاصر ظهور الملك القوى «نبوخد نصر» البابلى الشهير.

ويتوفى «نخاو الثانى» بعد حياة حافلة مليئة بالإبداعات ويدفن فى منطقة «سايس» بالدلتا، ولم تكن مومياؤه عند اكتشافها فى حالة جيدة.

ويتولى العرش من بعده ابنه «بسماتيك الثانى»، ورغم حروبه الكثيرة ضد النوبيين ومحاولاته الناجحة فى الحفاظ على الأراضى المصرية من الغزوات الخارجية إلا أنه سار على نفس درب والده من إنجازات معمارية وبنايات دينية، وقد حكم بعده ست سنوات تاركا آثارًا له فى مناطق عديدة مثل «صا الحجر»، و«تل بسطا»، و«ليتوبوليس» (أوسيم)، و«أبو صير» بالجيزة، و«تانيس»، و«الأشمونيين» بالمنيا، و«هليوبوليس» والإسكندرية ودمنهور (الجدير بالذكر هنا أن الإسكندرية ودمنهور لم يكونا يحملان تلك التسمية بعد).

ثم يأتى إلى عرش مصر الملك «واح-إب-رع بريس»، ولكن ما زال الكثير من أُمهات الكتب تفضل اطلاق اسمه الهيروغليفى «واح-إب-رع» عليه غير عابئين بالتصحيف الإغريقى لاسمه المصرى. وهو رابع ملوك الأسرة الصاوية المجددة المرممة الداعية للأجانب من إغريق وفينيقيين، وقد حكم لمدة ١٩ عامًا، كانت مزيجًا من الاهتمام ببناء المعابد وإضافة المنشأت الدينية وبين حروبه ضد «نبوخد نصر الثانى»، ومحاولاته لحماية حدود مصر الشمالية. وإبان عصر هذا الملك ظهرت شخصية قوية، ولكن لا يجرى فى عروقها الدم الملكى، أصل عائلته غامض، هو القائد العسكرى «خنم-إب-رع أحمس سانيت»، أو «أحمس الثانى»، وقد استولى هذا القائد على الحكم بعد إزاحة الملك السابق عن طريق ثورة ليبية قامت ضده. وحكم البلاد من عام ٥٧٠ إلى ٥٢٦ ق.م، وهى مدة حكم طويلة وصلت إلى ٤٤ عامًا. وقد أطلق عليه الإغريق اسم «آماسيس»، وأُطلق عليه

أيضًا اسم «آموسيس»، وقد نُحتت له التماثيل التى تُظهره بشكل فرعونى أصيل. وقد أكمل مسيرة أفراد الأسرة السادسة والعشرين فى بناء المعابد بالدلتا وأبيدوس، وشيد لنفسه مقبرة فى «سايس». وفى وقته بدأت قوة الفرس تظهر بشدة وبخطورة مهددة المملكة المصرية. فمن الخارج، كان هناك الأخطار الشمالية والغربية، ومن الداخل كان الإغريق الذين قطنوا بعض المدن المصرية وخصوصًا الشمالية منها، قد تحولوا من مجرد مرتزقة فى الجيش المصرى إلى تجار. وكانوا هؤلاء هم النواة التى سوف تفرز فيما بعد إغريقًا ذوى مناصب عالية فى القصر الملكى، بل وقوادًا للجيش المصرى نفسه. وقد وصف «أحمد بدوى» عهد الملك «أماسيس» (أحمس الثانى) فى كتابه «هيرودوت» وهو يتحدث عن مصر بأنه: «أشبه بصحوة الموت»، يقول: «فهى (يقصد مصر) قد بلغت بين يديه (يقصد أحمس الثانى) أقصى ما كان يمكن أن يُهيأ لها من مكان، فراجت تجارتها، وازدهرت ثروتها، ونشطت حركة البناء فى عمائرها الدينية». ويشبه «أحمد بدوى» عصره (يقصد أحمس الثانى) بعصر الملك «أمونحوتب الثالث». حينما يقول: «يكاد عصر «أحمس الثانى» من هذه الناحية يشبه عصر «أمينوفيس الثالث» (يقصد هنا الملك المصرى «أمونحوتب الثالث» ملك الأسرة الثامنة عشرة) الذى عاشه المصريون قبل عصر «أماسيس» بثمانية قرون، وقد اتصف بالذكاء والحنكة السياسية والديبلوماسية الدولية التى وضحت جليًا عندما بعث بابنته إلى ملك بلاد فارس ليتزوجها، وبالتالى يأمن شره. وقد اتهمه بعض كُتاب التاريخ بأنه كان أيضًا يحب اللهو ويهوى الشراب. وقد ورث ابنه «بسماتيك الثالث» عرش والده فى عام ٥٢٦ ق.م، ولم يستمر عليه أكثر من ستة أشهر. وكانت نهايته محزنة، حيث تم إعدامه على يد الملك الفارسى «قمبيز» والد «قورش» والذى كان قد احتل العديد من الممالك الآسيوية مثل «ليديا» و«ميديا» و«بابل»، فترك لابنه من زوجته «كاسندانى» ميراثًا ضخمًا ومملكة شاسعة مترامية الأطراف، وبمقتل «بسماتيك الثالث» أُسدل الستار على الأسرة السادسة والعشرين التى أطلق عليها بعض المؤرخين أسرة النهضة..

المؤلف فى كوم أوشيم - طريق القاهرة - الفيوم

الفترة المتأخرة

الأسرة السابعة والعشرون
(٥٢٥ - ٤٠٤ ق.م)

الأسرة الفارسية

مؤسس هذه الأسرة الأجنبية هو الملك الفارسى الشديد البأس «قمبيز»، والذى حكم من عام ٥٢٥ إلى ٥٢٢ ق.م. وهو ابن الملك الغازى «قورش»، والذى توفى فى أواخر عام ٥٢٩ ق.م بعد حياة مليئة بالغزوات والانتصارات، ولكنه لم يعش حتى يرى نهر النيل. ولكن كان ابنه «قمبيز» أوفر حظًا، وقد حُكمت مصر فى عصره من العاصمة «منف» (ممفيس ـ ميت رهينة بشبرامنت ـ الجيزة) ولكن لم يختلط الفرس مع المصريين كما فعل النوبيون الكوشيون والليبيون من قبلهم والمقدونيون واليونانيون من بعدهم. بل لقد اتهم بعض كتبة التاريخ الملك «قمبيز» بأنه ذبح عجل «أبيس» المقدس لدى المصريين القدماء متحديًا بذلك الشعور الدينى لدى كهنة المعابد، ومؤكدًا عدم احترامه للديانة المصرية القديمة. ومن الجدير بالذكر أن «قمبيز» كان واحدًا من ملكين فارسيين كانا قد زارا مصر على مدار الحكم الفارسى للبلاد . بل إن الحد وصل إلى أن عددًا ليس بقليل من الملوك الفرس إبان الأسرة السابعة والعشرين لم يتخذوا ألقابًا فرعونية ملكية. ولشساعة المملكة الفارسية، كانت البلاد تحكم عن طريق «ساتراب»، وهو أشبه بالوالى العثمانى الذى كان يوليه الباب العالى بالأستانة. وقد مات «قمبيز» بعد أن أصابته لوثة عقلية، ويعتلى عرش مصر بعده الملك «دارا الأول» الذى كان مهتمًا بالإنشاءات ودون اسمه فى معابد الكرنك وهيبس بواحة الخارجة فى الصحراء الغربية المصرية وبمدافن العجل المقدس «أبيس» بالسرابيوم بسقارة، وقد حكم من عام ٥٢٢ إلى ٤٨٦ ق.م توجها بمحاولة جادة مثمرة فى شق

قناة مائية تصل بين شرق الدلتا والبحر الأحمر. وانغمست الإمبراطورية الفارسية فى حروبها ضد اليونان. وتوالى الحكام الفرس على مصر مثل «زيركس الأول» (٤٨٦ - ٤٦٥ ق.م) ثم «أرتاكسير كسيس الأول» (٤٦٥ - ٤٢٤ ق.م) ثم «دارا الثانى» (٤٢٤ - ٤٠٥ ق.م) حتى «أرتاكسيركسيس الثانى» (٤٠٥ - ٣٥٩ ق.م) وهو آخر ملوك هذه الأسرة التى لم تضف الكثير من الإنجازات المعمارية؛ لأنها لم تؤمن بالعقيدة المصرية القديمة، ولم تُظهر الاحترام الكافى لها. ولذلك اعتبرهم المصريون بحق من الغزاة المغيرين، فرفضوا النفوذ الفارسى. ولم يتخلص المصريون من الفرس إلا عندما هزمهم «الإسكندر الثالث» المقدونى ناهيًا الأسرة الواحدة والثلاثين الفارسية، آخر الأسرات، ولكن قبل هذا الحدث الكبير حكمت مصر الأسرة **الثامنة والعشرون** بقيادة الصاوى «أميرتايوس» لمدة ست سنوات فقط، وبذلك تعتبر هذه الأسرة هى من أصغر الأسر من حيث مدة الحكم، وقد دونها ووثقها لنا المؤرخ «مانيتون السمنودى»، وقد حكم هذا الملك مصر مستغلًا فترة ضعف فارسية، ولم يترك «أميرتايوس» أى أثر نستدل به عن أسرته أو إنجازاته، ولكنها كانت فترة الضعف والوهن والاحتلال التى كانت تمر بمصر القديمة رغم المحاولات الفردية لإنقاذ الموقف. وقد جاء الملك «نفريتس الأول» من بعده ليؤسس الأسرة **التاسعة والعشرين**. وتوالى الحكام مثل «باشير إن موت» و«هاجار» أو «هاكور»، والذى استمر حكمه للبلاد من عام ٣٩٣ حتى ٣٨٠ ق.م. استعاد هذا الملك زمام الأمور وأنجز بعض المنشآت وتحالف مع القبرصيين ليكون قوة عسكرية لا يستهان بها كانت جديرة بالاحترام، وقد استطاع من خلالها صد كل محاولات جيوش الفرس فى دخول مصر واحتلالها مرة أخرى. وتنتهى هذه الأسرة بعد أن نجح الملك «نقتانبو الأول» فى عزل آخر ملوكها «نفريتيس الثانى» بعد مدة حكم قصيرة.

الأسرة الثلاثون (٣٨٠ - ٣٤٢ ق.م)

حكم الملك المؤسس لهذه الأسرة واسمه «خبر كا ـ رع نقتانبو الأول» من عام ٣٨٠ إلى ٣٦٢ ق.م. ونلاحظ من اسمه ولقبه عودة الأرباب المصرية القديمة للساحة الدينية فى محاولة لاستعادة وضعها فى القصر الملكى والمعبد على حد سواء. وقد بدا ذلك جليًّا أيضًا فى انتشار العبادات وتحنيط الحيوانات المقدسة، ورغم أن «نقتانبو الأول» كان من سمنود إلا أن إنجازاته المعمارية كانت ظاهرة فى طول البلاد وعرضها، فتجده فى الكرنك بالأقصر وفيلة بأسوان وغيرها من الأماكن، وقد نجحت هذه الفترة إلى حد كبير فى تأكيد الهوية المصرية لمصر العليا والسفلى، وعدم الخضوع

السياسى والعسكرى، بل والفنى للغزاة الأجانب، وتلاه على عرش مصر بعد فترة من الهدوء والسلام الداخلى للبلاد الملك «تاخوس» أو «إر ـ ماعت ـ نى ـ رع زحر ـ ستب ـ ن ـ أنحور». ويحلو لبعض المؤرخين تسميته «تيوس» و«تاوس» و«زخر»، ورغم قصر مدة حكمه (حكم لمدة عامين فقط، من ٣٦٢ إلى ٣٦٠ ق.م) إلا أنه كانت لديه الجرأة والشجاعة فى مهاجمة الفرس (أقوى جيش عسكرى فى العالم فى ذلك الوقت). وكما كان «تاخوس» قائدًا عسكريًا ماهرًا، كان كذلك فى عالم الديبلوماسية، فقد عقد الكثير من التحالفات مع ممالك اليونان مما جعل المرتزقة اليونان يملئون جوانب معسكراته المصرية، وقد اشتهر هؤلاء المرتزقة بالقوة وهو ما ساعده على الإقدام على هذه الهجمات ضد جيوش بلاد فارس، و قد كاد أن يُمثل «تاخوس» شعاع الأمل البسيط فى فترة الكفاح ضد الفرس، ولكنه فاجأ الجميع بهروبه بعد فترة قلاقل أُثيرت ضده لضجر العديد من المصريين من طريقته فى فرض الضرائب والتعسفات المالية، وهذا ما أعطى الضوء الأخضر للملك الشهير «نقتانبو الثانى» لاعتلاء العرش.

الملك نختانبو الثانى

الملك «سينجيم ـ إيب ـ رع نيختا رع حب الثانى» حكم من عام ٣٦٠ إلى ٣٤٣ ق.م، وقد سطر هذا الرجل أهم فصول هذه الحقبة؛ وذلك لأنه يُعتبر آخر الملوك المصريين الذين حكموا البلاد. فبعده تحكم الفرس مرة أخرى ولم يعتل عرش مصر أى حاكم مصرى لمدة طويلة جدًا. وقد توج نختانبو (أو نقتانبو) حكمه بكثير من الإنشاءات والمبانى الدينية مثل «بيت الولادة» أو «ماميسى» بمعبد الربة المصرية الأسطورية «حاتحور» بدندرة، وقد كان «نختانبو الأول» أيضًا مشهورًا بتكريس التماثيل للأرباب المصرية مثل تلك التى أضافها على مدخل معبد الأقصر فى شكل عدد كبير من تماثيل أبى الهول. وقد حاول هؤلاء الملوك المصريون المؤسسون لهذه الأسرة المكافحة أن يصدوا الغزو الفارسى الجامح على البلاد. فتحالفوا مع الإغريق ضد الملوك الفرس ومنهم «أرتاكسير كسيس الثالث» الذى نجح فى استعادة مصر إلى المملكة الفارسية وانسحب «نختانبو الثانى» إلى الجنوب، ولم يستطع المصريون تحرير مصر من الفرس حتى دخول جيوش المقدونيين بقيادة «الإسكندر الثالث المقدونى»، والذى عرف بالإسكندر الأكبر عام ٣٣٢ ق.م.

وبوفاة «نختانبو الثانى» آلت مصر العليا لحكم بعض الحكام النوبيين الذين حكموا لمدة قصيرة. وبذلك انتهى عصر الأسرات، وبدأ الفصل المقدونى فى كتاب التاريخ المصرى العتيد.

لوحة من الفسيفساء للإسكندر الثالث المقدونى

اسم نادر بالهيروغليفية للإسكندر الثالث ـ معبد الأقصر